دكتور

أبو زيد شلبي

أستاذ الحضارة الإسلامية
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي



مكتبة وهبة



- يرى العلماء والمفكرون أن "الحضارة الإسلامية" أمدت الفكر الإنسانى بوسائل الرقى والتقدم عدة قرون .

- وأنها حفظت وهذبت تراث الحضارات التى سبقتها ، وأنها مهدت للحضارات الحديثة .

- وإذا استعرضنا تاريخ الحضارة القديمة والحديثة ، فهل نجد فى هذه "الحضارات" "حضارة" قامت على مثل "القيم" التى قامت عليها "الحضارة الإسلامية" ؟ ..

- وماذا يقول التاريخ عن هذه الحضارة العظيمة ، وعن آثارها فى مناحى الحياة الإنسانية ؟..

- هذا ما يحدث عنه "تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى" ، فهو يبين "أصول الحضارة الإسلامية " .. و "نظام الحكم" .. و "ديمقراطية الإسلام" .. و "نشأة العلوم الإسلامية" .. و "مظاهر العمران " .. و "الحياة الإسلامية .. والاقتصادية" .. و "الحركة الفكرية" .. و "أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوروبية" .. إلخ .

- والمؤلف الأستاذ الدكتور أبوزيد شلبى ليس غريبًا عن هذا الموضوع ، فهو أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر وهو الذى اضطلع به فى جامعة الأزهر من بدء تطويرها إلى الآن .

- ويسر .. (مكتبة وهبة) أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليسد فراغًا فى موضوع طالما تطلعت إليه نفوس العلماء .

مكتبة وهبة



دكتور

أبو زيد شلبي

أستاذ الحضارة بكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي



مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة

ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
تاريخ الحضارة الإسلامية
والفكر الإسلامى .
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
دكتور أبو زيد شلبى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.
٣٤٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٨٨/٣٤٦٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-307-138-3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المصلحين، سيدنا محمد وعلى وآله وصحبه أجمعين . **وبعد**:

فقد اقتضى تنظيم الأزهر وتطويره إدخال علوم ودراسات إسلامية ما كانت تدرس استقلالا من قبل، وكانت « **الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي** » من هذه العلوم التي أصبحت دراستها لزاما، وكان من دواعي اغتباطي أن أسندت إليَّ دراستها في « كلية الدراسات العربية » بجامعة الأزهر .

ودراسة الحضارة الإسلامية هي الدراسة المثمرة الحقة لتاريخ الإسلام؛ فتاريخ الأمة إنما هو تاريخ حضارتها وتقدمها، وليس تاريخ حروبها وفتوحها فحسب .

والحضارة الإسلامية ـ على نفاستها وعظم قدرها ـ لم يستطع الخوض في درسها، ومعاناة البحث فيها إلا نفر قليل؛ وذلك لما يلاقيه من يشتغل بها من مشاق، وما يعانيه من متاعب، وما كان لأحد أن يلم بأطرافها إلا إذا جمع شتات الكتب وفحصها، ونظر في آثار الأولين ومحصها، حتى يمكنه أن يستخلص ما يريد، ويصل إلى ما يبتغي .

وإن ما يفيده الطلاب مني مما ألقيه عليهم من محاضرات إنما هو ضوء مصباح ينير لهم طريق البحث والتنقيب والدرس إلى الغاية المنشودة، وإني لأرجو مخلصا أن يكون أبناؤنا الطلاب عند حسن ظننا بهم حتى يكون لنا منهم في المستقبل القريب إن شاء الله رجال يحملون الرسالة، ويؤدون الأمانة .

والله سبحانه أسأل أن يسدد خطانا، ويوفقنا لمبتغانا، إنه سميع الدعاء مجيب الرجاء

رمضان: ١٣٨٣ هـ   **أبو زيد شلبي**

فبراير: ١٩٦٤ م

الفصل الأول

تمهيد

الحضارة ...

تعريفها، نشأتها وأطوارها
عناصرها وعوامل تكوينها.

الحضارة
تعريفها، نشأتها وأطوارها

الحضارة فى أصل اللغة الإقامة فى الحضر : يقال فلان من أهل الحاضرة [١] وفلان من أهل البادية، وفلان حضرى، وفلان بدوى، قال القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأىَّ رجال بادية ترانا [٢]

ثم أريد منها ما يستتبع الإقامة فى الحضر من تعاون وتآزر، وتبادل للأفكار والمعلومات فى شتى شئون الحياة؛ من علوم وعمران، وثقافة وعرفان، وما إلى ذلك مما يتصل بتقدم الإنسان، وترقيه فى مناحى الحياة المختلفة؛ وذلك أن اجتماع الناس فى مكان وقرارهم به إنما يكون للتعاون على دفع الضرر، وتحصيل أسباب المعاش بالزراعة والصناعة، والتجارة، والفنون والعلوم المختلفة، والترقي بها حتى تصل إلى مداها المقدر لها .

فالحضارة إذن هى : مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم فى نواحى نشاطها الفكرى والعقلى من عمران وعلوم، ومعارف وفنون وما إلى ذلك، والترقى بها فى مدارج الحياة ومسالكها حتى تصل إلى الغاية التى تواتيها بها أحوالها وإمكانياتها المختلفة .

أو هى كما قال العلامة ابن خلدون :« أحوال عادية زائدة على الضرورى من

---

(١) قال فى لسان العرب : « والحاضرة خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار . . . » – ا هـ ، وفى القاموس : « والحضر محركة والحضرة والحاضرة والحضارة ويفتح خلاف البادية والحضارة الإقامة فى الحضر » .

(٢) لسان العرب، وقال المتنبى :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

والتطرية : المعالجة .

أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه [١]، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر . .[٢] » .

وعرفها ول ديورانت بأنها : « نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى [٣] » .

وهذه التعاريف الثلاثة متقاربة، ويظهر ذلك بشىء من التأمل .

* * *

---

(١) الرفه : لين العيش . رفه الرجل كمنع رفها ويكسر ورفوها لان عيشه ـ القاموس .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون فى فصل : إن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول .

(٣) مقدمة قصة الحضارة جـ١ ص٣ ، وسيزداد معنى الحضارة وضوحا فى الفصل التالى .

نشأة الحضارة وتطورها

إن اجتماع النوع الإنسانى أمر ضرورى؛ فليس فى استطاعة إنسان وحده أن يهيئ لنفسه وسائل ارتفاقه، وتحصيل حاجه[١]، وما يتطلبه معاشه إلا بمعاونة أخيه الإنسان، كما لا يمكنه أن يدافع عن نفسه إلا بالاستعانة بأبناء جنسه، وهذا ما عبر عنه الحكماء قديما بقولهم : «الإنسان مدنى بالطبع» [٢]؛ فإذا كان الاجتماع، وكان التعاون حصل له التغلب على أمر المعاش، والدافع عن النفس .

وإذا ما اطمأن إلى ذلك بدأت الحضارة، وأخذت فى النمو والازدهار، وسارت فى طريقها حتى يبلغ مداها . يقول العلامة ول ديورانت :

«إن الحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها [٣] » .

ومع أن اجتماع النوع الإنسانى ضرورى وطبعى فإن أجيال الناس مختلفون فى أحوالهم باختلاف نحلهم [٤] فى المعاش؛ فمنهم من ينتحل [٥] القيام على الحيوان من الغنم والبقر والإبل، وهم أهل البادية الذين تلجئهم الضرورات إلى طلب المسارح[٦] والمراعى لحيواناتهم التى يعيشون بنتاجها، ويكون اجتماعهم وتعاونهم فى حاجاتهم، ومعاشهم بالقدر الذى يحفظ الحياة، ويحصل بلغة العيش [٧] من غير

---

(١) حاجه جمع حاجة .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون فى فصل : العمران البشرى .

(٣) مقدمة قصة الحضارة جـ١ ص٣ .

(٤) نحلهم : طرائقهم ومذاهبهم فى معاشهم .

(٥) ينتحل: يلزم نفسه؛ انتحل فلان كذا وكذا معناه قد ألزمه نفسه وجعله كالملك له – لسان العرب .

(٦) المسارح: جمع مسرح وهو الموضع الذى تسرح إليه الماشية بالغداة للرعى – لسان العرب .

(٧) بلغة العيش: البلغة بالضم ما يتبلغ به من العيش أى ما يكتفى به – القاموس .

مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك، وما تزال طرق معايشهم وعاداتهم وطبائعهم كما كانت منذ آلاف السنين [1].

ومنهم من يستعمل الغراسة والزراعة، والصناعة والتجارة والفنون وغيرها وهؤلاء هم أهل الحضر [2] .

وإذا اتسعت أحوالهم، وحصل لهم، ما فوق الحاجة من الغنى والرفاهية دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا فى الزائد على الضرورى، واستكثروا من الأقوات والملابس واختطاط المدن والأمصار للتحضر .

وفى المدن والأمصار تزيد أحوال الرفه والدعة فتجىء عوائد الترف البالغة مبالغها؛ فيتخذون القصور، ويعالون فى صرحها، ويبالغون فى تنجيدها، [3] واستجادة ما يتخذونه لمعاشهم، وينتهون فى العمران والعلوم والمعارف، وما إلى ذلك إلى المدى الذى تؤهلهم له أحوالهم وظروفهم الخاصة بهم [4] .

وذلك أن المدينة يتجمع فيها – غالباً – ما ينتجه الريف من ثراء، وما يبرز فيه من نوابغ العقول، وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة فيها على مضاعفة وسائل الراحة والترف، وفيها يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار؛ ومن ثم تتلاقح العقول، ويسمو التفكير، ويرهف الذكاء، ويستثار فيه قوته على الابتكار والإبداع .

وفى المدينة ترغب فئة من الناس عن احتراف الأشياء المادية، ويتوافرون على

---

(١) حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون ص ٧٨ .

(٢) يقول ول ديورانت : أول صورة تبدت فيها الثقافة هى الزراعة؛ إذ الإنسان لايجد لتمدنه فراغا ومبرراً إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته، ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه . فى هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة –أعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام – نرى الإنسان يبنى لنفسه الدور والمعابد والمدارس ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج – قصة الحضارة جـ١ ص٥، وراجع طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٦٥ .

(٣) الصرح : القصر وكل بناء عال . والتنجيد : التزيين – القاموس .

(٤) يقول ابن خلدون فى فصل انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة : « والحضارة إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه »، وراجع طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٦٥،٦٦ .

دراسة العلوم والأدب، والفلسفة والفنون، ويبرزون فيها وينتجون؛ وبذلك يدفعون عجلة الحضارة إلى الأمام .

حقاً إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح لكنها لا تزدهر إلا فى المدن [1] .

وبهذا ظهر: أن أهل **البادية** هم الذين تلجئهم ظروف معاشهم إلى الاكتفاء بما هو ضرورى .

وأن أهل الحضر هم الذين لا يكتفون بالضرورى، وإنما يحصلون الحاجى والكمالى؛ وهكذا يسير أهل الحضر فى طريق الرقى والعرفان، والتقدم والعمران وما إلى ذلك من نواحى النشاط المختلفة .

ويكون ذلك متفاوتا فيهم بحسب مراكز أمصارهم، وينابيع معاشهم، ومجتمعهم وأحوالهم . وسنعرض لذلك فى الفصل التالى .

* * *

---

(١) راجع مقدمة قصة الحضارة جـ١ ص٥ .

عناصر الحضارة وعوامل تكوينها [1]

للحضارة عناصر تتألف منها، وتوجد بوجودها ، ولها عوامل تكونها وتستحث خطاها، وعوامل تبطئ بها أو تعوق مسراها .

وعناصرها - كما يرى بعض الفلاسفة وعلى رأسهم العلامة ول ديورانت أربعة :

١- الموارد الاقتصادية . ٢- النظم السياسية .

٢- القاليد الخلقية . ٤- متابعة العلوم والفنون .

وسنرى فيما بعد أن حضارة الإسلام قد استوعبت هذه العناصر وعنيت بها، وبرزت فيها وتفوقت .

وأما عوامل تكوينها فكثيرة؛ ومن أهمها :

١- العوامل الجغرافية . ٢- العوامل الاقتصادية .

٣- العوامل الثقافية . ٤- العوامل الدينية .

٥- العوامل الأخلاقية . ٦- العوامل النفسية .

٧- العوامل الجيولوجية . ٨- التربية .

١- العوامل الجغرافية :

إن الأمطار والمياه من أهم العوامل للحضارة؛ فالماء وسيلة الحياة، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس .

والإقليم الذى تجود تربته بالطعام أو المعادن، وأنهاره تهيئ له طريقا هينة للاتصال بغيره، وشواطئه مليئة بالمواضع التى تصلح مرافئ طبيعية بسفنه التجارية،

---

(١) مرجعنا فى هذا الفصل مقدمة قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت جـ١ ص٣ وما بعدها .

ويقع على طريق رئيسى للتجارة العالمية؛ مثل هذا تزدهر فيه الحضارة وتبتسم له. وحرارة الأقطار الاستوائية، وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر لا تهيئ للمدنية أسبابها؛ فما يسود تلك الأقطار من خمول وأمراض من شأنه أن يصرف الجهود عن الأخذ بأسباب التقدم والتمدين[1]، ولا يذر للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه فى ميدان الفنون والعلوم، وجمال التفكير .

٢- العوامل الاقتصادية :

للعوامل الاقتصادية أهمية كبرى فى تكوين الحضارة؛ فقد تكون قبيلة من قبائل البدو كبدو بلاد العرب على درجة نادرة من الذكاء والفطنة، وقد تبدى من ألوان الخلق أسماها كالشجاعة والكرم، وإباء الضيم والشمم، لكن ذكائها من غير وجود عوامل اقتصادية تطمئنها على مورد محقق من الطعام والماء ستنفقه فى شن الغارات، ومخاطر الصيد، وارتياد موارد القوت بحيث لا يبقى منه شىء لوشى المدنية وترفها، وعلومها وفنونها .

٣- العوامل الثقافية :

العوامل الثقافية لها شأن أى شأن فى نشأة الحضارة؛ فالوحدة اللغوية مثلا لابد منها إلى حد كبير لتكون وسيلة بين الناس لتبادل الأفكار والمعلومات الأمر الذى يجعل الحضارة تسير بخطى واسعة نحو الكمال .

٤- العوامل الدينية :

من الضرورى أن يكون بين الناس فى مجتمعهم كل الاتفاق أو بعضه فى العقائد الرئيسية، وجانب من الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة؛ لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، ويجعل حياتنا أشرف وأكثر احتمالا واطمئناناً لنوائب الزمن .

٥- العوامل الأخلاقية :

للعوامل الأخلاقية أهمية ذات بال؛ إذ لابد من قيم أخلاقية تسود الجماعة

---

(١) التمدين: التنعيم – القاموس .

وتربط بينها حتى تكون هناك قواعد يرعاها الجميع، ويعترف بها حتى الخارجون عليها؛ وهذه القيم توجد عن طريق الأسرة أو المدرسة أو المسجد أو غير ذلك .

٦- العوامل النفسية :

لابد أن تتوافر العوامل النفسية الدقيقة لتنشأ الحضارة، فمثلا لابد أن يشعر الناس بأنه يسودهم نظام سياسى مهما يبلغ ذلك النظام حداً يدنو به من الفوضى. كما لا بد لهم من أن يشعروا بأنهم مطمئنون على أرواحهم، ولا يتوقعون الموت والهلاك عند كل منعطف فى طريق حياتهم، وإلا فلا يستطيع مثل هذا المجتمع أن يأخذ بأسباب الحضارة وهو فى مثل هذه الحالة من القلق والاضطراب والخوف .

٧ـ العوامل الجيولوجية :

العوامل الجيولوجية ذات أثر يعتد به فى الحضارة؛ فقد تزدهر المدنية فى إقليم من الأقاليم، وفيما هو كذلك ينعم بمتع الحياة، ويرفه بمسراتها ينكب بزلزال شديد يقضى على كل ما فيه .

٨- التربية :

وأخيراً لابد من تربية، ونعنى بها الوسيلة التى تنتقل بها المدنية من جيل إلى جيل مهما كانت هذه الوسيلة بدائية؛ فلا بد أن نورث الناشئة تراث القبيلة وروحها؛ فنورثهم عن طريق التقليد، أو التعليم، أو التلقين معارفها وعلومها وفنونها وأخلاقها وتقاليدها، سواء أكان المربى هو الأب أو الأم أو المعلم أو المرشد؛ لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التى تحول هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

انعدام هذه العوامل :

هذا ولو انعدمت هذه العوامل بل ربما لو انعدم واحد منها لجاز أن يتقوض أساس المدنية؛ فانقلاب جيولوجى خطير، أو انحلال عقلى أو خلقى ينشأ عن الحياة فى الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات، أو تركيز للثروة تركيزا محزنا ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات، والثورات الهدامة والإفلاس المالى، أو ماشاكل ذلك

قد يؤدى إلى فناء المدنية؛ إذ إنها ليست شيئا مجبولا فى فطرة الإنسان كلا ولا هى شىء يستعصى على الفناء، فإذا حدث اضطراب خطير فى عواملها الاقتصادية أو فى طريق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون ذلك عاملا على فنائها، فالإنسان - كما قلنا - يختلف عن الحيوان فى شىء واحد وهو التربية .

والمدنيات المختلفة هى بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها، ثم بفضل الكتابة التى تنقل تراث الآباء للأبناء، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التى تربط الصلات بين الناس قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات؛ وبذلك نصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتنا؛ فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق الموت بنا لنسلمه إلى أبنائنا .

* * *

الفصل الثانى

أحوال العالم والعرب قبل الإسلام

- الفرس .
- الروم .
- أحوال بلاد العرب قبل الإسلام .

أحوال العالم والعرب قبل الإسلام

قد يكون من الحسن قبل أن نتكلم على الحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامي أن نلم إلمامة خفيفة بحال العالم والعرب قبل الإسلام، ثم نخلص من ذلك إلى الكلام على الحضارة الإسلامية؛ فالإلمام بحال العالم الذى كان يحيط بمهد الحضارة الإسلامية، وبحال البلاد التى انطلقت منها هذه الحضارة أمر ضرورى؛ إذ يكشف لنا عن الظروف والأحوال التى سبقت ميلاد هذه الحضارة أو لابستها .

الفرس والرومان

كانت بلاد العرب قبل الإسلام محصورة بين أكبر دولتين فى العالم وهما : دولة الفرس، ودولة الرومان، وكانت هاتان الدولتان تتحكمان فى العالم فى ذلك الوقت، وتتنازعان السيادة عليه، وعلى الرغم من أنهما بلغتا شأوا عظيما فى الحضارة والرقى إلا أن عوامل الفساد والاضطراب كانت تدب فيهما، وبخاصة فى الناحيتين: الدينية والاجتماعية، ونذكر بإيجاز كلمة عن حالة كل منهما .

الفرس

الفرس من أقدم دول العالم، وأشدهم بأسا وآثارا فى الأرض، وكانوا فى بادئ أمرهم صائبة يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب، ثم غلبت عليهم المجوسية (وهى عبادة النار(١))، وصارت الدين الرسمى للدولة، ثم فشت فيهم نحلة الثنوية(٢) وهى القول بإلهين: إله الخير وإله الشر، ثم ظهرت فيهم بدعة المزدكية (٣) وهى مذهب إباحى، كما ظهرت النصرانية بمذهبيها المتعاديين :النسطورى واليعقوبى .

---

(١) على يد زرادشت . (٢) على يد مانى الزنديق .

(٣) على يد مزدك الإباحى وكان من تعاليمه: أن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض لتقسمها الناس بينهم بالتآسي، ومن كان عنده فضل من النساء والأموال والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره، فافترص السفلة ذلك واغتنموه، وكانفوا مزدك وشايعوه فابتلى الناس بهم، وقوى أمرهم؛ فكانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأولاده لا يستطيع الامتناع منهم – راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

وهكذا تعددت فيهم النحل والأديان، وتنازعتهم المعتقدات الفاسدة، وشغلتهم عما يجب عليهم لمجتمعهم، وكان ملوكهم ينصرون هذا المذهب تارة، ويناهضونه أخرى، فوهنوا وفسد مجتمعهم .

ولم تكن حالتهم السياسية بأحسن من حالتهم الدينية؛ فقد كانت بينهم وبين الهياطلة فى الشرق، والترك فى الشمال حروب لا يخمد أوارها، كما كان لهم مع جيرانهم من الرومان وقائع متوالية، وملاحم متتالية، وكان العرب فى الغرب يتربصون بهم الدوائر، بل وتجرءوا عليهم ولا سيما قبيلة بكر بن وائل؛ فإنها حاربتها وانتصرت عليها فى وقعة ذى قار، بين سنة ٦٠٤-٦١١م .

وكم من مرة نزا أبناء الملوك وذوو قرابتهم على الملك، وأوقدوا نيران الحرب والفتن الداخلية، وليس أدل على اضطرابهم السياسى من أنه تعاقب على الملك فى السنوات العشر التى سبقت الفتح الإسلامى « اثنا عشر ملكا بين رجل وامرأة وصبى صغير ومغتصب من غير بيت الملك » .

وكان ملوكهم منغمسين فى اللهو والترف مسرفين فى الملاذ والشهوات، متعالين على الشعب، ظانين أنهم من معدن آخر، وكانوا يسوقون الرعية إلى الحروب سوقا لا هوادة فيه .

كانت هذه الحروب الطاحنة، وذلك البذخ البالغ مدعاة لاستنزاف دماء الشعب، ولفرض الضرائب، وجمع الأموال فى قسوة وعنف؛ فشل اقتصاد البلاد، ودبت عوامل الفساد والانحلال فى الدولة التى كانت تنافس الرومان فى سيادة العالم، والتى كانت لها حضارة مزدهرة أسهمت فى تقدم الحضارة الإنسانية ورقيها، وأفادت منها الحضارة الإسلامية فائدة تذكر .

الروم

لقد بلغت دولة الروم من القوة والسلطان ما لم تبلغه دولة أخرى فى زمانها، وبسطت نفوذها على أكثر المعمور، وكانت تدين بالوثنية، ثم دخلتها المسيحية وانتشرت فيها[1] ؛ فوقع كثير من المنازعات والمشاحنات بين أرباب الديانتين .

---

(١) سارت المسيحية دين الدولة الرسمى فى عهد قسطنطين الأكبر (٣٢٤-٣٣٧)م، ثم صارت الدين الأوحد للدولة فى عهد الإمبراطور تيودسيوس (٣٩٤-٤٤٩) م .

وفى خلال هذه المنازعات انقسم المسيحيون على أنفسهم فى شأن عقيدتهم واشتد الجدل بينهم، وتعددت آراؤهم ومجامعهم الدينية، وسفه بعضهم بعضا[١] .

وكانت العقائد تقوى أو تضعف تبعا لأهواء الأباطرة، وميولهم نحو هذه العقيدة أو تلك، وناهيك بما أصاب مسيحى مصر فى عهد دقلديانوس سنة ٣٠٤م؛ إذ قتل علماء الملة وكبراءها حمية للوثنية، مما جعل الأقباط يؤرخون بوقعة شهدائهم أولئك إلى اليوم [٢] .

وقد شغلهم هذا الانقسام والتحيز إلى هذا المذهب، أو ذاك عن تدبير الملك وسياسة البلاد، ففسدت الأحوال واختلت الأمور، واضطربت شئون الولايات، وعمت الفوضى جميع أطراف الإمبراطورية .

أضف إلى ذلك أن الأباطرة كانوا مشغولين بملذاتهم منهمكين فى شهواتهم، مترفعين على شعوبهم، وكانت الحروب بينهم وبين الفرس لاتكاد تخبو نارها، مما اضطر الدولة إلى فرض الضرائب الفادحة، وجبايتها بالشدة والقسوة لتغطية نفقات الحروب وبذخ الأباطرة، مما أدى إلى تعطيل اقتصادها وسوء أحوالها .

تلك كانت حال الدولة التى سادت معظم العالم فى زمانها، وبلغت شأوا عظيما فى الحضارة كان له ولا شك أثر يعتد به فى الحضارة الإسلامية كما سيأتى :

حقا لقد بلغت هاتان الدولتان قمة المجد قبل الإسلام، وكان لا بد لهما أن تنحدرا بتأثير العوامل التى قدمناها، وهذه سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا؛ يقول أرباب البصر بسنن الكون، وأحوال العمران الانسانى : إن الارتقاء والمدنية دور من أدوار حياة كل أمة لا بد لها من اجتيازه متى تهيأت له، وإن الأمة لا ينالها ذلك إلا مرة واحدة فى الدهر، تبلغ أعلى قمة المجد والرقى، وينفسخ سلطانها وتعلو كلمتها كل أمم العالم .

وهاتان الدولتان قد بلغتا أعلى قمة مجدهما قبيل الإسلام، ولم يبق أمامهما إلا أن تنحدرا من ذلك المرتقى، وتخليا الطريق لمن يبنى المنار به، وهذا هو الذى قد كان؛ ومن قبل قيل

إذا تم شىء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

ولكن مع هذا فقد استفادت الحضارة الإسلامية من حضارة هاتين الدولتين فائدة لا تجحد كما سيتبين ذلك فيما بعد .

---

(١) راجع ما ذكره العلامة ابن خلدون بشأن العقيدة التى يسمونها الأمانة المتعلقة بالثالوث .

(٢) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

أحوال بلاد العرب قبل الإسلام

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء، والصحارى المترامية الأطراف، ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان التى هيأتها السيول ليجرى فيها ماؤها .

والأرض القريبة من هذه الأودية خصبة يجد المقيمون فيها ما يشربون، ومايسيمون فيه أنعامهم، وما بعد عنها قفر لا يصلح للإقامة، وسرعان ما ينتجع [1] عنها من ينزل فيها .

ومن هنا قلما كان العرب فى بواديهم يبقون فى مكان واحد، ولكنهم يتتبعون مواقع القطر لتربع أنعامهم، وإذا تأخر المطر اشتد الحال عليهم .

على أن مياه هذه الأودية لا تسد حاج أهل الجزيرة؛ لذا غلب عليها الجدب، ولا سيما أن كثيرا من مياهها يغيض فى باطن الأرض الصحرواية؛ فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة، لم يكونوا من أهلها .

ومن ثم كان جل اعتماد أهل البادية على أنعامهم، ولا سيما الإبل يأكلون لحومها ويشربون ألبانها، ويكتسون بوبرها، وتحمل أثقالهم فى تلك الصحارى المقفرة إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

يقول صاعد الأندلسى : «وأما أهل الوبر فهم قطان الصحارى، وعمار الفلوات، وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، وكانوا زمان النجعة ووقت التبدى [2] يراعون جهات إيماض [3] البرق، ومنشأ السحاب، وجلجلة الرعد؛ فيؤمون منتجعين لمنابت الكلأ، مرتادين لمواقع القطر، ويخيمون [4] هناك ماساعدهم الخصب، وأمكنهم

---

(١) انتجع : طلب الكلأ فى موضعه – القاموس .

(٢) التبدى : الإقامة فى البادية . لسان العرب والقاموس .

(٣) إيماض البرق : لمعانه . القاموس .

(٤) يخيمون : يقيمون؛ خيموا بالمكان أقاموا به – القاموس .

الرعى، ثم يقومون لطلب العشب، وابتغاء المياه؛ فلا يزالون فى حل وترحال كما قال المثقب العبدى فى ناقته :

تقول إذا درأت لها وضينى [١] — أهذا دينه أبدا ودينى
أكل الدهر حل وارتحال — أما تبقى على، ولا تقينى [٢]

ولما كان اليمن أكثر بلاد العرب أمطاراً كثرت فيها الوديان [٣]، وقد أمكنهم فيما مضى أن يتحكموا فى مجارى هذه الوديان، بإقامة سدود عند ملتقى الأودية الكبيرة، وقد اشتهر منها سد مأرب [٤]، وهو سد محكم يحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به وقت الحاجة، ولكنه مع طول الزمن، وعدم العناية به تهدم؛ وكان لذلك أثره فى عمران اليمن، وعلى الرغم من تهدّمه لم تزل اليمن أخصب بلاد العرب، وأغناها، وأكثرها سكانا؛ ولذا عرفت فى العصور القديمة باسم: «بلاد العرب السعيدة» [٥] .

---

(١) وضينى: الوضين للهودج كالحزام للسرج، والجمع وضن، ودرأت الوضين إذا بسطته على الأرض، وأنخت عليه الناقة – لسان العرب .

(٢) راجع كتابه طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٦٦ .

(٣) ومن أعظم وديانها ميزاب اليمن الشرقى، ويصب فيه كثير من الوديان، وهو الذى يقضى إلى موضع سد مأرب، ويسقى أرض الجنتين .

(٤) وهو أقدم سد عرف فى التاريخ، ويقع إلى الجنوب والغرب من مدينة مأرب، وهو الذى أشار إليه القرآن الكريم بقوله ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ... فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾ [سبأ:١٥-١٦] . وخرائب مدينة مأرب أو سبأ تقع على بعد ثلاثين فرسخاً من صنعاء – حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ص٦٥ .

(٥) «وصف هيرودتس قبل المسيح بنحو أربعمائة سنة «بلاد العرب السعيدة» بأنها من أغنى بقاع العالم، وأنه كان فى مأرب أو سبأ قصور نضرة ذات أبواب عسجدية، وآنية من ذهب وفضة وسرر مرصعة بالجواهر» . المصدر السابق ص١٠٥ – وراجع حضارة العرب للأستاذ ى . هل . ص٣، ٤ .

حالة العرب الدينية

اختلفت أديان العرب فى جاهليتهم، وتعددت أربابهم، ولكن الديانة التى كانت سائدة بينهم فى ذلك الوقت هى الوثنية، وهى عبادة الأوثان والأصنام (١)، وكانت مكة معقل الوثنية، وقد وجد حول الكعبة يوم أن فتحها المسلمون ٣٦٠ صنما . وقد بلغ من هوسهم فى وثنيتهم أن كان لبنى حنيفة صنم من حيس (٢) يعبدونه، فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه، فقال فى ذلك بعض الشعراء :

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة (٣)

وكانت هناك طائفة منهم تعبد النار وهم المجوس، وقد انتقلت إليهم هذه الديانة من الفرس الذين كانوا يجاورونهم .

كما كانت فى اليمن طائفة منهم تعبد الشمس والكواكب وهم الصابئة، وقد ذكر القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام فى قوله حكاية عن الهدهد : ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل:٢٣-٢٤]

---

(١) قال ابن الأثير: الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تعمل وتنصب فتعبد، والصنم الصورة بلاجثة، ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين - لسان العرب، وراجعه فى مادتى صنم ووثن. وقال الكلبى فى كتاب الأصنام: «إذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو من فضة صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن» - ص٥٣ .

(٢) الحيس: الخلط ومنه سمى الحيس وهو تمر يخلط بسمن وإقط (محيض غنمى) لسان العرب، القاموس .

(٣) قال رجل من نبى تميم :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز

المعارف ص٢٦٦ ، طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٦٧ .

وإلى جانب هذه الديانات كانت اليهودية في يثرب (المدينة) والأماكن القريبة منها [(١)] في بعض بلاد اليمن، وكانت النصرانية في الحيرة وغسان ونجران وغيرها [(٢)] .

وهكذا كانت شبه جزيرة العرب تتنازعها الديانات المختلفة، ولكل دين أنصار يحملون لواءه، ويحمون ذماره، وإذا شعرت طائفة منهم بعجزها عن بلوغ أمنيتها استنجدت بأخرى لتعينها على من ناوأها، وتشد أزرها على من قوى عليها .

حالة العرب الاجتماعية [(٣)]

كان الرجل العربى يكرم زوجته ويجلها؛ انظر إليه حين يخاطبها بمثل قوله :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا

وكان الزواج عندهم على أنحاء؛ منها :

أن يخطب الرجل إلى الرجل وليته، أو ابنته فيصدقها[(٤)]، ثم ينكحها، وهذا هو الزواج الذى أقره الإسلام ليقوم عليه بيت صالح، وأسرة طيبة هى أساس المجتمع .

ومنها نكاح الاستبضاع، ونكاح الضماد، ونكاح الخدن، ونكاح البدل، وغير ذلك[(٥)] .

---

(١) مثل: خيبر، وفدك، ووادى القرى، وتيماء .

(٢) فصل صاعد الأندلسى فى طبقات الأمم ما كانت تعبده كل قبيلة من قبائل العرب ص٦٦، ٦٧ .

(٣) نعنى بالحالة الاجتماعية علاقة الرجل بزوجته وأولاده وبنى عمه دنيا، وعلاقة القبائل المختلفة بعضها ببعض .

(٤) أصدقها: سمى لها صداقها (مهرها) – القاموس .

(٥) نكاح الاستبضاع: أن يقول الرجل لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها، ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الولد .

ونكاح الضماد: أن يجتمع الرهط دون العشرة؛ فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت حملها ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم؛ فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها؛ فتقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت؛ فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطع أن يمتنع منه الرجل .

ونكاح الخِدن: هو أن يعاشر الرجل المرأة، ويتصل بها سراً، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴾ [النساء ٢٥] .

ونكاح البدل أن يقول الرجل للرجل انزل لى عن امرأتك، وانزل لك عن امرأتى وأزيدك .

وراجع البخارى وشروحه فى باب من قال: « لا نكاح إلا بولى »، ونيل الأوطار ج٦ ص١٥٨ ففيه تفصيل هذه الأنحاء .

ومنها ما تعقده أسنة الرماح؛ فكان الواحد منهم إذا قابل آخر معه ظعينة [١] غالبه عليها؛ فإذا غلبه أخذها منه سبية، واستحلها بذلك .

وجميع هذه الصور ما عدا الصورة الأولى لم تكن مستحبة من جمهورهم، وقد أبطلها الإسلام؛ وعبر عنها بوجه عام بلفظ السفاح .

وكانوا لا يتقيدون فى الزواج بعدد معين، وقد صح أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة؛ فقال له النبى ﷺ : «اختر منهن أربعا وفارق سائرهن» [٢].

وكانت المرأة تستأمر قبل زواجها؛ يدل لذلك ما رواه صاحب الأغانى [٣] من أن الحارث بن عوف المرى وفَد على أوس بن حارثة بن لأم الطائى يخطب إليه إحدى بناته، فدعا أوس كبراهن وقال لها : يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب، وقد جاءنى خاطبا، وقد أردت أن أزوجك منه فقالت: لا تفعل؛ لأنى امرأة فى وجهى ردة، وفى خلقى بعض العهدة، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى؛ فيكون على فى ذلك ما فيه؛ قال : قومى بارك الله فيك، ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جواب أختها وقالت: إنى خرقاء، ولا آمن أن يرى منى ما يكره؛ فيطلقنى؛ فيكون على فى ذلك ما تعلم، ثم دعا الصغرى وعرض عليها فقالت: أنت وذاك؛ فأخبرها بإباء أختيها؛ فقالت: لكنى والله الجميلة وجها، الصناع يدا، الرفيعة خلقا، الحسيبة نسبا؛ فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير .

وكانوا يطلقون، ولكن لا يتقيدون بعدد فى الطلاق؛ فقد روى الترمذى والحاكم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها، وهى امرأته إذا ارتجعها وهى فى العدة، وإن طلقها مائة طلقة وأكثر، فلما جاء الإسلام حدد عدد الطلقات، وحرم الرجعة بعد الطلقة الثالثة «فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره» .

---

(١) الظعينة: المرأة ما دامت فى الهودج ـ القاموس .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن ابن عمر .

(٣) جـ٩ ص٤٣ من طبعة الساسى فى خبر طويل لطيف .

وكانت علاقة الرجل بأولاده علاقة محبة وإشفاق؛ يقول قائلهم:

وإنمـا أولادنـا بـيـنـنـا أكـبـادنـا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض

غير أن فريقا منهم كانوا يفرحون إذا أنجبوا البنين، ويحزنون إذا رزقوا البنات، حتى إن منهم من كان يئد بناته أحياء خشية العار؛ وقد أشار القرآن إلى ذلك منددا فى أكثر من آية، قال عز وجل ﴿ **إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإملاق. وقد نهاهم القرآن عن ذلك بقوله: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٣١]

وكانت علاقة الواحد منهم بأبناء عمه دنيا علاقة حب ومودة؛ لأنه يرى فيهم قوة له، كما هو الشأن فى أولاده.

أما علاقة القبيلة بقبيلة أخرى فكانت علاقة عداوة وكراهة، وكان الانتقام والأخذ بالثأر شرعا لهم، وربما اهتاجت قبيلة من أخرى لتافه الأمر، وقد يضرم نار الحرب بينهم وشل [١].

علوم العرب ومعارفهم

للعلوم والمعارف أثر أى أثر فى رقى الأمم، وتقدمها فى كل مناحى الحياة المختلفة، وكان العلم والتعليم عند العرب شيئاً غير مألوف، ومن يعرف القراءة والكتابة منهم أقل من أن يذكر [٢]؛ فكانوا حقاً أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب حتى جاء الإسلام، وحث على العلم والتعلم فأخذوا منهما بحظ غير منزور.

---

(١) الوشل محركة الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره - القاموس.

(٢) لم يكن في قريش كلها حين جاء الإسلام إلا سبعة عشر رجلا يقرءون ويكتبون من بينهم عمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سفيان وأبناءه يزيد ومعاوية. وقد ذكرهم جميعاً البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان ص٤٧٧، وراجع قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع ص٢١.

وغاية ما كانوا عليه من معرفة هو ما دعت إليه الضرورة من مثل أمراض الإبل التى كانت عونا لهم فى حياتهم، ومن غزل الصوف والوبر الذى كانوا يصنعون منه ملابسهم وخيامهم، ومن معرفة بعض الأمراض التى كان يتعرض لها سكان الصحارى، وكان الكى بالنار هو الدواء الغالب عندهم.

وكان لهم «معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها؛ يعرفون العارض الممطر من العقيم على حسب ما أدركوه بفرط العناية، وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق، ولا على طريق التدرب فى العلوم» [١].

وكانوا يجيدون علم القيافة والفراسة والريافة، ولهم فى ذلك شأن واضح وأخبار فى غاية الغرابة [٢].

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا أن العلوم والمعارف لم يكن لها عند العرب فى جاهليتهم شأن يمتد به.

تجارة العرب

من المعلوم أن طبيعة بلاد العرب لا تكفى حاجة أهلها؛ وذلك يدعوهم لأن يتبادلوا التجارات مع غيرهم لاستكمال ما يحتاجون إليه. وكانت لهم أسواق نافقة يجتمعون فيها لشراء ما تمس إليه حاجتهم من لباس وغيره، وبيع ما يزيد عن حاصلاتهم.

على أن اليمن - لخصب أرضها، ووفرة معادنها، ولموقعها الجغرافى - كانت لها صلات تجارية واسعة مع الحبشة والهند، والفرس ومصر وشمال الجزيرة وغيرها من البلاد استمرت حقبة طويلة من الزمان [٣].

---

(١) راجع طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٧٠.

(٢) القيافة: القائف الذى يتتبع الآثار، ويعرفها، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه - لسان العرب.
والفراسة: الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وكلامه على أخلاقه وحالته.
والريافة: معرفة مواطن الماء من الأرض بالإمارات الدالة عليها؛ فيعرف قربه أو بعده برائحة بعض النباتات مثلا.

(٣) راجت تجارة اليمن فى العصور القديمة والوسطى؛ فكانت تتجر فى حاصلاتها الخاصة من صموغ وأعطار وجلود ومنسوجات، كما كانت تتجر فى حاصلات الشرق الأقصى التى كانت تجلب إليها بحراً، ثم تنتقل إلى ممالك البحر الأبيض المتوسط عن طريق الحجاز أو البحر الأحمر. وراجع حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص١٠٦.

وكان لقريش رحلتان تجاريتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وقد استفادت من وراء هاتين الرحلتين كثيرا من الفوائد المادية والثقافية .

وهذه التجارات كانت محصورة فى المدن غالبا وهى قليلة فى بلادهم . وإذا عرفنا أن مكة وهى من أكبر البلاد العربية في زمانها ما كان غيرها - التى تسببت فى غزوة بدر والتى «لم يبق بمكة قرشي، ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به» فيها - تزيد على خمسين ألف دينار (١) أمكننا أن نقول: إن تجارة العرب - فيما عدا اليمن - كانت محدودة فى كثير من أزمانها .

ولم يكن لهم نقود يتعاملون بها؛ وإنما كان تعاملهم إما بطريق مبادلة الأعيان بالأعيان، وإما بنقود الدولتين المجاورتين لهما، وهما: الفرس والروم، وكان الدينار من الروم، والدرهم من الفرس (٢) .

غير أن اليمن كانت لهم نقود خاصة بهم «وقد اشترى مسيو شلو ميرحر فى القسطنطينية حديثا مائتى قطعة من نقود ملوك اليمن التى اكتشفها عربى فى صنعاء، والتى ترجع فى قدمها إلى ما قبل ولادة المسيح» (٣) .

صناعة العرب

كان العرب أبعد الأمم عن الصناعة؛ وذلك لأن عامتهم بدو مستوفزون (٤) للظعن فى أكثر أوقاتهم، والصناعة تستلزم الإقامة فى المدن حيث يسهل وجود المواد الأولية اللازمة للصناعة، وتصريفها .

على أن أهل المدن منهم لا تستحكم فيهم ملكة كثير من الصناعات لإعواز (٥) المواد الأولية للصناعات المختلفة فى بلاد العرب؛ ومن ثم لم يكن من المألوف عندهم أن يكون الواحد منهم صانعا، اللهم إلا ما كان باليمن لاختصاص أرضها بالخصب،

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص٦٦، ١١٣ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧١، ٤٧٢ - الأحكام السلطانية للماوردى ص١٣٩ .

(٣) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص١٠٨ - حضارة العرب للأستاذ ى . هل ص٨ .

(٤) مستوفزون: متحفزون للسير والانتقال .

(٥) إعواز: أعوزنى هذا الأمر إذا اشتد عليك وعسر ... وأعوزه الشىء إذا احتاج إليه فلم يقدر عليه - لسان العرب .

ووجود المادة التى تقوم عليها الصناعة، واستحكام الملك فيهم مدة من الزمن، واعتيادهم التوسع فى معايشهم .

لهذا لم يكن غريبا أن يكون احتراف الصناعة عندهم أمرا غير معروف، ولا مرغوب فيه، ولقد عاب جرير على الفرزدق أكثر ما عاب أن كان أحد آبائه قينا يصقُل السيوف . ومن ذلك قوله [١] :

فأخزيت يا ابن القين آل مجاشع ... فأصبح ما تحمى مباحا مدعثرا

وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود، وحياكة الثياب، ويقول قائلهم : « هم بين دابغ جلد، وناسج برد » [٢] .

وحتى الصناعات الميسورة كصناعة البناء كانوا يرجعون فيها إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة قبيل الإسلام، وبناء الخورنق فى زمن النعمان [٣] .

وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل . ومنهن من كانت تترفع عن العمل بيدها اكتفاء بالمواهن [٤] ، ومن لا تعمل كانوا يدعونها خرقاء .

حال العرب السياسية

إذا نظرنا إلى جزيرة العرب نجد :

أن بلاد عُمان [٥] والبحرين فى الشرق مفصولة عن سائر الجزيرة بفاصلين : طبيعى وسياسى؛ فالمفاوز والبرارى الواسعة، والصحارى المقفرة حالت بينها وبين سائر البلاد، كما أن إذعانها لسيادة الفرس منعها من الاتصال بغيرها .

---

(١) وقوله :

وفاز الفرزدق بالكلبتين ... وعدل من الفحم الأسود

فرقع لجدك أكياره ... وأصلح متاعك لا يفسد

وأدن العلاة، وأدن القدوم ووسع لكيرك فى المقعد

والعلاة السندان آلة من آلات الحداد – القاموس .

(٢) كان القرظ كثيراً فى جهة صنعاء، فاستعملوه فى دبغ الجلود، ثم استعمالها فيما تصلح له من النعال وغيرها – محاضرات المرحوم الخضرى .

(٣) الخورنق : قصر النعمان الأكبر معرب خورنكاه أى موضع الأكل – القاموس .

(٤) المواهن : جمع ماهنة وهى الخادمة – لسان العرب .

(٥) عمان بضم أوله وتخفيف ثانية وآخره نون اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند – معجم البلدان لياقوت .

وبلاد اليمن وحضرموت كانت فى كثير من الأحيان ميدانا للحروب الداخلية والفتن الأهلية؛ فهوت من قمة مجدها، وذهب ريح الدولة التى بنت سد مأرب، وطمع فيها غيرها، فاستولت عليها الحبشة فى سنة ٥٢٥م وحكمتها حكما استبداديا؛ فاستنجدت بالفرس فأخرجوا الأجياش منها فى سنة ٥٩٧م (أى قبل ظهور الإسلام بقليل) واستولوا عليها، وظلوا فيها إلى أن جاء الإسلام .

وبلاد الحجاز ونجد كانت أحسن حالا من غيرها، وكانت مكة قصبة الحجاز، وقد نبه ذكرها لوجود الكعبة فيها، الأمر الذى جعل بعض القبائل ينفس عليها، ويقيم بيوتاً للعبادة ينافس بها الكعبة، ولكن ذلك لم ينقصها شيئا، فظلت هى الكعبة التى يجلها عامة العرب ويعظمها .

وكانت لقريش دار للشورى هى دار الندوة؛ يجتمع فيها كبراؤها للتشاور فى مهامهم، كما قسموا شارات الشرف فيما بينهم حتى لا يختلفوا على أنفسهم (١) .

وعرب الشمال كانت لهم مملكتان صغيرتان : مملكة الحيرة فى العراق، ويذعنون لسيادة الفرس، ومملكة غسان في الشام، ويذعنون لسيادة الروم، وكانت هاتان الدولتان فى خصام وحروب دائمة لا تكاد الحرب تضع أوزارها بينهما .

وكان النظام القبلى هو النظام السائد فى عامة الجزيرة؛ فلم يكن إذن فى بلاد العرب مملكة أو شبه مملكة لها من العز والسلطان ما يعلى كلمتها، ويفرض سلطانها على سائر البلاد (٢) .

النتيجة لحال العرب

بعد هذه الإلمامة القصيرة بحال العرب يمكننا أن نقول : إنهم كانوا بحال لا يغبطون عليها؛ فقد توزعتهم الأديان المختلفة، وعددوا الأرباب، وعقلوا عقولهم عن التفكير، واستحبوا العمى على الهدى .وحالتهم الاجتماعية لم تكن بأحسن من حالتهم الدينية؛ فإننا إذا نظرنا إلى ما وراء أبناء العم دنيا وجدنا قرابة مهتوكة الستر، ورحما مقطعة الأسباب، وقبائل متنافرة متدابرة يتربص بعضها لبعض الدوائر، وقد تحجرت قلوبهم، ونزعت الرحمة من نفوسهم .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ١ ص٨٧ – ٩٠ . الطبرى جـ٢ ص١٨٣ – ١٨٥ تاريخ ابن عساكر مخطوط بدار الكتب الأزهرية ص٧٠٤ من المجلد الثالث، العقد الفريد جـ٢ ص٣١ .

(٢) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

وقد بدت تفشو فى فريق منهم فاشية سوء من قتل الأولاد خشية الإملاق، ووأد البنات أنفة من العار .

ولم يكن من الصناعات شىء ذا غناء، وتجارتهم كانت محصورة فى المدن وهى قليلة [١] .

وليس لهم فيما وراء أبناء العم رابطة تؤلف بين قلوبهم، أو حكومة تجمعهم تحت راية واحدة؛ فكان منهم الخاضع للفرس كاليمن والمناذرة، ومنهم الخاضع للروم كالغساسنة، ومنهم من لم يكن خاضعاً لحكومة عامة وهم الأغلبية والسواد الأعظم، وهؤلاء كانوا يدينون لرؤساء قبائلهم، ويستنصرون بعصبياتهم .

وإذا شعرت قبيلة منهم بعجزها عن سفك الدماء، والانتقام تحالفت مع أخرى تشد أزرها، أو استنجدت بغيرها لتنيلها من عدوها نيلا .

ومن هذا يتبين سوء أحوالهم، ووقوعهم تحت الاستعمار الرومانى والفارسى والحبشى، وتأثرهم بالعصبية القبلية .

كانت هذه الحالة السيئة مدعاة لأن يتطلعوا إلى مخرج مما هم فيه؛ فلما جاء الإسلام تقبلوه، وعملوا على نشره على الرغم مما بدا منهم من معارضته، ومناوأته فى بادئ الأمر .

على أنه كانت لهم إلى جانب هذه الصفات المرذولة التى أشرنا إليها صفات طيبة حميدة، كالشجاعة والنجدة، وإقراء الضيف، واحتمال الشدائد، إلى جانب الفصاحة والأدب النافق .

وهذه الصفات، وتلك الأمور كانت بلا شك ذات أثر عظيم فى بث الدعوة الإسلامية والدفاع عنها، وبالتالى فى تقدم الحضارة الإسلامية ورقيها .

ومن ثم نستطيع أن نقول: إن بلاد العرب وحضارتها كانت عوناً ورفدا هاما للحضارة الإسلامية، كما سيتبين فيما بعد .

هذه إلمامة موجزة عن حالة العالم والعرب قبل الإسلام، تمهد لنا الكلام على أصول الحضارة الإسلامية .

*　*　*

---

(١) راجع حضارة العرب للأستاذ ى . هل ص١١، ١٢ .

الفصل الثالث

أصول الحضارة الإسلاميّة

- القرآن الكريم.
- السنة النبوية.
- الحضارة العربية.
- الحضارة الفارسية.
- الحضارة اليونانية والرومانية.

القرآن الكريم والسنة النبوية

القرآن الكريم كتاب الله الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] ، ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] .

كتاب أوامره هدى لمن استبصرها، وأمثاله عبرا لمن تدبرها، شرع الله فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص لذوى الأفهام، وقص فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، خاطب به أولياءه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموه (١) .

وفى الحق إن القرآن – كما قال منزله جل شأنه – لم يفرط فى شىء؛ فقد جاء للإنسانية بكل ما فيه خيرها وسعادتها، وكان ما شرعه لها محكما وعاما حتى يكون صالحا لكل زمان ومكان .

« ثم إنه جعل إلى رسوله بيان ما كان منه مجملا ، وتفسير ما كان منه مشكلا ، وتحقيق ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] فصار القرآن أصلا والسنة بيانا » (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] . وقال عز من قائل ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٥٢–٥٣] .

وعن عمران بن الحصين : « أنهم كانوا يتذاكرون الحديث فقال رجل : دعونا من هذا، وجيئونا بكتاب الله، فقال عمر : إنك أحمق أتجد فى كتاب الله الصلاة مفسرة،

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى ص١ .

(٢) مقدمة تفسير القرطبى ص ٢ .

أتجد فى كتاب الله الصيام مفسرا، إن القرآن أحكم ذلك والسنة تفسره » [1] .

فهو المفسر للكتاب وإنما نطق النبى لنا به من ربه [2]

وحتى يتبين لنا أن القرآن الكريم، والسنة النبوية هما الأصل الأصيل للحضارة الإسلامية نتكلم عنهما من النواحى الآتية :

(أ) الناحية الدينية . (ب) الناحية الاجتماعية والأخلاقية .

(جـ) الناحية الاقتصادية . (د) الناحية الأدبية والعلمية .

(هـ) الناحية السياسية .

(أ) الناحية الدينية .

١- شرع لهم الصلاة لتكون صلة بين العبد وربه، ولتنهاه عن الفحشاء والمنكر، قال جل شأنه :﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [3] [العنكبوت:٤٥] .

وجعل لهم فى يوم الجمعة من كل أسبوع صلاة جامعة، تكون سبيلا للتعارف والتراحم، والتواصل والتعاطف، يسعون إلى ذكر الله إذا سمعوا النداء لها، ويذرون البيع وما إليه من عرض الدنيا ليتفرغوا للعبادة، والتوجه إلى ربهم وقتا أطول مما هو فى الصلاة اليومية .

٢- شرع لهم الزكاة، وسيتبين من الكلام عليها بعد قليل، أنها إلى جانب ناحيتها الدينية لها الأثر البالغ فى النواحى الاجتماعية والإنسانية التى تمس حياتنا، وتتصل بها اتصالا وثيقا .

٣- شرع لهم الصوم لتقوى به الروح على كبح جماح النفس، ولتنكسر حدة الشهوات والنزعات التى تعوق سموها، وليحس الصائم بألم الجوع والحرمان؛ فيعطف على الفقير والمحروم .

---

(١) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة للسيوطى ص٤٢ .

(٢) الضمير فى قوله : (فهو المفسر) للحديث النبوى الشريف .

(٣) قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » . راجع تفسير الآلوسى فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [العنكبوت:٤٥]

٤- شرع لهم الحج ليكون موفدا عاما يشهدون فيه منافع لهم، ويتواصون بالحق وبالصبر، ويتشاورون فى أمورهم وما يهمهم، ويتعاونون على الخير (١) .

وهو مظهر الإخاء والمساواة الحقة بين جميع المسلمين، لا فرق بين الغنى والفقير، فالكل يلبس لباسا موحدا متماثلا، والكل يهتف بهتاف واحد، ويدعو ربا واحداً .

٥- وأخيراً حثهم على التوبة، وأشعرهم بقبولها إذا ما أنابوا إلى ربهم، وعملوا صالحا، فقال لهم: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وقال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]؛ وبذلك يظل المسلم قريبا من ربه، وثيق الصلة به؛ وهذا مما يحمله على تقويم سلوكه، وتهذيب أخلاقه . إلى غير ذلك من التشريعات الدينية التى تهذب النفوس، وتسمو بالأخلاق .

ومن ذلك نرى أن الله سبحانه أمر بأن يجتمع المسلمون فى مساجدهم كل يوم خمس مرات، ثم يجتمعون اجتماعا أكبر فى المسجد الجامع كل أسبوع مرة، ثم يجتمع من يستطع الحج منهم كل سنة مرة، هذا إلى تعويدهم الصبر وقوة العزيمة، واحتمال الشدائد بالصوم، والسخاء والبذل والعطف على الفقير بالزكاة .

ومن ثم يوجد المجتمع الصالح، ويسعد الناس جميعا، وينعمون بالمحبة والإخاء .

(ب) الناحية الاجتماعية والأخلاقية .

جاء فى القرآن الكريم الكثير من الشرائع الاجتماعية والأخلاقية، نذكر منها ما يأتى :

(١) ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض .

(٢) ما يتعلق بالحدود والقصاص .

(٣) ما يتعلق بالآداب الاجتماعية .

---

(١) نرى الآثار الطيبة التى تعقب اجتماع زعماء المسلمين ورؤسائهم واضحة لا تحتاج إلى بيان مما يبين جانباً من حكمة مشروعية الحج وآثاره الاجتماعية والإنسانية .

• المعاملات :

جمع الله أساس المعاملات فى مواضع من الكتاب الكريم، ومنها أنه :

١- أمر أمراً عاما بالوفاء بالعقود فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١]، والعقود كلمة تشمل جميع الالتزامات التى يلتزمها الإنسان للإنسان، من بيع وشراء، ورهن وإجارة، وغير ذلك من ضروب المعاملات .

٢- نهى عن أكل أموال الناس بالباطل فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] .

٣- نهى عن أكل الربا نهياً مشدداً فى أكثر من آية، ومثل آكليه أشنع تمثيل، وآذنهم بحرب من الله ورسوله إن لم يقلعوا عن أكله؛ لئلا تضيع المروءة من الناس، وتدب الكراهة فى نفوسهم، فضلا عما فيه من مفاسد أخرى كثيرة [١]، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥]، وقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

٤- حث على إنظار المدين إن كان معسرا، بل والحط عنه فقال : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] .

٥ - عظم أمر الكيل والوزن، ونهى عن التطفيف فيهما فى كثير من الآيات لابتناء عامة المعاملات بين الناس عليهما فقال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨١] ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء : ٣٥]، وقال : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين : ١-٥]

٦ - بين كيفية التعامل فى أطول آية من القرآن، وهى آية الدين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴾ الآية [البقرة : ٢٨٢] . أمر

---

(١) سنعرض لبعضها فيما بعد .

فيها أمرًا مؤكدًا بكتابة الدين والشهادة عليه، وجعل للدين أجلا ينتهى إليه، وجعل الرهن وثيقة بما فى الذمة إن لم يجدوا كاتبًا، ثم أوجب أن يؤدى الأمين ما أؤتمن عليه إلى من ائتمنه.

٧ - أوجب على المؤمنين أن يؤدوا الشهادة ويقيموها فى أكثر من آية فقال: **﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾**[البقرة:٢٨٣]، وقال: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾** [النساء:١٣٥]؛ وذلك لأن الشهادة تكفل أداء الحقوق إلى مستحقيها، وقد تكون هى السبيل الوحيد إلى إقرار العدل فى نصابه.

٨ - أمر بالعدل وحث عليه، وأكده تأكيدًا فى غير ما آية فقال: **﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾**[النساء:٥٨]، وقال: **﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾**[المائدة:٨]، وقال: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾** [النحل:٩٠].

● **الحدود والقصاص:**

١ - حرم القرآن القتل وسفك الدماء، وبين أن من قتل مظلوما فقد جعل لوليه سلطانًا فى الاقتصاص، ونهاه عن أن يسرف فى القتل فقال: **﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾** [الإسراء:٣٣].

٢ - وبين أنه شرع لنا القصاص فى القتلى فقال: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾** [البقرة:١٧٨]، وحث عليه وبين فائدته للمجتمع فقال: **﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾**[البقرة:١٧٩]، وندب إلى العفو بأسلوب يدعو إلى العفو فقال: **﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾**

[البقرة:١٧٨]

أما الحدود فقد ذكر منها أربعة:

١ - **الأول حد الزنا**: وقد جعله الكتاب مائة جلدة؛ فقال: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النور:٢].

٢ - **الثاني حد القذف**: وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة؛ فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور:١٤].

٣ - **الثالث حد السرقة**: وقد جعله الكتاب قطع اليد؛ فقال: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [المائدة:٣٨].

٤ - **الرابع حد قطاع الطريق**: وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا، وقد بينه بقوله: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [المائدة:٣٣]؛ فجعل للإمام أن يقتلهم، أو يصلبهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفيهم من الأرض.

وبالتأمل يظهر أن الكتاب قد شرع هذه العقوبات للحاجة إليها فى تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولجعل الطريق حرة آمنة للسابلة [١].

وجعل هذه العقوبات تسقط إذا تاب مرتكبها قبل القدرة عليه، قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[المائدة:٣٤] [٢].

---

(١) محال على مثل محمد ﷺ ومن كان على مثل تربيته ونشأته وبعده عن الدرس والتعليم أن يأتى بهذه الأصول التشريعية العظيمة، التى هى غاية ما تسموا إليه عقول الفلاسفة والعلماء بعد فناء الأجيال، وتعاقب الدهور فى البحث والدرس إلا أن ذلك فيض إلهى ووحى سماوى، والله يختص برحمته من يشاء - راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار.

(٢) راجع حاشية ابن عابدين فى فقه الأحناف جـ٣ ص ١٩ .

● **الآداب الاجتماعية والأخلاقية :**

ذكر القرآن الكريم الكثير من الآداب الاجتماعية والأخلاقية التى تدل بوضوح على سمو الدين الإسلامى، وأنه دين اجتماعى يهدف إلى سعادة المجتمع فى دنياه، كما يهدف إلى سعادته فى آخرته، ومن هذه الآداب :

١ - آداب الاستئذان بين أهل البيت الواحد، وقد بينها بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [النور : ٥٨] .

٢ - آداب الاستئذان عند تزاور الناس بعضهم مع بعض، وقد بينها بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا** (١) **وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** ﴾ [النور : ٢٧]

٣ - أنه نهى النساء أن يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة، وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن (٢)، وأباح لهن إبداء الزينة بمحضر أقارب ذكرهم بقوله ﴿ **وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ . . .** ﴾ الآية [النور : ٣٤] .

---

(١) تستأنسوا من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف من آنس الشىء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا.

(٢) الجيب : فتح فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد، والمراد به هنا محله وهو العنق.

٤ – أنه أمر برد التحية بأحسن منها أو بمثلها فقال: ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾[النساء: ٨٦].

٥ – أنه أمر بالصبر وحث عليه كثيرا، وقد ذكره أكثر من سبعين مرة، وجعله ركنا من أركان الفوز فقال: ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[العصر: ١-٣]، وقال: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة: ١٥٣] إلى غير ذلك من الآيات.

٦ – أنه حض على العفو والصفح في غير ما آية، فمن ذلك قوله: ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٧ – أنه حث على الصدق، ووعد بالأجر عليه، ونهى عن الكذب وعظم إثم فاعله في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة: ١١٩].

٨ – أنه نهى عن التجسس والغيبة، ومثل المغتاب أقبح مثل، فقال: ﴿ **ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** ﴾ [الحجرات: ١٢].

٩ – أنه أمر بالاتحاد ونهى عن التفرق في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله: ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

١٠ – أنه حض على الصلح سواء أكان بين الزوجين أو غيرهما، فقال: ﴿ **فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير** ﴾[النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ الآية [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾[الأنفال: ١].

١١ - أنه نهى عن أن يسخر قوم من قوم، وعن اللمز والتنابذ بالألقاب وسمى ذلك فسوقا فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا[١] أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

١٢ - أنه حث على إكرام الجار فقال: ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ [النساء: ٣٦] إلى غير ذلك من الآداب الاجتماعية السامية التى لا يمكن أن توجد إلا فى مثل المجتمع الإسلامى الفاضل.

● **الناحية الاقتصادية [٢]:**

القصد خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير ... وفى الحديث «ما عال مقتصد ولا يعيل» أى ما افتقر من لا يسرف فى الإنفاق ولا يقتر [٣] وعلم الاقتصاد علم يبحث فى السلوك الظاهرى للفرد حال سعيه لتدبير معاشه.

● **هدفه:**

يقول علماء الاقتصاد: إن هدف الاقتصاد هو تحقيق الرفاهية للناس جميعا، وإن الفكر الاقتصادى بصفة عامة هو جملة الآراء والمفاهيم المعنوية التى تؤثر فى سلوك الإنسان تجاه الثروة وإنتاجها وتوزيعها.

وإن النظرية الاقتصادية مفهوم متكامل يقوم على دعامتين هما: الإنتاج والتوزيع، ولكل منهما نظرية تكمل الأخرى.

كما يرون للنفوذ نظرية ثالثة تتفرع على القيمة، ولئن كانت نظرية النقود تمد الباحث فى الدراسات الاقتصادية بمادة جديرة بالنظر العلمى إلا أنها غير منفصلة عن جوهر الاقتصاد وهو: إنتاج وتوزيع، ولذلك يمكن القول بوجود نظريات ثلاث

---

(١) اللمز: العيب وأصله الإشارة بالعين ونحوها.

(٢) راجع محاضرة الأستاذ عيسى عبده إبراهيم (القرآن والدراسات الاقتصادية) التى ألقاها فى قاعة الشيخ محمد عبده، وكتاب علم الاقتصاد للمصريين للأستاذ محمد فهمى لهيطة، وغيرهما من الأبحاث والكتب التى أبانت وجهة نظر الإسلام فى الاقتصاد.

(٣) لسان العرب.

متكاملة: إحداها للإنتاج، والثانية للتوزيع، والثالثة للنقود، ومنها مجتمعة تتألف النظرية الاقتصادية.

والسؤال الذى نواجهه بعد هذا التمهيد هو:

هل جاء القرآن الكريم، وجاءت السنة النبوية، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده بعناصر متكاملة تمد الفكر العلمى بنظرية علمية يقوم عليها النشاط الاقتصادى فى كل من الإنتاج والتوزيع، وفى ظل ما يعرف بالاقتصاد النقدى؟ والجواب: نعم.

وسنكتفى بإلمامة خفيفة فى هذا الشأن تبين عن غرضنا؛ إذ ليس من همنا البحث الموضوعى فى الاقتصاد فضلا عن أن له رجاله الذين خصصوا أنفسهم له.

إن القرآن الكريم قد أرسى القواعد الكلية لتنظيم الاقتصاد، وجاء بعناصر متكاملة تمد الفكر العلمى بحاجته منه، وتشتمل على الأسس التى تكفل للجنس البشرى أوضاعا اقتصادية تحقق له مستويات عليا من الرفاهية قبل أن يقوم علم الاقتصاد، ويصل إلى ما وصل إليه من التقدم، ومما جاء فى القرآن:

١ - مبدأ العمل:

العمل هو السبيل الطبيعى لكسب المعاش، وهو الدعامة التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى؛ فهذا رجل من أفراد المجتمع يزرع، وذاك يصنع، وآخر يتجر، وغيره يعالج المرضى، أو يسهر على حفظ الأمن. أو يدافع عن الوطن إلى غير ذلك من الأعمال التى يقتضيها نظام الجماعة البشرية، ومن أجل ذلك حث الإسلام على العمل، وحض على الكسب من طرقة المشروعة؛ فقال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال عز وجل: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥]،

وقال ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» (١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتى رجلا فيسأله أعطاه أو منعه» (٢).

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة».

إلى كثير من الآيات والأحاديث والآثار التى تدل على عناية الإسلام بالعمل، وتبين مدى أهميته للفرد والجماعة.

٢ - الزكاة:

الزكاة من أهم الأسس التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى، وينتظم بها اقتصاده؛ فهى من العوامل التى تقلل الفوارق بين الناس فى خطوط الدنيا، وتطهر نفوس الأغنياء من الشح والبخل، وفيها تتجلى مواساة الأغنياء لإخوانهم الفقراء، وسد خلتهم، كما أنها تدفع عن الأغنياء عواقب الحقد عليهم من نفوس الفقراء؛ فتسود المحبة، وتقوى أواصر الألفة والتعاطف والتراحم بينهما، ومن ثم جعلها الإسلام أحد الأركان التى يقوم عليها بنيانه، وحث عليها القرآن فى كثير من آياته، ورغب فيها، وقرنها بالصلاة؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، وفيها إصلاح للنفوس، والزكاة صلة بين الأغنياء والفقراء، وفيها إصلاح لشئون المجتمع. قال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا** ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال عز من قائل: ﴿ **وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ**

(١) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع. والحكمة فى تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره فى أكله على ما يعمل بيده لم يكن من الحاجة؛ فقد كان خليفة الله فى الأرض «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض» وإنما اختار الأكل من الطريق الأفضل، وفى ذلك الدليل على أن خير الكسب عمل اليد.

(٢) أخرجه البخارى فى باب وجوب الزكاة. وفى باب بيع الحطب والكلأ.

النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾(١) [الروم:٣٩] ،وقال عز وجل: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات:١٩]، وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان». إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تكشف عن كثير من نواحى الاقتصاد التى يسعد بها المجتمع.

وإذا استمع الأغنياء إلى مثل هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، أدى ذلك إلى صيانة المجتمع من كثير من الآلام والشرور التى يقاسيها، وإلى البعد عن الشيوعية، وعن الفتن والثورات التى تنشأ من احتكار الأغنياء للثروة، وحرمان الفقراء منها.

وإن الناظر إلى الزكاة وأثرها فى المجتمع يدرك الحكمة فى فرضيتها، وجعلها ركنا من أركان الدين، وفى المرتبة الثالثة بعد التوحيد والصلاة.

وإذا اطمأنت نفس المسلم إلى هذا الحق، وأنه واجب عليه لأخيه المسلم، دعاه ذلك لأن يعرف أن عليه أنواعًا أخرى من التعاون ليست دون المال.

٣ - تحريم الربا:

الربا فيه من المفاسد والأضرار بالمجتمع الإنسانى من نواحيه الاقتصادية والاجتماعية ما لسنا فى حاجة هنا إلى الإسهاب فيها؛ فهو يتنافى مع الأخلاق الكريمة التى يجب أن تسود كل مجتمع فاضل؛ من المروءة والتعاون والتعاطف والتراحم، ويورث أفراد المجتمع الحقد والبغضاء، ويؤدي إلى حصول أصحاب الأموال على كسب دون عمل؛ فإنهم يستغلون حاجة المحتاج، وينصرفون عن الأعمال المشروعة للكسب الحلال، ويخلدون إلى الراحة والكسل، ويؤثرون التعامل بالربا مع الراحة الجسمية عن الاشتغال بالزراعة، أو الصناعة، أو التجارة أو غيرها، مما يحتاج إلى تعب وعناء؛ فتتعطل أيد كثيرة من الأيدى التى يجب أن تعمل، كما أنه يوجد هوة عميقة بين

---

(١) المضعفون: ذوو الأضعاف من الحسنات، من أضعف أى صار ذا ضعف.

طبقات الأمة بتحويل مجرى الثروة إلى جهة واحدة هى جهة أصحاب الأموال ومحاباة رأس المال، والانحياز معه على حساب العاملين الكادحين، وفى هذا يقول القرآن الكريم. ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧]، وفى ذلك كما رأينا ما فيه من مفاسد اجتماعية واقتصادية، واختلال فى توازن المجتمع؛ فتحريمه والنهى عنه تشريع حكيم له أثره البالغ فى اقتصاد الأمة ومعاشها، ويقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، ويقول سبحانه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، ويقول عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٩]، وعن جابر رضى الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء[1]».

وإن المجتمع الذى يدين بالإسلام؛ فيتذكر دائما قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢] إلى أمثال هذه الآيات[2] التى تحث على الإنفاق وعلى فعل الخير لوجه الله تعالى لهو المجتمع الفاضل الذى تنشده الإنسانية، والذى أرسى قواعده محمد صلوات الله عليه.

٤- الميراث:

شرع الإسلام للميراث نظاما حكيما يقضى بتقسيم تركة المتوفى بين عدد من أفراد أسرته، ليحول بذلك دون تضخم الثروات، وتجمعها فى أيد قليلة؛ فأين من هذا النظام الإسلامى الحكيم تلك النظم التى يقضى بعضها بانتقال جميع ثروة المتوفى إلى ابنه الأكبر، أو يدع بعضها المالك حرا فى أن يوصى بتركته لمن يشاء؛ فتجتمع من جراء

---

(١) اتجهت حكومتنا الرشيدة إلى العمل على إزالة الآثار السيئة للمعاملات الربوية من مجتمعنا العربى الإسلامى.

(٢) حث القرآن على الإنفاق فى أكثر من سبعين آية؛ لما لذلك من أثر بالغ للمجتمع.

ذلك ثروات ضخمة فى أيدى نفر قليل من الناس، مما يثير حفيظة الفقراء فى المجتمعات التى تخضع لهذه النظم، ويسبب انتشار المذاهب المتطرفة .

٥- قانون من أين لك هذا :

هو قانون اقتصادى عظيم، ومبدأ خلقى جليل، وأصل إسلامى صميم طبقه النبى ﷺ على بعض عماله على الصدقات حين رأى أنه استغل عمله لجمع مال لنفسه؛ فأخذه منه؛ فعن أبى حُميد الساعدى رضى الله عنه قال: «استعمل رسول الله ﷺ ابن اللتبية على صدقات بنى سليم، فلما جاء إلى النبى ﷺ وحاسبه، قال: هذا الذى لكم، وهذه هدية أهديت لى فقال رسول الله ﷺ : فهلا جلست فى بيت أبيك، وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا، ثم خطبنا؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإنى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله، فيأتى أحدكم فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت لى؛ فهلا جلس فى بيت أبيه، وبيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا، فوالله لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه إلا جاء الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، ثم رفع يديه إلى السماء حتى رؤى بياض إبطيه وهو يقول: ألا هل بلغت» (١) .

وقد مضى على تطبيقه فى حزم وصرامة عمر بن الخطاب، فكان يراقب عماله وولاته؛ فلا يخفى عليه شىء من أمورهم، حتى لا ينحرفوا فيستغلوا مناصبهم فى الاستكثار من الثروات الشخصية، وله فى ذلك التصرفات الحازمة الحكيمة التى ازدانت بها سيرته (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى مواضع منها باب الزكاة، وباب ترك الحيل، ورواه مسلم فى المغازى، وأبو داود فى الخراج .

(٢) كان رضى الله عنه، إذا رأى أن عاملا من عماله تضخمت ثروته، وزادت زيادة غير عادية شاطره إياها؛ وقد شاطر خالدا وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وغيرهم - راجع العقد الفريد جـ١ ص٥٢-٥٧ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٦- الأرض التى فتحت عنوة :

كان لعمر رضى الله عنه رأى سديد فى شأن الأراضى التى فتحت على المسلمين، وكان لرأيه هذا أثر عظيم فى اقتصاد الدولة الإسلامية، من حيث الإنتاج والتوزيع - وهما جوهر الاقتصاد كما هو معروف - ذلك أنه حينما فتح الله على المسلمين العراق والشام، وغيرهما من الأقاليم الواسعة، رأى عمر رضوان الله عليه ألا تقسم هذه الأراضى المفتوحة بين الغانمين، ولكن تترك لأهلها مع وضع الخراج عليها لينفق منه على مصالح المسلمين على الدوام، ووافقه على رأيه هذا بعض الصحابة، وعلى رأسهم عثمان، وطلحة، وابن عمر رضى الله عنهم، وعارضة بعضهم، وكان أشدهم عليه فى ذلك، الزبير بن العوام، وبلال بن رباح، وسلمان الفارسى؛ فاستشار المهاجرين الأولين، فاختلفوا فيما بينهم، فعمد إلى تحكيم عشرة من الأنصار: خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج، رغبة منه فى أن يشركوه فى الأمانة التى حملها، فأعطى المحكمون الرأى لعمر، بعد أن استمعوا إلى رأى كل فريق من الطرفين، وكان ذلك إلهاما من الله، وتوفيقا لعمر، وفيه كانت الخيرة والمصلحة الراجحة للمسلمين، وعموم النفع لجماعتهم [1] .

---

(١) كان المخالفون لعمر يستندون إلى آية الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١]، وإلى فعل رسول الله ﷺ حين قسم خيبر (أرض اليهود) بين الفاتحين. أما عمر ومن وافقه فكانوا يستندون إلى آيات سورة الحشر التى نزلت بعد سورة الأنفال فى غزوة بنى النضير بعد بدر وهى قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .... وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآيات وقد تلا عمر رضى الله عنه على من عارضه هذه الآيات وقال: لقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفىء، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء، ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه فى وجهه، ويستندون كذلك إلى أن هذه الأراضى التى فتحت أجل وأكثر بكثير من أن تقسم بين الفاتحين وحدهم، وهى كل ما كان المسلمون يرجون فتحه فى تلكم الأيام، كما نظر إلى المستقبل البعيد، وفى هذا يقول: «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر»، راجع البخارى باب المزارعة، وراجع سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص٨٠، الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص٣٧، وراجع كتاب الخراج لأبى يوسف ص١٣-١٥، ٨٢ ط الأميرية، وتفسير القرطبى والآلوسى وغيرهما في تفسير هذه الآيات .

٧- النقود :

كذلك لم يفت الإسلام أن يعنى بأمر النقود، لأثرها الهام فى معاملات الناس بعضهم مع بعض؛ فنرى أنه قد عنى بضبطها وتحديد قيمتها حتى لا يكون هناك سبيل إلى التلاعب بها، والفوضى فى تداولها؛ روى البلاذرى: أن دراهم الأعاجم كانت ما العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وما العشرة منها وزن ستة مثاقيل، وما العشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فجمع ذلك فوجد إحدى وعشرين مثقالا؛ فأخذ ثلثه وهو سبعة مثاقيل فضربوا دراهم وزن سبعة مثاقيل [١] .

هذا إلى أن موارد بيت المال ومصارفه كانت عادلة[٢]، وثابتة محددة لا إبهام فيها ولا غموض، كما سيتبين فيما بعد عند الكلام على النظام المالى .

أضف إلى ذلك أن الإسلام أتى بمبادئ اقتصادية عامة لها أثرها فى الاقتصاد كقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء:٢٩] ، وقوله : ﴿ **وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأنعام:١٤١] وفى الحديث: «القصد القصد تبلغوا» أى عليكم بالقصد من الأمور، إلى أمثال ذلك من الآثار التى تحث على التوسط والاعتدال، كما هو شأن الإسلام فى تشريعاته.

هذا وقد ذكرنا عند الكلام على الناحية الدينية وعلى المعاملات بعض الآيات القرآنية التى تتصل بالناحية الاقتصادية اتصالا وثيقا كآيات الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وآية المداينة .

---

(١) اخترنا هذه الرواية لإيجازها وسهولتها . وهناك روايات أخرى ذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان ص٤٧١ ، والماوردى فى الأحكام السلطانية ص١٣٨ ، وابن خلدون فى مقدمته جـ٢ ص٦٤١ ، وأوفى الموضوع المقريزى فى رسالته فى النقود، كما تعرض لها بإسهاب صاحب الخطط التوفيقية .

(٢) كان ميمون بن مهران يحدث «أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يجبى العراق كل سنة مائة ألف ألف أوقية، ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه طيب، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد» - الخراج لأبى يوسف ص٦٥ ، وهذا وعمرك هو عدل الإسلام .

نستطيع أن نقول بعد هذا: إن الإسلام حقق هدف الاقتصاد من العمل على رفاهية بنى الإنسان جميعاً، وحقق نظريته التى تتألف من الإنتاج والتوزيع والنقود على نحو عادل لا اضطراب فيه، ولا غبن على أحد .

وعلم الاقتصاد - كما يقول أهله - قد تقدم كثيراً فى وضع نظرية الإنتاج، ولكنه اضطرب، واشتد اضطرابه فى وضع نظرية عادلة للتوزيع .

أما الإسلام فإنه - كما يقول المنصفون من علماء الاقتصاد - قد وضع أسساً وتشريعات ثابتة حكيمة عادلة كل العدل فى التوزيع؛ وبذلك يكون قد انفرد بنظرية فريدة من نوعها فى عنصر هام من عناصر الاقتصاد .

* * *

الناحية الأدبية والعلمية

كان العرب أفصح الناس لساناً وأبينهم بياناً، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، وأن البلاغة ملك قيادهم، فلما جاء القرآن وهو كتاب أحكمت آياته، وفصلت كلماته، بهرهم واستثار إعجابهم .

يقول القاضي عياض [1] :

« إنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم بما لا يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ... فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول ....

وأنت إذا تأملت قوله تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ [البقرة:١٧٩] ، وقوله : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ** ﴾ [سبأ:٥١] ، وقوله : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت:٥٤] ... إلى أشباهها من الآى، بل أكثر القرآن، حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمة » .

سمع العرب القرآن وحفظوه، وأدركوا أهدافه ومراميه، فاندفعوا إلى الاستفادة من أسلوبه، وشاعت ألفاظه وطرائقه فى قبائلهم ومنتدياتهم، وظهر أثره فى خطبهم ورسائلهم، وانصرفوا عن الافتخار بالأنساب، والتنابذ بالألقاب، والغزل فى النساء، ووصف الجمل والصحراء، وما إلى ذلك من ميادين كلامهم، إلى التحريض على الحرب والجهاد، ونشر الدعوة، وهداية الناس إلى الإسلام .

---

(١) الشفاء جـ١ ص ٢١٧ - ٢٢٢ .

وعرفوا كيف يكتبون العهود والمواثيق مع غيرهم، وأن يتخيروا لها من العبارات ما يحقق غايتهم؛ عرفوا مواقع الكلام، وأن لكل مقام مقالا؛ فكانت كلماتهم تفعل فى النفوس مالا تفعله السيوف .

انظر إلى خالد بن الوليد حينما ذهب إلى اليرموك، ووجد المسلمين يقاتلون الروم على تساند فلم يرق ذلك له، ورأى أن قتال المسلمين على هذا النحو متساندين أجدى على الروم من إمدادهم، وأشد على المسلمين من عدوهم؛ فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر، ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة على تساند وانتشار، فإن هذ لا يحل ولا ينبغى .....[1]» .

وكانت النتيجة أن وحد المسلمون قيادتهم، وأخلصوا لله فى جهادهم؛ فكان النصر حليفهم، ولم تقم لعدوهم بعد ذلك قائمة .

وأما الناحية العلمية، فقد أطلق الإسلام عقولهم[2] من عقالها، وحثهم على أن يتفكروا، وينظروا فى ملكوت السموات والأرض فقال: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف:١٨٥] ، وقال : ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾ [ق:٦] .

ونوه القرآن بشأن العلم والعلماء فقال: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر:٩] ، وقال: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة:١١] ، وقال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه:١١٤] .

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع»[3] .

---

(١) راجع كتاب سيف الله خالد بن الوليد للمؤلف .

(٢) ذكر العقل ومشتقاته فى القرآن أكثر من أربعين مرة .

(٣) رواه الترمذى فى طلب العلم وقال: حديث حسن، ورواه أيضاً مسلم وأبو داود .

وأمر النبى ﷺ بتعلم اللغة الأجنبية؛ فكلف زيد بن ثابت كاتب الوحى فى السنة الرابعة من الهجرة بتعلم العبرية لغة اليهود، وقال له: «تعلم كتاب اليهود؛ فإنى والله ما آمن اليهود على كتابى»، وفى رواية أخرى: «إنه يأتينى كتب من ناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية؟ فقال: نعم» (١) .

كذلك عنوا بالفنون المختلفة، ومهروا فى كثير منها كما سيتبين ذلك واضحاً فيما بعد .

ولم يمض قرنان من الزمان حتى كان العرب أساتذة العالم فى الثقافة والعرفان، والعلوم والفنون .

* * *

(١) راجع البخارى فى باب الأحكام، وأبو داود فى العلم، والترمذى فى الاستئذان وإمتاع الأسماع ص١٨٧ - ١٩٤، طبقات ابن سعد طبعة ليدن جـ٢ ص١١٥، تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢٠، تاريخ الطبرى جـ٣ ص٤٢، وتاريخ ابن عساكر، والاستيعاب، وأسد الغابة فى ترجمة زيد بن ثابت، فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٨٠، إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص١٨٧، ١٩٤ .

الناحية السياسية

ساس النبى صلوات الله عليه أمته سياسة حكيمة رشيدة : صبر على أذاهم واحتمل جفوتهم، وصفح عن هفوتهم، وقبل معذرتهم، ووصل من قطعه وأعطى من منعه، وكان لا يواجه أحداً بسوء، يزور الضعفاء، ويعود المرضى فانقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وتركوا فى سبيله أوطانهم وأموالهم، وآثروه على أنفسهم وأولادهم، حتى كان الواحد منهم لا يرى بأساً أن يقاتل دونه أباه أو أخاه .

كان ذا نظر ثاقب، ورأى صائب؛ ألم تر إلى ما كان منه حينما استقر به المقام فى المدينة؛ فقد آخى بين المهاجرين والأنصار إخاء كان له أطيب الثمرات، حتى إنهم كانوا يتوارثون به إرثا مقدماً على إرث القرابة (١) .

ثم انظر إلى سياسته الحكيمة التى تجلت فى العهد الذى عقده بين المسلمين واليهود، والذى وادعهم فيه، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وأن بينهم وبين المسلمين النصر على من دهم يثرب (المدينة)؛ « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فمرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ » (٢) .

ثم فكّر فى صائب رأيه حينما عقد صلح الحديبية؛ فقد قبل من شروط قريش ما ظنه عمر وبعض الصحابة إجحافا بالمسلمين، ولكن لم يمض طويل وقت حتى كان هو الفتح المبين .

---

(١) نسخ التوارث بالمؤاخاة بعد غزوة بدر - إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص ٤٩٩، ٥٥٠، وكان هذا الإخاء فى بيت أنس بن مالك رضى الله عنه، روى البخارى بسنده عن عاصم قال: قلت لأنس رضى الله عنه أبلغك أن النبى ﷺ قال : « لا حلف فى الإسلام؟ فقال: قد حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى » . وبسنده عن أنس رضى الله عنه قال: « قدم علينا عبد الرحمن بن عوف فآخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع » . راجع البخارى فى باب الكفالة، وفى مناقب الأنصار، ومسلم فى الفضائل وأبو داود فى الفضائل أيضاً .

(٢) نص هذا العهد موجود فى سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٦، ١٧، وأغلب الظن أنه لم يذكر فى غيرها، وهو أول معاهدة للتعاون، وعدم الاعتداء بين المسلمين واليهود .

ثم لا تأخذك الدهشة من صفحه وعفوه حينما تمكن من قريش يوم الفتح، وتوقع الكثير من الناس أن ينزل بهم من العقاب جزاء ما فعلوه معه، ومع أصحابه، ولكنه عفا، وصفح وقال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

وهذا وربك هو العفو عند المقدرة، ولو شاء محمد صلوات الله عليه أن ينتقم لنفسه وأصحابه لفعل، ولكن كيف وقد قال فيه ربه ومولاه : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم:٤] .

كان صلوات الله عليه إذا عاهد عهداً التزمه، ووفى به، ممتثلا فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء:٣٤] .

آتت هذه السياسة الرشيدة، والتشريع الحكيم، والأخلاق السامية الكريمة ثمرتها، وعرف محمداً صلوات الله عليه من لم يكن قد عرفه من قبل، واستجاب له من كان متأبيا عليه، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .ومن هذا يتضح أن المجتمع العربي الإسلامى صار يتميز بسمات شريفة، وصفات حميدة، ومظاهر كريمة أوجدها الإسلام؛ منها :

١- الإيمان برب واحد، بعد أن كانوا يعبدون أربابا متعددة .

٢- القضاء على المنازعات والمشاحنات التى كانت بينهم؛ فانتهت الحروب والغارات التى كانت تكدر عليهم حياتهم .

٣- أنه هذب أخلاقهم، وقضى على العادات السيئة التى كانت فاشية فيهم كالأخذ بالثأر، ووأد البنات، وشرب الخمر .

٤- أنه بث فيهم روح المحبة، وألف بين قلوبهم؛ فحلت الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية .

٥- أنه نادى بالإخاء والمساواة، وأن التفاضل إنما يكون بالعمل الصالح والتقوى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات:١٣] ، «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»؛ فقضى على الحمية حمية الجاهلية .

٦- أنه دفعهم إلى الجهاد فى سبيل الله، والدفاع عن الدعوة؛ وبذلك تمت الفتوحات العظيمة .

٧- أنه أوجد لهم تشريعا وافيا بكل مطالب الحياة الدينية والاجتماعية، والسياسية والأدبية، تشريعا مستقلا متميزا عن كل التشريعات السابقة .

٨- وأخيراً: أنه أشعر العرب لأول مرة فى تاريخهم أنهم يستظلون بظل حكومة واحدة، لها دستور واحد يحتكمون إليه جميعا، ولها رئيس مطاع من الجميع، يحبهم ويحبونه .

وقد تم لهم باستقرار الرسول صلوات الله عليه فى المدينة، واتخاذها مقراً دائما، إقامة دولة لها أركانها ومقوماتها، التى حددها رجال القانون (١) .

هذه جملة من النظم أوردناها ليتبين للناس أن الإسلام لم يغفل عنصرا من عناصر الحضارة، ولم يهمل شيئا من قِوام الحياة، وأنه دين واف بسعادة البشر جميعا فى كل زمان ومكان .

والواقع أن من ينظر فى حال العرب قبل الإسلام، وحالهم بعد الإسلام، ويوازن بين الحالين، يدرك فى سهولة ويسر أن الدين الذى جاءهم به محمد ﷺ هو الشىء الوحيد الجديد الذى جد عليهم، وأنه هو الذى قوم أخلاقهم، وهذب نفوسهم، ووحد كلمتهم، وأصلح مجتمعهم، وأعلى شأنهم، وأعز جانبهم، فأصبحوا بهذا الدين أمة عالمة بعد جهالة، ورشيدة بعد غواية، ونابهة بعد خمالة .

وقد اعترف بذلك كثير من المنصفين والمستشرقين (٢) .

---

(١) الأركان التى حددها رجال القانون هى: شعب يقيم فى رقعة معينة من الأرض، وشخصية معنوية يتمتع بها هذا الشعب، يمثلها صاحب السلطان، ونظام تخضع له، واستقلال سياسى يجعل هذا الشعب قائماً بذاته لا تابعاً لدولة أخرى - راجع نظم الحكم للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى، نقلا عن كبار رجال القانون .

(٢) راجع كتاب النظريات السياسية الإسلامية للدكتور محمد ضياء الدين الريس الطبعة الثالثة ص١٤، ١٥ ، وراجع كتاب الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى، وما نقله عن الأساتذة الدكتور شفيق شحاتة، والدكتور السنهورى، والدكتور حشمت أبو ستيت والدكتور صوفى أبو طالب فى أن التشريع الإسلامى لم يأخذ شيئاً عن التشريع الرومانى، وأنه إن كان شىء من ذلك، فالرومان هم الذين أخذوا؛ لأن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب، كما يقول العلامة ابن خلدون .

يقول «سيروليم مُوير» : «امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد» .

ويقول «كارليل» " «قوم يضربون فى الصحراء لا يؤبه لهم عدة قرون؛ فلما جاءهم النبى العربى، أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة، وعزوا بعد الذلة، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم» .

ويقول الدكتور «فتزاجرالد» : «ليس الإسلام دنيا فحسب . ولكنه نظام سياسى أيضاً» .

ويقول الدكتور «شاخت» :«إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدنيا معا» .

ويقول الأستاذ «شترثمان» : «الإسلام ظاهرة دينية وسياسية؛ إذ إن مؤسسه كان نبيا، وكان حاكما مثاليا خبيراً بأساليب الحكم» .

ويقول الأستاذ «جيب» : «إن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين فى الحكم، وله قوانينه ، ونظمه الخاصة» .

ويقول الدكتور «جوستاف لوبون» : «والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لمناحى العلم واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيبا للنفوس، ودعوة إلى العدل والإحسان والتسامح» (١) .

ويقول «برناردشو» : « الإسلام دين الديمقراطية، وحرية الفكر، ودين البيع والشراء، وفوق ذلك فهو دين جنتلمان» (٢) .

ويقول المؤرخ المعاصر: «هـ . ج . ويلز» : «إن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى .... كان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط العقلى فى العالم حتى اليوم ....» .

وأخيرا يقول صاحب قصة الحضارة: «لقد ظل الإسلام خمسة قرون على الأقل

---

(١) حضارة العرب ص١٤٣ .

(٢) مجلة الأزهر جـ٧ . مجلد ٢٨ .

من عام ٧٠٠م–١٢٠٠م يتزعم العالم كله، فى القوة والنظام، وبسطة الملك، وجميل الطباع، والأخلاق، وفى ارتفاع مستوى الحياة، وفى التشريع الإنسانى الرحيم، والتسامح الدينى، والآداب، والبحث العلمى، والعلوم، والطب والفلسفة» إلخ (١) .

وحمادى القول: إن هذه الأسس العظيمة، وتلك الأصول المستمدة من وحى السماء قد أوجدت المجتمع المثالى الفاضل الذى لم تر الإنسانية له عِدلا ولا مثيلا .

وبعد فنقول فى وثوق: إن أسس الحضارة الإسلامية وأصولها الأولى قد استمدت أولا بالذات من القرآن والسنة، وأنها نضرة وكثيرة الاختلاف والتغاير عن الحضارات التى سبقتها، وقد اعترف بذلك كثير من الباحثين المنصفين .

يقول الدكتور جوستاف لوبون: «إن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها» (٢) .

* * *

---

(١) راجع اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعى ص ١٧٣ – ١٧٦ وراجع ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود فى سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٧ عن أوربا والإسلام .

(٢) حضارة العرب ص ١٥٣ .

الحضارة العربية

لم يذكر لنا التاريخ شيئاً كثيراً عن الحضارة العربية قبل الإسلام، ومع ذلك فإن ما يؤخذ من الأطلال الباقية فى اليمن، ومن النقوش التى كشفها الباحثون هناك، ومن النقود اليمنية التى عثر عليها أخيراً فى صنعاء، ومن النقوش التى وجدت فى شمال الجزيرة، والتى تشير إلى وجود علاقات تجارية مع اليمن، ومما ذكره القرآن الكريم، عما كان بين بلقيس ملكة سبأ وسليمان عليه السلام [١] - يدل على أن بلاد اليمن كانت بها فيما سلف من الزمان ممالك ذات مدنية وحضارة [٢] .

كما أن اختلاط المناذرة بالفرس، والغساسنة بالرومان، أكسبهم شيئاً غير قليل من حضارة هاتين الدولتين .

وقد كانت مكة على جانب من الحضارة يشهد لذلك ما كان لأهلها من تجارات جعلت لهم خبرة بشئون الحياة، ومعرفة بأحوال الآخرين، وما كان من تداعى قبائل منها إلى حلف شريف لنصرة المظلوم [٣]؛ فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وهو أكرم حلف سمع به، وأشرفه فى العرب؛ ولذا قال فيه النبى ﷺ : «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت» [٤] .

---

(١) لم يكن ملك اليمن بالضخامة التى ترهب الملوك وتخيفهم، يدل على ذلك تخوف بلقيس - وهى من أشهر ملوكهم - حين تسلمت رسالة سليمان عليه السلام، وقولها لقومها : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤] وقول سليمان عليه السلام مهددا لها: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧].

(٢) راجع حضارة العرب للأستاذ جوستاف لوبون ص ١٠٨ .

(٣) هو حلف الفضول .

(٤) عبد الله بن جدعان هو ابن عم السيدة عائشة رضى الله عنها، والقبائل التى اجتمعت=

وهذا الحلف هو فى حقيقته عبارة عن شبه نظام قضائى تستعين به قريش على الفصل فيما يقع من خصومات .

كما كان لها - كما قدمنا - دار للشورى هى (دار الندوة) يجتمعون فيها ويتشاورون فى مهام أمورهم، ويفصلون فى أحداثهم، وهى تشبه إلى حد ما مجالس النواب فى زماننا .

وفضلا عن ذلك فإنها قد أخذت حذرها من أن تختلف على نفسها، فقسمت شارات الشرف بين قبائلها؛ وجعلت لكل قبيلة منها شارة من هذه الشارات؛ يليها رئيسها لا ينازعه فى ذلك رئيس آخر من قبيلة أخرى .

ومهما يكن من شيء فإن العرب كانوا هم العنصر الهام فى الدولة الإسلامية؛ فقد آمنوا بالنبى ﷺ وعزروه ونصروه؛ واتبعوا النور الذى أنزل معه؛ وقد ألقى عليهم هذا الدين الذى ارتضوه لأنفسهم مهمة القيام بنشره والدفاع عنه .

وقد اكتسبوا من صلاتهم التجارية مع غيرهم، خبرة ومعرفة بأخبار الناس، كما كان لعاداتهم، وأخلاقهم، وآدابهم التى عرفت عنهم، من الشجاعة والنجدة، واحتمال الشدائد، والاستهانة بالمخاطر، والصبر على المكاره، وحماية الذمار، وما إلى ذلك أثر واضح، يسر لهم القيام لنشر الدعوة الإسلامية، والدفاع عنها والموت دونها .

وكان لهم حظ موفور من الأمثال والحكم الجامعة، يرددونها فى المناسبات، وقد عنى العلماء بجمعها فى كتب خاصة، من أهمها كتاب الأمثال للميدانى، كما عنوا بأيامهم، وتاريخ ممالكهم قبل الإسلام .

كذلك كانت لهم ثقافة انفردوا بها؛ فقد كانوا يحرصون على أنسابهم حرصا شديدا، ويعدون ذلك من مفاخرهم، بعد أن جاء الإسلام واشتغلوا بالكتابة والتدوين عنوا بالأنساب، وأفردوها بالتأليف؛ مما أدى إلى قيام علم الأنساب، لمعرفة أنساب

= فى داره هى : قبائل بنى هاشم، وبنى المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، وفى هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالم

راجع سيرة ابن هشام جـ١ ص٩٠ - ٩٢ .

القبائل والأفراد، وممن ظهر فى هذا العلم، الكلبى (صاحب التفسير المعروف)، وابن حزم، والسمعانى، والمبرد، إلى أمثالهم .

كما نبغوا فى الشعر، نبوغا جعله فنًّا عربيا ممتازا، وكان له عندهم منزلة ملحوظة؛ فقد كان ديوان أخبارهم، وسجل حروبهم وأحداثهم . وكنز لغتهم وبلاغتهم، وكان إذا نبغ شاعر فى قبيلة من قبائلهم فرحت واستبشرت، وعدت ذلك شرفا وقوة لها على غيرها [١] .

ومن أجل ذلك أفتن أهل الأدب فى جمعه وشرحه للاستشهاد به فى تحديد معانى الألفاظ الغامضة، ولبيان ما فيه بلاغة وبراعة وروعة، فضلا عن إيضاح الحوادث التاريخية الهامة فى حياتهم .

يقول أبو القاسم صاعد الأندلسى : «وأما علمها الذى كانت تتفاخر به، وتبارى به، فعلم لسانها، وإحكام لغتها، ونظم الأشعار، وتأليف الخطب، وكانت مع ذلك أصل علم الأخبار، ومعدن معرفة السير والأمصار» [٢] .

كذلك عرفنا أنهم كانوا ذوى معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها [٣] .

كان لهذه الأخلاق والعادات والآداب، ولهذه الثقافات التى امتازوا بها أثر ظاهر فى الحضارة الإسلامية، يقول الدكتور غوستاف لوبون : «كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوى صلات تجارية بأرقى أمم العالم منذ القديم، وأنهم استطاعوا فى أقل من مائة سنة أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التى عرفها التاريخ . .» .

ويقول أيضاً : «والعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن أن يقيموا دولة عظيمة، ويبدعوا حضارة عالية جديدة، هم لا ريب من ذوى القرائح التى لا تتم إلا بتوالى الوراثة، وبثقافة سابقة مستمرة . .» [٤] .

ومن ثم يتبين لنا أنهم أسهموا بنصيب غير منزور فى تقدم الحضارة الإسلامية ورقيها .

* * *

---

(١) سنذكر فيما بعد فصلا خاصا بالشعر عند العرب .
(٢) راجع طبقات الأمم ص٦٨ . (٣) نفس المصدر ص٧٠ .
(٤) راجع كتابه حضارة العرب ص٩٨، وهذا القول من مثل هذا الباحث الكبير ينقض القول بأن الحضارة الإسلامية مزيج من الحضارة الفارسية واليونانية .

الحضارة الفارسية (١)

الفرس أمة عريقة فى الحضارة، وقد ازدهرت حضارتها فى زمن الدولة الساسانية، وبرزت فى السياسة، والإدارة، والحروب، ومظاهر الترف والرفاهية، وكان لها دين رسمى الزرادشتى، ولغة ذات آداب وحكمة هى اللغة الفهلوية .

ولما فتح الله على المسلمين بلاد فارس، وقوضوا عرش الأكاسرة، اختلط الفرس بالمسلمين، وعرفوا منهم الشيء الكثير من محاسن الدين الإسلامى وسماحته، وأنه دين الإخاء والمساواة، والتعاطف والتراحم، والمحبة والإيثار؛ فدخلوا فى دين الله أفواجا، وصاروا موالى للمسلمين، وأقبلوا على اللغة العربية يدرسونها ويحصلونها؛ فهى لغة دينهم الذى أحبوه؛ واعتنقوه، حتى تعينهم على فهمه وتدبره .

وكان حبهم لهذا الدين ولغته مدعاة للعناية بهما؛ فلم يمض وقت طويل حتى أسهموا فى الحركة العلمية، وفى التأليف، بل ونبغوا فيهما، وأفادت الحضارة الإسلامية من ذلك فوائد جمة، منها :

١- أنه كانت هناك بعض الألفاظ التى تعبر عن مظاهر الحضارة، وليس لها مقابل فى اللغة العربية؛ فنقلت بذاتها إلى اللغة العربية، ودخلت فى بنيتها .

٢- نبوغ كثير من موالى الفرس فى مختلف العلوم العربية والإسلامية؛ فقد برز فى الحديث الحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وأبو عبد الله البخارى إلى أمثالهم، وكان لهم فضل كبير فى رواية الحديث، ونبغ فى الفقه الإمامان أبو حنيفة، والليث بن سعد، وكان لهما ولأمثالهما شأن أى شأن، وظهر فى الكتابة عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، وغيرهما، وفى الشعر بشار، وأبو نواس، إلى نظرائهما، وقد أدخل هؤلاء

---

(١) راجع فى هذا الموضوع والذى بعده كتاب تاريخ العالم العربى وحضارته للدكتور محمد مصطفى زيادة وزملائه .

وأولئك على النثر والشعر أساليب، وتعبيرات وأخيلة كثيرة، وهكذا حتى استفاضت فى العصر العباسى حركة العلم والتأليف فى مختلف العلوم الإسلامية، كما ترجم كثير من الكتب إلى العربية .

وانتقلت إلى الحضارة الإسلامية عن طريق هذه النهضة العلمية بعض معارف الهنود وغيرهم من الشعوب الشرقية المتحضرة .

وقد كان لهؤلاء الموالى أثر اضح فى الحضارة الإسلامية، وقد روى أن « بعض الأعراب سأل رجلا من أهل البصرة عن سيد هذه البلدة فقال: الحسن بن أبى الحسن البصرى، قال أمولى هو؟ قال: نعم، قال: فبم سادهم؟ فقال: بحاجتهم إلى علمه، وعدم احتياجه إلى دنياهم؛ فقال الأعرابى: هذا لعمر أبيك هو السؤدد » [1] .

* * *

---

(١) راجع كتاب اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ص٢٧٨، وفيه أن الزهرى ذكر: « أن هشام بن عبد الملك قال له: من يسود مكة؟ فقلت: عطاء » قال: فأهل اليمن؟ قلت: طاووس، قال: فأهل الشام؟ فقلت: مكحول. قال: فأهل مصر؟ فقلت: يزيد بن أبى حبيب، قال: فأهل الجزيرة؟ فقلت: ميمون بن مهران: قال: فأهل الكوفة؟ فقلت: إبراهيم النخعى، وذكر أنه يقول له عند كل واحد: أمن العرب أم من الموالى؟ فيقول: من الموالى، فلما انتهى، قال: يا زهرى: والله لتسودن الموالى على العرب، حتى يخطب لها على المنابر، والعرب تحتها، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط » .

الحضارة اليونانية والرومانية

اليونان أمة ذات حضارة عريقة، وقد نبغت فى الفلسفة والعلوم، والفنون والآداب، وظهر فيها أساطين الفكر في العالم القديم مثل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وقد انتشرت ثقافتهم فى الشرق على أثر فتوح الإسكندر، وقيام أسر يونانية حاكمة فى الشام ومصر خاصة .

وفى القرون السابقة على الإسلام نقل سريان الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيراً من تآليف اليونان فى الفلسفة، والطب، والرياضيات، والكيمياء، والفلك، والجغرافيا، وعلقوا عليها وشرحوها .

ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم فى العواصم الكبرى، ومنها أنطاكية، وقيصرية، ونصيبين، والرها، كما قامت بالإسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليونانى، وأخرى بجنديسابور فى إقليم خوزستان .

وبذلك انتشرت الحضارة اليونانية فى أقطار الشرقين الأدنى والأوسط، ولما ظهرت الدولة الرمانية امتزجت حضارتها – ولا سيما فى تشريع القوانين وهندسة الطرق – بالحضارة اليونانية وأثرت فيها .

وفى العصر العباسى أمر هارون الرشيد بترجمة كثير من كتب اليونان، كما عهد ابنه الخليفة المأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة فى علومهم إلى اللغة العربية؛ فنقلوا الكثير منها إلى العربية عن السريانية، وبعضها عن اليونانية رأساً؛ فقويت فى عهده حركة الترجمة والنقل، وأرسل فى سبيل ذلك البعوث إلى القسطنطينية، وبذل لها الأموال الوفيرة .

وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين، وأصبحت من أهم الأسس فى الفلسفة، والطب، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والجغرافيا عند العرب .

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

نظم الحكم

- ديمقراطية الإسلام .
- الخلافة.
- الإدارة .
- الوزارة .
- الحجابة .
- الكتابة .
- تدوين الدواوين .
- القضاء.
- الشرطة .
- البريد.
- الجيش .
- البحرية .
- حكومة الأقاليم .

نظم الحكم

ديمقراطية الإسلام (الشورى)

الشورى ألفة للجماعة، وسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاورقوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم .

وإن من ينظر فى القرآن الكريم، والسنة النبوية يظهر له أن الحكم فى الإسلام يقوم على الشورى؛ فإن الله سبحانه قد جعل أمر المسلمين شورى بينهم، وقرن اتصافهم بها بإقامتهم الصلاة، واستجابتهم لربهم، «وساق وصفهم بهذا مساق الأوصاف الثابتة، والسجايا اللازمة، كأنه شأن الإسلام ومن مقضياته» (1)، قال جل شأنه: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى:٣٨] ، كما أمر رسوله بالمشورة مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده؛ فقال عز من قائل: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران:١٥٩]؛ قال الحسن البصرى: «أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون، ويتبعه فيها المؤمنون»،«وليستخرج منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحى من أمر الحروب، والأمور الجزئية» وإن كان عن مشورتهم غنيا (2).

كذلك وردت فى السنة عدة أحاديث تدعو إلى الشورى وتحث عليها، وكانت من سنته ﷺ ، ومن سنة خلفائه الراشدين من بعده؛ فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: «لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» (3) ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «من أراد أمرا، وشاور فيه وقضى هدى لأرشد الأمور» . وأخرج عبد بن حميد والبخارى فى الأدب وابن المنذر عن الحسن قال: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم، ثم تلا: ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى:٣٨] » (4) .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٦٩، السياسة الشرعية للمرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردى ص٢٧٢، السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٦٩ .

(٣) السياسة الشرعية لابن تيمية ١٦٩، زاد المعاد لابن القيم الجوزية جـ٢ ص٩٠ ط صبيح.

(٤) راجع كتب التفسير فى قوله تعالى: ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وحين قامت دولة الإسلام بالمدينة، وتم تكوينها بالمعاهدة التى عقدها ﷺ بين المسلمين ويهود المدينة، والتى وادعهم فيها، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وكان من شروطها المساواة بين الطرفين، وتعهد اليهود بالدفاع عن المدينة إذا ماهاجمها عدو، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ – أصبح النبى ﷺ – إلى جانب كونه رسولا يبلغ عن ربه ما أمر بتبليغه من أمور الدين – الرئيس الأعلى للمدينة، إليه المرجع فى كل شيء، ومع ذلك لم يستبد برأى، ولكنه كان يستشير أصحابه فى كل ما يعرض من أمور ليس فيها حكم من الله تعالى، ويعمل بمشورتهم؛ فتراه فى غزوة بدر يعدل خطته الحربية بمشورة الحباب بن المنذر حين قال له: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس، حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛ فقال له: «لقد أشرت بالرأى» .

ثم نراه بعد أن انتصر على قريش يستقر رأيه – بعد أن استشار أصحابه – على قبول الفداء من قريش فى أسراها، وكان هذا رأى أبى بكر وأكثر الصحابة .

وشاور أصحابه يوم أحد فى المقام والخروج، فرأوا له الخروج فخرج .

كما نزل على مشورة سلمان الفارسى فى حفر خندق حول المدينة فى غزوة الخندق .

واستشار صلوات الله عليه أهل بيته، وخاصته فى حديث الإفك .

وهكذا كان النبى صلوات الله عليه يستشير أصحابه، ويعمل بمشورتهم فى كل ما ليس فيه وحى من السماء، وظل كذلك إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

* * *

الخلافة [1]

عرف ابن خلدون الخلافة بأنها: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة؛ فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين، وسياسة الدنيا به» .

وعرفها صاحب الأحكام السلطانية بقوله: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين، وسياسة الدنيا» .

وعرفها صاحب المقاصد بأنها: «رياسة عامة فى الدين والدنيا، خلافة عن النبى ﷺ» .

وعرفها غيرهم بما لا يخرج عن ذلك [2] .

والخليفة إذن هو القائم بحراسة الدين، وسياسة الدنيا عن النبى ﷺ .

«ونحن إذا رجعنا إلى هذه التعاريف وغيرها من التعاريف التى ذكرها العلماء نجد أنهم جميعاً قد اتفقوا على تقديم أمور الدين والعناية به على أمور الدنيا، وأن سياسة الدنيا يجب أن تكون على أساس الدين وشرائعه؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة» [3] .

---

(١) الخلافة: النيابة . استخلف فلانا من فلان جعله مكانه ... والخليفة الذى يستخلف ممن قبله ... والخليفة السلطان الأعظم . وخلفه خلافة كان خليفته، وبقى بعده، والجمع خلائف وخلفاء ــ لسان العرب، القاموس .

(٢) راجع المسايرة للكمال بن الهمام وشروحها، والمواقف والمقاصد فى بحث الإمامة .

(٣) ابن خلدون جـ٢ ص١٥٨ ، وهذا ما يجب أن نتدبره دائماً؛ فإن صلاح أمور الناس فى الدنيا رهن بأخذهم بالدين وتشريعاته وتعاليمه .

وظيفة الخليفة [1] :

كان للنبى ﷺ وظيفتان :

الأولى: أن يبلغ عن الله ما أمر بتبليغه بحكم الرسالة التى اختير لأدائها .

والثانية: كونه إماماً للمسلمين، ورئيسا أعلى لهم يوجههم نحو الخير، ويبعدهم عن الشر، وإليه المرجع في كل ما يحدث بينهم من أحداث، وهو الذى يحكم بينهم بما أنزل الله، وهو القائد للجند إلى غير ذلك من أمور الدولة .

والوظيفة الأولى انتهت بموته ﷺ بعد تشريع ما أراد الله تشريعه؛ فلم يكن لأحد من بعده إلا البناء على قواعد تلك الشريعة .

والوظيفة الثانية ظلت باقية، بل كانت ضرورية؛ إذ لم يكن للمسلمين بد منها حتى لا يفشلوا، وتذهب ريحهم، وتدول دولتهم .

ومن ثم لم يروا بدا من إقامة من يخلف رسول الله ﷺ فى خلافة المسلمين؛ إذ إن سنة الله فى خلقه أن كل جماعة مهما قل عددها لا بد لها من رئيس يدبر أمورها، ويدير شئونها، ويكون به قوامها، وإلا لا يقر لها قرار، ولا يستقيم لها حال .

وجوب نصب الخليفة :

أجمع أهل السنة، وجمهور الفرق الإسلامية الأخرى على وجوب نصب الإمام العادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها الرسول صلوات الله عليه [2]؛ يقول صاحب الأحكام السلطانية : « وعقدها (أى الإمامة) واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم » .

---

(١) يسمى خليفه لكونه يخلف النبى ﷺ فى أمته، ويسمى إماما تشبيها بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به، ولهذا يقال لها : الإمامة الكبرى، ويسمى أمير المؤمنين، لأنه لمامات أبو بكر رضى الله عنه، وكان يدعى خليفه رسول الله قيل لعمر : خليفة خليفة رسول الله، فقال المسلمون : من جاء بعد عمر قيل له : خليفة خليفة خليفة رسول الله ، فيطول هذا، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى به من بعده من الخلفاء، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعى عمر أمير المؤمنين، فهو أول من سمى بذلك، وقيل فى تسميته أمير المؤمنين غير ذلك راجع مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٥١٩ ، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٤٩ ، الطبرى جـ٣ ص ٣٧٧ طبعة التجارية، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٩٤ .

(٢) راجع الفصل لابن حزم جـ٤ ص ٨٧ .

ويقول ابن خلدون: «إن نصب الإمام قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه، وتسليم النظر إليه فى أمرهم، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام»(١).

ويقول الكمال بن أبى شريف: «وأما وجوبه علينا فلأنه قد تواتر إجماع المسلمين فى الصدر الأول عليه، حتى جعلوه أهم الواجبات، وبدءوا به قبل دفن الرسول ﷺ» «وكرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة» (٢).

شروط الإمامة :

أهم الشروط التى رآها العلماء هى :

العلم والعدالة، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر فى الرأى والعمل، واختلفوا فى شرط النسب القرشى، والجمهور على اشتراطه (٣) .

١- لإجماع الصحابة عليه يوم السقيفة .

٢- ولاحتجاج قريش على الأنصار بقوله ﷺ : «الأئمة من قريش» (٤) .

وخالف فى هذا الشرط القاضى أبو بكر الباقلانى، وبعض العلماء وعلى رأسهم ابن خلدون .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥١٩، الأحكام السلطانية الماوردى ص٣ .

(٢) المسامرة ص٢٥٣،٢٥٤، الطبرى جـ٢ ص٤٤٧ .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص٤، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٢٢ .

(٤) هذا الحديث رواه النسائى من حديث أنس، ورواه بمعناه الطبرانى فى الدعاء، والبزاروالبيهقى، وأفرده ابن حجر بجزء جمع فيه طرقه عن نحو من أربعين صحابيا – المسامرة ص٢٦١، ورواية السيوطى فى تاريخ الخلفاء: «الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا، ووعدوا فوفوا، واسترحموا فرحموا» ص٦، وأخرج البخارى عن معاوية أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، وأخرج أيضاً عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان» وقال شارحه العينى: وهذا الحديث أخرجه البخارى أيضاً فى الأحكام عن أحمد بن يونس، وأخرجه مسلم فى المغازى عن أحمد بن يونس أيضا، كما أخرجه أيضاً فى كتاب الإمارة بلفظ: «لا يزل هذا الأمر فى قريش ما بقى من الناس اثنان» .

ولم تختلف كلمة المسلمين، وتتشعب آراؤهم فى شىء كما اختلفت وتشعبت فى الخلافة [1]، وكان مدار بحثهم فى أمرين :

الأول: البيت الذى يكون منه الخليفة .

والثاني: الشكل الذى به ينتخب الخليفة .

بيت الخلافة :

«من المحقق أن الكتاب لم يشر أى إشارة إلى تعيين بيت، أو بطن، أو شعب يكون منه خليفة المسلمين، وأما الرسول صلوات الله عليه فروى عنه : «الأئمة من قريش» كما أثر عنه: «اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة» .

وعقب وفاة النبى ﷺ كان الناس فريقين:

الأول: يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت.

والثاني: يرى تخصيصها. وهذا الفريق انشعب إلى شعبتين:

الأولى تخصيصها بقريش بلا فرق بين بطونها، والثانية تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله ﷺ .

ورأى عدم التخصيص كان للأنصار؛ فإنهم كانوا يرون أن يكون الخليفة منه، لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء، والأعمال العظيمة التى قاموا بها للإسلام، وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير، ومن المهاجرين أمير.

وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى الأزمنة المختلفة، ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة التميمى؛ فإنهم كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح، وإبعادهم عن الشر، والسير فيهم بأوامر دينهم، غير ناظرين فى ذلك إلى بيت أو قبيلة، بل إلى ما فى الشخص من المقدرة والكفاية، ويستندون فى رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن الكريم، وبينتها السنة الشريفة، وهى :

---

(١) يقول الشهرستانى فى الملل والنحل: «ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان» ص٢٠ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران .

إن التقوى أساس التفاضل بين الناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقال ﷺ: «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى».

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأيًا للجمهور، لما رواه لهم أبو بكر من حديث: «الأئمة من قريش»، وقد بين رضى الله عنه طرفًا من علة هذا التخصيص بقوله: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس، ولا يدين العرب إلا لهذا الحى من قريش»[1].

ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون أن السر فى تخصيص قريش بالخلافة يرجع إلى ما كان لهم من العصبية، والتقدم على سائر بطون العرب، بهذا يعترف لهم الناس، ولا ينكرونه عليهم، حتى إنهم كانوا يستثنونهم إذا افتخروا؛ يقول قائلهم:

فأما الناس ما حاشا قريشًا فإنا نحن أفضلهم فعالا

فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما.

وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هى العصبية التى بها يكون اجتماع الكلمة، وكانت عصبية قريش قد جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها، حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها، وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه، كان من الممكن أن تكون الخلافة فى غير قريش، ممن فيهم تلك القوة، والعصبية المجتمعة .

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلى بن أبى طالب ومن شايعه، وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله ﷺ. ولما لم يكن له من يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه، أذعن لرأى الجمهور[2].

---

(١) لمكان الكعبة ولأنهم أوسط العرب نسبًا ودارًا – المسامرة – ص ٢٥١، الطبرى جـ ٢ ص ٤٤٦ ط التجارية.

(٢) محاضرات المرحوم الشيخ الخضرى، مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٢٤ وما بعدها، الطبرى جـ ٢ ص ٤٤٦، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٤، المسامرة للكمال بن أبى شريف، تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار.

• شكل الانتخاب :

لم يرد فى الكتاب نص صريح يبين شكل انتخاب خليفة لرسول الله ﷺ اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها، مثل وصف المسلمين بقوله : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الشورى :٣٨]، ومن قوله : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران :١٠٣]، وقوله : ﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال :٤٦].

كذلك لم يرد عن النبى ﷺ أنه أوصى بالخلافة لأحد من بعده، كما لم يرد عنه بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق؛ كأن الشريعة أرادت أن تكل الأمر للمسلمين يختارون من نظم الحكم ما يلائم أحوالهم؛ ويتمشى مع تطور حياتهم؛ إذ إن الأحوال تتغير والمجتمعات تتطور، وما يصلح اليوم قد لا يصلح غدا؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده، وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما.

ومن ثم كان التشريع الإسلامى فى هذه الناحية - كما فى غيرها - فى أسمى مراتب الكمال. وهاك طرائقهم فى الانتخاب.

الطريقة الأولى :

طريقة الانتخاب الاستشارية؛ وقد كانت فى انتخاب أبى بكر حيث اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة، ورشحوا للخلافة سعد بن عبادة سيد الخزرج، وسمع بذلك بعض المهاجرين؛ فأسرع إليهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وحصل بين الفريقين حوار وجدل، وكان مما احتج به المهاجرون.

١ - أن النبى ﷺ أوصى بكم خيراً؛ ولو كانت الإمامة فيكم لم تكن الوصاة بكم.

٢ - وأنه ﷺ قال : «الأئمة من قريش».

٣ - وأنه صلوات الله عليه قد رضى أبا بكر لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؛ فإن النبى ﷺ لما اشتد عليه المرض قال : «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وأخيرا بايع المجتمعون أبا بكر، وفى اليوم التالى بايعه المسلمون البيعة العامة عن رضى واختيار.

وبهذه البيعة أكد أبو بكر قضاء الإسلام على التحكم الفردى فى توريث العروش، كما كان متبعاً فى الكسروية والقيصرية.

الطريقة الثانية:

طريقة العهد وهى: أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده؛ فقد رأى أبو بكر أن يعهد إلى رجل من المسلمين يكون رضى فيهم، تتوفر فيه التقوى والكفاية، والقدرة على الاضطلاع بمهام الدولة، حتى يوفر على الأمة ما عساه أن يحدث من اختلاف يهددهم بالفرقة والانقسام، كما كاد أن يحدث عقب وفاة النبى ﷺ؛ فوقع اختياره على عمر رضي الله عنه، ولكنه رأى أنه ليس من حقه أن يستبد برأيه فى اختيار من يقوم بأمر المسلمين من بعده؛ فاستشار كبار الصحابة فوافقوا على اختياره، وكتب عهداً بذلك؛ وقد وافق المسلمون على هذا الاختيار .

وبذلك نرى أن خلافة عمر كانت:

١ - بترشيح الخليفة القائم.

٢ - باستشارة أهل الحل والعقد (١).

٣ - بموافقة العامة ورضاهم على ما اتفق عليه أهل الحل والعقد.

الطريقة الثالثة:

طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود، وهى الطريقة التى انتخب بها عثمان بن عفان؛ فإن عمر لما طعن، وأحس بدنو أجله خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة، لئلا يتنازعوا ويختلفوا، ولم يكن أمامه من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله؛ فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حيا وميتا، فاختار ستة من الصحابة، وممن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم، وهم على، وعثمان، وسعد بن

---

(١) أهل الحل والعقد هم النخبة الناضجة الواعية، ذوو الكفاية الممتازة فى علمهم ومعرفتهم، الذين تثق بهم الأمة، وتتبعهم فيما يقررونه بشأن الدين والدنيا. وتعريفهم وما يجب أن يتوافر فيهم من شروط مذكور فى مواضعه.

أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وجعل ابنه عبد الله معهم على أن يؤخذ رأيه فقط، وليس له من الأمر شيء؛ حتى لا يقال إن عمر ورثها بنيه، ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم؛ فقد أمر أن يجتمع هؤلاء الستة، ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام، وجعل للأغلبية الرأى النافذ المقبول، وإذا تساوت الأصوات كان الفريق الذي فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحا، وبعد مشاورات اختير عثمان، ووافقت الأمة على اختياره؛ وبذلك أصبح خليفة باتفاق الجميع.

● **اختيار علي:**

كان لبعض المسلمين مآخذ على حكم عثمان، ثم انتهى الأمر بالثورة عليه وقتله بيد الثوار، وقد رغب هؤلاء الثوار فى مبايعة على فأبى، ثم قبل وبايعه أكثر من فى المدينة من المسلمين، وبذلك تمت بيعته [١].

وبهذا يتبين أن تولية الخلفاء الراشدين كانت بمبايعة المسلمين وباستشارتهم.

ومما يلفت النظر أن الخلفاء الأربعة لم يكونوا من بطن واحد من بطون قريش، بل كانوا من بطون مختلفة؛ فكان أبو بكر من بنى تيم، وعمر من بنى عدى، وعثمان وعلى من بنى عبد مناف.

وكان الخليفة بعد أن تتم البيعة له يخطب المسلمين خطبة يبين فيها منهجه الذى اعتزم أن يسير عليه فى سياسته للمسلمين. ونذكر على سبيل المثال خطبة الخليفة الأول؛ فإنه بعد أن حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله قال: «أما بعد أيها الناس فإنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله؛ فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله تعالى بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» [٢].

---

(١) خرج عليه معاوية، وطالب بدم عثمان، كما خرج عليه، طلحة، والزبير، وعائشة، فاضطرب أمر المسلمين، وكانت حروب بينه وبين من خرج عليه انتهت بقتله كرم الله وجهه.

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٤٥٠.

ولما قتل على وصفا الجو لمعاوية تغير نظام الشورى الذى كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين، وتحولت الخلافة إلى ملك يؤول إلى صاحبه بالقوة والسياسة؛ وبذلك ظهز نظام التوريث؛ فكان الخليفة يعين ولى عهده، ويأخذ البيعة له من وجوه الناس، وكبار القواد فى حضرته.

كما كانت تؤخذ البيعة له فى الأقاليم، بحضور الوالى نيابة عن الخليفة، وسار الأمر على ذلك فى عهد الأمويين، والعباسيين، ومن بعدهم؛ فحرموا المسلمين من هذا الحق الذى جاء به القرآن، وأيدته الأحاديث النبوية. وغلَوا فى ذلك حتى كانوا يولون عهدهم اثنين بل وثلاثة .

وهذه الطريقة كما يقول السيد أمير على: «قد جمعت فى نفسها كلا من النظام الديمقراطى، ونظام الحكم المطلق فى آن واحد، مع تجردها من مزايا كل منهما؛ إذ كانت البيعة تتم بأى طريقة سواء أكانت بالوعيد أو الوعود الخلابة، ويصبح الانتخاب على كل حال شرعيا [١]».

● الشورى فى تصرف الخلفاء الراشدين

كذلك نلحظ الشورى واضحة فى تصرف الخلفاء الراشدين فيما كان يجد من أمور ليس فيها نص من كتاب ولا سنة.

استشار أبو بكر رضى الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ، فى ميراث الجدة حينما جاءته تطلب ميراثها، فقال: لا أجد لك فى كتاب الله شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا. ثم سأل الناس؛ فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال: هل معك أحد، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها[٢].

واستشار الصحابة حينما عزم على أن يعهد بالخلافة إلى عمر رضى الله عنهما.

---

(١) النظم الإسلامية للأستاذين الدكتور حسن إبراهيم والأستاذ على إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم.

(٢) تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣ .

واستشار عمر رضى الله عنه فى حد شارب الخمر، وجعله ثمانين جلدة، بعد أن رأى على كرم الله وجه ذلك، ووافقه الصحابة على رأيه؛ روى مالك فى الموطأ: «أن عمر بن الخطاب استشار فى الخمر يشربها الرجل، فقال على بن أبى طالب: أرى أن تضربه ثمانين (كحد القذف)؛ فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى؛ فجلد عمر فى الخمر ثمانين» [١].

ولما فتح الله على المسلمين العراق والشام وغيرهما من الأقطار، كان من رأى بعض الصحابة أن تقسم هذه الأرض بين الغانمين بعد رفع الخمس، وكان رأى عمر وبعض آخر من الصحابة: أن تبقى بيد أهلها، وأن يوضع عليها الخراج، لينفق منه على مصالح المسلمين عامة، فى كل جيل وزمان، وبعد نقاش وجدال ومشاورات وافق المسلمون على رأى عمر كما قدمناه[٢].

وعثمان استشار فى حدث من أهم الأحداث فى الإسلام، وهوجمع القرآن؛ فقد قدر خطر ما سيقدم عليه، فلم يشأ أن ينفرد برأى؛ فجمع المهاجرين والأنصار، وشاورهم فى الأمر، واستقر الرأى على كتابة المصحف.

وعلى كرم الله وجهه نزل على رأى الأغلبية فى التحكيم.

وقد عقد الإمام البخارى للشورى بابًا خاصًا فى صحيحه. ومما رواه فى ذلك: «وكانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور العامة؛ ليأخذوا بأسهلها؛ فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبى ﷺ».

«وكان القراء (أى العلماء) أصحاب مشورة عمر كهولا كانوا أو شبابًا، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل [٣]».

ويقول الإمام أبو يوسف: «كان يساعد الخليفة مجلس من الكبار المسنين، هم

---

(١) الموطأ ص ٣١١، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والأحكام السلطانية للماوردى ص ١٩٩.

(٢) راجع كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤ ط الأميرية.

(٣) انظر صحيح البخارى فى باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

أهل الشورى، وكان يتألف من كبار الصحابة، وكانت جلساته تعقد فى مسجد النبى ﷺ، وفى غالب الأحيان كان يساعد هذا المجلس أعيان المدينة، وزعماء البدو الوافدون إلى المدينة، فضلا عن أنه كان فى مقدور كل فرد ممن يحضر المسجد أن يدلى برأيه، وكان شيوخ المجلس من بين المهاجرين والأنصار» (١).

ويقول السيد أمير على: «إن الخليفة كان يستعين فى إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ، يتألف من كبار الصحابة، وأعيان المدينة، ورؤساء القبائل، وكانوا يجتمعون فى مسجد المدينة، وكان الخليفة لا يقطع أمرًا دون استشارتهم، وكان نظام الحكم فى الثلاثين سنة الأولى فى الإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى» (٢).

ومما تقدم نلاحظ:

١ - أن انتخاب الخلفاء الراشدين كان يتمشى مع الشورى التى جاء بها القرآن، وندبت إليها السنة النبوية، ولا أثر فيه للوراثة، كما أن تصرفاتهم كانت تخضع للشورى.

٢ - لم يحاول أحد من الخلفاء الراشدين أن يجعل الخلافة وراثية، حتى إن عمر رضى الله عنه لما رأى أن يكون ابنه عبد الله مع الستة الذين جعل الخلافة فى واحد منهم، لم يجعل له إلا المشورة فقط، وليس له من الأمر شىء.

٣ - كان الخليفة عقب انتخابه يخطب الناس مبينًا لهم منهجه فى الحكم، وسياسته التى اعتزم السير عليها.

● الخلافة ونظم الحكم الأخرى

قامت الخلافة على احترام رأى الأمة؛ وإلغاء الفوارق بين أفرادها، على هدى الإسلام وتعاليمه.

١ - وإذا لاحظنا أن انتخاب الخليفة كان يقوم على الشورى، كان نظام الخلافة

---

(١) راجع كتاب الخراج للقاضي أبى يوسف ص ٣٠ ط السلفية.

(٢) تاريخ الإسلام السياسى - للدكتور حسن إبراهيم ج ١ ص ٧٥٠، وراجع مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، للسيد أمير على، طبعة لجنة التأليف ص ٥٠ .

نظاما جمهوريا، لولا أنه كان مقصوراً على البيت القرشى، وأن بقاء الخليفة فى منصبه غير مقيد بمدة محددة، كما هو الشأن فى انتخاب رئيس الجمهورية.

٢ - وإذا لاحظنا أن الخليفة غير مقيد برأى من يستشيرهم، كان نظام الخلافة يشبه نظام الملكية المطلقة، ولكن الواقع أن الخليفة كان ينزل عند رأى المسلمين فى كل أمر ليس فيه نص من كتاب أو سنة.

٣ - وإذا لاحظنا أن سلطة الخليفة كانت مقيدة بالعمل بما فى كتاب الله وسنة رسوله، كانت تشبه الملكية المقيدة .

وعلى كلٍّ، فقد كانت الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين حكومة « ديمقراطية » حقًّا؛ فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحداً من المسلمين، يجلس معهم ويختلط بهم، ويستطيع أى فرد منهم أن يتحدث إليه فى كل ما يريد، وكانت حياته كحياة غيره من المسلمين، فى غاية البساطة، بعيدة عن أبهة الملك ومراسمه، وكان لا يقطع رأيا دون استشارة كبار الصحابة كما بينا.

* * *

الإدارة

تأسست الدولة الإسلامية بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة واستقراره بها. وقد اتخذ الرسول صلوات الله عليه من المدينة مقرًا للدولة الإسلامية الناشئة، ووضع سياسة هذه الدولة على أسس واضحة مستقيمة محددة، وكان من أهم هذه الأسس.

١ – قيامه بتبليغ رسالة ربه، ونشرها بكل الوسائل بين العرب والناس جميعًا.

٢ – عقده معاهدة بين المسلمين واليهود، شرط لهم، واشترط عليهم ما فيه خير للجميع، وما ينظم شئون هذه الجماعة المختلطة.

٣ – أنه جعل مسجده بالمدينة الذى بناه لإقامة الصلاة مكانًا يجتمع فيه المسلمون للتشاور فى مهامهم، ومركزًا لبث الدعوة للإسلام، ومقرًا لاستقبال الوفود.

٤ – أنه كان يستشير أصحابه فيما كان يجد من أمور ليس فيها نص من القرآن الكريم.

٥ – أن دستور هذه الجماعة هو القرآن الكريم، وهو تنزيل من حكيم عليم. وفيه من النظم والتشريعات ما كان فيه الخير كل الخير للناس كافة، وما كان أساسًا، وأصلا لكل النظم التى استلزمها تطور الدولة فيما بعد. واتساع رقعتها، وتعدد دياناتها وأعرافها؛ فأحكام هذا القرآن عامة وصالحة لكل زمان ومكان، ولكل جيل وقبيل.

وبذلك وضعت الأسس الصالحة لنشأة الدولة الإسلامية وتطورها.

وفى عهد خلفائه الراشدين اتسعت الدولة. وعظم عمرانها، وازداد عددها، واختلفت عاداتها وأعرافها، وجدت أمور وأحداث لم تكن من قبل؛ فاحتاج الأمر إلى نظم تساير هذا التوسع والتطور، وتحكم تفصيلات الأسس والأصول التى وضعها النبى ﷺ، وتتفق مع المبادئ الأساسية التى قام عليها الإسلام، «وتجعل منها أداة حكومية منظمة تنظيما راقيًا دقيقا»، وتكفل لهذه الدولة الزاهرة من الثبات

والاستقرار، والقوة والحياة، والتقدم والرفاهية، ما يجعلها من أرقى وأقوى دول العالم في تلك العصور[1]»، فدونت الدواوين، وبنيت الأمصار، ونظمت الجيوش، ووجد العسس، وعين الولاة، والجباة والقضاة، ونظمت موارد بيت المال ومصارفه، وغير ذلك كثير مما يتصل بحسن إدارة الدولة وتدبير أمورها، وإصلاح شئونها، كما سيتضح فيما بعد.

* * *

---

(١) مقدمة المراجع لترجمة كتاب الإدارة العربية للحسيني.

الـــوزارة [1]

الوزير حبأ الملك الذى يحمل ثقله، ويعينه برأيه وتدبيره [2].

والوزارة أسمى الرتب السلطانية، واسمها يدل على مطلق الإعانة؛ فإن الوزارة مشقته إما من الوَزَر (بفتح الواو والزاى) وهو الملجأ والمعتصم، ومنه قوله تعالى ﴿ كَلَّا لا وَزَرَ ﴾؛ لأن الوزير يلجأ إلى رأيه وتدبيره ، أو من الوِزر (بكسر الواو) وهو الثقل؛ لأنه يزر ويحمل عن الخليفة أثقاله، ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى أثقالها، أو من الأزر وهو الظهر، لأن الخليفة يقوى بوزيره، كقوة البدن بالظهر [3] ومنه قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾.

صفة الوزير:

لسمو هذه الوظيفة، وعلو مرتبتها، كان الخلفاء لا يستوزرون «إلا الكامل من كتابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها، وتثق بحزمه وفضل رأيه، وصحة تدبيره فى أمورها [4].

وقد بين الخليفة المأمون صفات الوزير التى طلب أن يكون عليها، إذ يقول فى اختيار وزير:

---

(١) الوزارة بكسر الواو وفتحها والكسر أعلى – لسان العرب، القاموس. والوظائف السلطانية فى هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما يقول العلماء وبخاصة علماء الاجتماع والسياسة الشرعية كابن خلدون، والماوردى، وابن تيمية. وليس ثمة ما يدعو إلى إعادة الكلام على الخلافة هنا فقد تكلمنا عنها قبل ذلك.

(٢) راجع لسان العرب، والقاموس، والأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٠ – والحبأ جليس الملك وخاصته.

(٣) كيف تقلبت لفظة «وزير» كانت دالة على الملجأ والثقل والمعاونة – الفخرى ص ١١١، وراجع لسان العرب، والقاموس، والأحكام السلطانية ص ٢٠، وكتب التفسير عند قوله تعالى ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾.

(٤) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٩٤.

«إنى التمست لأمورى رجلا جامعًا لخصال الخير، ذا عفة فى خلائقه، واستقامة فى طرائقه، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللحظة، وتغنيه اللمحة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء. إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه (١)».

الحاجة إلى الوزارة:

تظهر الحاجة إلى الوزارة مما قاله الله تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ [طه: ٢٩-٣١]؛ فإذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الإمامة أجوز.

ولأن ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة، لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة، ونيابة الوزير المشارك له فى التدبير، أصح فى تنفيذ الأمور، من تفرده بها، ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل، وأمنع من الخلل» (٢).

ولأن «السلطان فى نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا؛ فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه، وسائر مهنه، فما ظنك بسياسة نوعه، ومن استراعاه الله من خلقه وعباده» (٣).

---

(١) وقد جمع بعض الشعراء هذه الأوصاف فأوجزها، ووصف بها بعض وزراء الدولة العباسية فقال:

بديهته وفكرته سواء ... إذا اشتبهت على الناس الأمور
وأحزم ما يكون الدهر يومًا ... إذا أعيا المشاور والمشير
وصدر فيه للهم اتساع ... إذا ضاقت من الهم الصدور

الأحكام السلطانية ص١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٠١.

تاريخ الوزارة

الوزارة فارسية الأصل، بل قد عرفت من قبل فى بنى إسرائيل كما هو ظاهر من قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ .

الوزارة فى عهد النبى ﷺ :

إذا كان الغرض من الوزارة المعاونة والمؤازرة، فهى كانت موجودة فى زمن النبى ﷺ ؛ فإنه كان يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول، وأحوالها، فى كسرى، وقيصر، والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره » [1] .

الوزارة فى عهد الخلفاء الراشدين :

كان أبو بكر يستشير الصحابة ويستعين بهم؛ فجعل إلى عمر القضاء وتوزيع الصدقات، كما أسند إلى على الإشراف على أسرى الحرب وشئونهم، وكذلك كان عمر يستشير الصحابة، ويخص عليا، وعثمان ببعض الأمور، ويستعين بهما فى كثير من الشئون، وكان شأن عثمان وعلى ذلك أيضاً .

ومع ذلك فلم يكن للمسلمين وزير متعين المرتبة للوزارة، لبعد الإسلام عن مظاهر الملك .

الوزارة فى عهد الأمويين :

وفى عهد الأمويين صارت الخلافة ملكا يقوم على السياسة والدهاء، واحتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونه، ويستعينون به فى سياسة دولتهم، ومهام أمورهم؛ فاختاروا بعض البارزين من ذوى الرأى والسياسة ليقوموا بمثل هذا الغرض؛ فكانوا يقومون بمهام الوزراء، وإن لم يطلق عليهم هذا اللقب، بل إن ملوكهم كانوا ينكرون ذلك؛ يقول المسعودى: «وكانت ملوك بنى أمية تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزارة، وتقول: الوزير مشتق من الوزارة، والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة» [2] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٤ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤١١ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٢٩٤ .

الوزارة فى عهد العباسيين :

يقول صاحب الفخرى : « والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس؛ فأما ما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية، فإذا حدث أمر استشارى ذوى الحجا، والآراء الصائبة، فكل منهم يجرى مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس، تقررت قوانين الوزارة،وسمى الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » [١] .

ويقول ابن خلدون : « ولما جاءت دولة بنى العباس، واستفحل الملك . وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته فى الدولة وعنت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند؛ فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه » ، ثم جعل له النظر فى المكاتبات لصون أسرار الخليفة، « فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم، وسائر معانى الوزارة والمعاونة، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان فى أيام الرشيد، وذلك إشارة إلى عموم نظره، وقيامه بالدولة . . .) [٢] .

وأول وزير وزر لأول خليفة عباسى، هو حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال مولى بنى الحارث بن كعب؛ استوزره السفاح، وفوض الأمور إليه، وسلم إليه الدواوين[٣]، ولقب وزير آل محمد، وقد ركن الخلفاء العباسيون إلى الوزراء، وسلموا إليهم أمور الدولة، وأشهر وزرائهم البرامكة الذين استفحل أمرهم، واتجه نظر الناس إليهم، حتى اضطر الرشيد إلى الفتك بهم .

وفى أواخر الدولة العباسية تقلص نفوذ الوزراء بتقلص نفوذ الخلفاء، حتى استبد العمال فى الأعمال، واستقلوا بالسلطان؛ فأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى، فأسقطوها، وأبدلوا بها إمرة الأمراء .

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى ص١١١ .
(٢) المقدمة جـ٢ ص٦٠٦،٦٠٧ .
(٣) صبح الأعشى جـ١ ص٩٣ .

أمير الأمراء :

هو لقب منحه الخلفاء العباسيون أمراء الدول الإسلامية الصغرى، التى تفرعت عن الدولة العباسية، فى القرن الرابع الهجرى وما بعده، من بنى حمدان وبنى بويه .

وأول من لقب به ابن رائق الحمدانى، وكان أمير البصرة وواسط، فجعله الراضى أمير الأمراء سنة ٣٢٤ هـ ، وفوض إليه تدبير المملكة . وأمر أن يخطب له على المنابر، وخلع عليه، وأعطاه اللواء . وكانوا يسمونه أيضا ملك بغداد .أو سلطان بغداد .

وما زال هذا اللقب فى بنى بويه إلى سنة ٤٤٩ هـ ؛ فانتقل إلى السلاجقة الأتراك . وأولهم طغرل بك . وكان خلفه ألب أرسلان من أعظم ملوك زمانه، وظل هذا اللقب فى السلاجقة إلى سنة ٥٤٧ هـ ، وسقط بسقوط دولتهم فى بغداد .

الوزارة فى الأندلس :

يقول ابن خلدون : « وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافا، وأفردوا لكل صنف وزيراً؛ فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك، كل فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم؛ فارتفعت خطة الحاجب، ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها، فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب » (١) .

الوزارة فى دولة الترك بالمشرق :

وأما فى دولة الترك بالمشرق فيسمون هذا الذى يقف بالناس على حدود الآداب فى اللقاء، والتحية فى مجالس السلطان، والتقدم بالوفود بين يديه « بالدويدار » (وهو يشبه كبير الأمناء فى زماننا)، ويضيفون إليه استتباع كاتب السر، وأصحاب البريد المتصرفين فى حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة » (٢) .

---

(١) المقدمة جـ٢ ص٦٠٨،٦٠٩ .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٩ .

نوعا الوزارة.

يقول العلامة ابن خلدون: « .... ثم جاء فى الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة، والسلطان أخرى . . »[1] فانقسمت الوزارة حينئذ إلى :

١- وزارة تنفيذ : وهى حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه .

٢- وإلى وزارة تفويض: وهى حال ما يكون الوزير مستبدا عليه[2] .

ووزير التنفيذ وسط بين الإمام، « وبين الرعايا والولاة، يؤدى عنه ما أمر، وينفذ عنه ما ذكر، ويمضى ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وتجدد من حدث ملم، ليعمل فيه ما يؤمر به؛ فهو معين فى تنفيذ الأمور، وليس بوالٍ عليها، ولا متقلد لها؛ فإن شورك فى الرأى كان باسم الوزارة أخص، وإن لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسفارة أشبه »[3] .

ولا يشترط لتعيينه تقليد، أو عقد، أو صيغة معينة، وإنما يكفى فيها مجرد الإذن .

ووزير التفويض هو : من استوزره الإمام، وفوض إليه تدبير الأمور برأيه، وإمضائها على اجتهاده دون الرجوع إليه؛ فالوزير هنا ذو ولاية عامة، وليس مجرد وسيط .

شروط من تقلدها :

يشترط فى تقليد هذه الوزارة ما يشترط فى الإمامة إلا النسب وحده، وهو شرط فيه خلاف فى الإمامة نفسها .

طريقة تعيينه :

لا يكفى هنا مجرد الإذن، بل لا تنعقد إلا بعقد وصيغة معينة؛ فهى ولاية تفتقر

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٧ .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٧ .

(٣) الأحكام السلطانية ص٢١ .

إلى عقد، والعقود لا تصح إلا بالقول الصريح؛ فتكون بلفظ يشتمل على شرطين :

أحدهما : عموم النظر .

والثاني : النيابة .

فإن اقتصر على عموم النظر دون النيابة، فكان بولاية العهد أخص، فلم تنعقد به الوزارة، وإن اقتصر به على النيابة، فقد أبهم ما استنابه فيه من عموم وخصوص، أو تنفيذ وتفويض؛ فلم تنعقد به الوزارة، وإذا جمع بينهما انعقدت .

سلطاته :

كل ما صح من الإمام صح من الوزير إلا ثلاثة أشياء :

١- للإمام أن يعهد بولاية العهد إلى من يرى، وليس ذلك للوزير .

٢- للإمام أن يستعفى الأمة من الإمامة، وليس ذلك للوزير .

٣- للإمام أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام .

وما عدا هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يقتضى جواز فعله، وصحة نفوذه منه .

الفرق بينها وبين الإمامة :

النظر فيها وإن كان على العموم معتبر بشرطين يقع الفرق بهما بين الإمامة والوزارة :

أحدهما : يختص بالوزير وهو مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير . وأنفذه من ولاية وتقليد، لئلا يصير بالاستبداد كالإمام .

والثاني : مختص بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير . وتدبيره الأمور، ليقر منها ما وافق الصواب، ويستدرك ما خالفه؛ لأن تدبير الأمة إليه موكول، وعلى اجتهاده محمول .

تعدد الوزراء :

يجوز للخليفة أن يقلد وزيرى تنفيذ على اجتماع وانفراد .

ولا يجوز له أن يقلد وزيرى تفويض على الاجتماع . لعموم ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين؛ لأنهما ربما تعارضا فى الحل والعقد . والتقليد والعزل، وقد قال الله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

ويجوز له أن يقلد وزيرين : وزير تفويض، ووزير تنفيذ؛ فيكون وزير التفويض مطلق التصرف، ووزير التنفيذ مقصوراً على تنفيذ ما وردت به أوامر الخليفة .

تفويض الخليفة لولاة الأقاليم :

وإذا فوض الخليفة تدبير الأقاليم إلى ولاتها، ووكل النظر فيها إلى المسئولين عليها، جاز لمالك كل إقاليم أن يستوزر، وكان حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة مع الخليفة فى اعتبار الوزارتين وأحكام النظرين (١) .

* * *

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى ص١٨ وما بعدها .

الحجابة

الحجابة فى عهد الخلفاء الراشدين :

الحاجب هو الذى يتولى الإذن للناس فى الدخول على السلطان، وكان الخلفاء الراشدون لا يحجبون أحداً عن أبوابهم؛ فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحداً من المسلمين؛ فكان الفقير والغنى، والضعيف والقوى يجلسون مع الخلفاء، ويكلمونهم فى حوائجهم، ويتحدثون إليهم فى كل ما يريدون .

الحجابة فى الدولة الأموية :

ولما انتقل الأمر إلى بنى أمية، اتخذ معاوية، ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب، بعد حادثة الخوارج التى قتل فيها على كرم الله وجهه؛ وذلك خوفا من أن يصيبهم ما أصابه من الاغتيال، وتلافيا لازدحام الناس على أبوابهم، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة؛ يقول ابن خلدون: « وأما مدافعة ذوى الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه؛ فلما انقلبت الخلافة إلى الملك، وجاءت رسوم السلطان وألقابه، كان أول شيء بدئ به فى الدولة شأن الباب، وسده دون الجمهور، بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر، وعلى، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وغيرهم، مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم، وشغلهم بهم عن المهمات؛ فاتخذوا من يقوم لهم بذلك،وسموه الحاجب » [١] .

وكان الحاجب يشغل منصبا رفيعا فى الدولة؛ فقد « كان مخصوصا فى زمن الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم، ويفتحه لهم على قدَرِه [٢] فى مواقيته » مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم، فهو يشبه منصب (التشريفاتى) فى أيامنا، ومع ذلك فإن الخلفاء ما كانوا يحجبون أبوابهم عن

---

(١) المقدمة جـ٢ ص٦٠٥ .

(٢) قدره بفتح الدال أى على وفق الوقت الذى يقدره ويعينه لهم، ومن هذا قوله تعالى ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ .

كل الناس، ولا فى كل الأوقات، وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له: «قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعى الله، وصاحب البريد، فأمرٌ ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد» (١) .

وكانوا يتخيرون صاحب هذه الخطة من أفضل رجالهم، لأهمية عمله بالنسبة لدولتهم، فنرى عبد الملك بن مروان يوصى أخاه عبد العزيز حين مضى إلى مصر أميراً عليها؛ فيقول له: «.... وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك؛ فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه؛ لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده ..» (٢) .

الحجابة فى الدولة العباسية :

ولما جاءت الدولة العباسية، وقد بلغت من العز والترف ما بلغت، حجبوا العامة عن الخليفة؛ فأصبح لهم حجاب آخر أخص من الأول، وهذا الحجاب الثانى يفضى إلى مجالس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامة، وصار بباب الخليفة داران: دار الخاصة، ودار العامة، يقابل كل فئة فى مكان معين، على ما يراه الحجاب، ثم تطرقوا عند انحطاط دولتهم، ومحاولة الحجر على صاحب الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين (٣) .

وقد علت منزلة الحاجب فى أيامهم بارتقاء الحضارة الإسلامية، فأصبح يستشار فى كثير من مهام الدولة، وغدا له نفوذ فى توجيه سياستها؛ فقد استطاع الفضل بن الربيع أن يوقع بالبرامكة عند الرشيد، كما كان له أثر ظاهر فى إحداث الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون؛ فقد أغرى الأمين على العهد لابنه، وخلع أخيه المأمون من ولاية العهد، بل كثيراً ما كان يستبد بالنفوذ دون الوزير، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة، وممن استبد منهم بالنفوذ محمد بن ياقوت. يقول مسكويه فى كتابه تجارب الأمم: «غلب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور، ونظره فى جباية الأموال، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه، وتفرده بما يعمله الوزراء» (٤) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٥ .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٩٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٨٨،٦٨٩ .

(٤) كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله – ومحمد بن ياقوت كان حاجباً للخليفة القاهر، ثم للخليفة الراضى من بعده – التنبيه للمسعودى ص٣٦٦،٣٢٧ .

الحجابة فى الدولة الأموية بالأندلس :

كانت «الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت فى دولتهم رفيعة غاية، كما تراه فى أخبارهم، كابن حديد وغيره من حجابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبى عامر وأبناؤه كذلك، ولما بدأوا فى مظاهر الملك وأطواره، جاء مَن بعدهم من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونها شرفا لهم، وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب، وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة،وبذى الوزارتين على جمعه لخطتى السيف والقلم» [١] .

الحجابة فى أفريقية ومصر :

«لم يكن فى دول الغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم، للبداوة التى كانت فيهم، وربما يوجد فى دولة العُبيديين بمصر عند استعظامها، وحضارتها، إلا أنه قليل [٢] .

الحجابة فى عهد المماليك :

وفى عهد المماليك لم تقتصر مهمة الحاجب على إدخال الناس على السلطان، بل تجاوزتها إلى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود، ثم اتسعت سلطته تدريجيا، حتى يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقا لأحكام السياسة التى وضعها جنكيزخان [٣] .

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٩ .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦١٠ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ٢ ص٢٢٠، ٢٢١ .

الكتابة

العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة منهم حين ظهور الإسلام إلا قليل، لا يتجاوز بضعة عشر رجلا، من بينهم عمر وعثمان، وعلى، وطلحة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سفيان، وابناه معاوية ويزيد (١) .

وكان عثمان، وعلى، وأبى بن كعب (٢)، وزيد بن ثابت ممن يكتبون للنبى ﷺ القرآن الكريم، والرسائل التى كان يرسلها إلى الملوك والأمراء، وبعضهم كان يكتب له حوائجه (٣) .

ولما تولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة اتخذ عثمان كاتبا له (٤)، يكتب إلى العمال والقواد، وغدت الكتابة منصبا ذا أهمية للدولة .

وحين تولى عمر الخلافة كتب له زيد بن ثابت ثم غيره، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية، ودونت الدواوين، ظهرت الحاجة الماسة للكتابة؛ فعين رضى الله عنه «كاتبا لكل ولاية يكتب فى ديوانها،وكان الكاتب يكتب فى أول الأمر لديوان الجند، وبيت المال؛ فتولى عثمان وعلى (٥) وانقضت دولة الخلفاء، والكتابة منحصرة فى واحد يضبط حساب الديوان من أعطيات الجند وأسمائهم، ويكتب المراسلات، وربما كانا اثنين، ويتولى الثانى كتابة بيت المال» (٦) .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧٧ ، قصة الحضارة للمؤرخ ول .ديورانت جـ٢ ص٢١ من المجلد الرابع .

(٢) قيل إنه أول من كتب للنبى ﷺ – الطبرى جـ٢ ص٤٢ ، فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧٨ ، تاريخ أبى الفداء جـ١ ص١٥٤ .

(٣) راجع التنبيه والإشراف للبلاذرى ص٢٤٥ ففيه بيان لكتاب النبى ﷺ ، وما كان يقوم به كل واحد منهم، وذكر صاحب صبح الأعشى : أنه رأى فى سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبى ﷺ نيف وثلاثون كاتباً جـ١ ص٩٢ .

(٤) هو الذى كتب عهد عمر بالخلافة عن أبى بكر رضى الله عنه – صبح الأعشى جـ١ ص٩٢ .

(٥) اتخذ عثمان رضى الله عنه مروان بن الحكم كاتباً له، كما اتخذ على كرم الله وجهه عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ كاتباً . صبح الأعشى جـ١ ص٩٢، الجهشيارى ص١٢،١٤ .

(٦) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية، وتعددت مصالح الدولة، تعدد الكتاب وصاروا خمسة :

١- كاتب الرسائل، يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم .

٢- كاتب الخراج، يدون حساب الخراج، داخله وخارجه .

٣- كاتب الجند، يقيد أسماء الأجناد، وطبقاتهم، وأعطياتهم، ونفقات الأسلحة وغير ذلك .

٤- كاتب الشرطة، يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد [١] والديات وغيرها .

٥- كاتب القاضى، يكتب الشروط والأحكام .

وأهم هؤلاء الكتاب فى المرتبة وأقدمهم، هو كاتب الرسائل، وقد يسمى كاتب السر، وهو يد الخليفة ومستودع سره . ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولونه إلا أقرباءهم وخاصتهم، كما كان للخلفاء وأمراء الصحابة بالشام والعراق لعظم أماناتهم، وخلوص أسرارهم . وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين .

وفى أيامهم كانت هذه الرتبة رفيعة المنزلة، وكان الكاتب ينفرد بالأمر دون الخليفة؛ فكان يصدر السجلات، ويكتب فى آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السلطان، ثم صارت الكتابة إلى وزرائهم، وكان الوزير يجلس بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص والشكاوى المرفوعة إليه [٢] .

وأول من وقع على الرقاع، والقصص بين يدى الخليفة، جعفر بن يحيى البرمكى، لما أطلق الرشيد يده فى أمور الدولة ومقاليدها، ثم تتابع الوزراء من بعده على ذلك، وقد يوقع السلطان بنفسه على هذه الرقاع إذا كان مستبدا بأمره، قائما على نفسه [٣] .

---

(١) القواد بكسر القاف جمع قود وهو القصاص .

(٢) يقول «ابن خلدون» ج٢ ص٦١٩ : «ومن خطط الكتابة التوقيع؛ وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها، والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه» .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٨، تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

وقد ذخر العصر العباسى الأول بكثير من الكتاب المبرزين، ممن لم يسمح الدهر بمثلهم، مثل الربيع بن يونس فى عهد المنصور، ويحيى بن خالد البرمكى، وابنيه الفضل وجعفر، والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد، والفضل والحسن ابنى سهل، وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون، ومحمد بن عبد الملك الزيات فى عهد المعتصم، وابنه الواثق .

« وفى أخريات دولة بنى العباس استقلت الكتابة، وعهد فيها إلى غير الوزراء، وكانوا ببغداد لهم كتاب الإنشاء، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء ... أو كاتب السر، وكل أمور هذا الديوان إلى الوزير . وكانوا يسمونه أيضا الديوان العزيز، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية فى هذه الأيام » [١] .

ولسمو هذه المرتبة كان صاحبها « لا يتخير إلا من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم . وزيادة العلم وعارضة البلاغة [٢] » . وأحسن من استوعب الصفات والشروط التى يجب أن تتوافر فى أهل صناعة الكتابة، عبد الحميد الكاتب فى رسالته الشهيرة إلى الكتاب، وقد ذكرها بنصها العلامة ابن خلدون [٣] ، ومما جاء فيها قوله : « فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض . ثم العربية؛ فإنها ثقاف [٤] ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم » [٥] .

وكان الكاتب فى الدولة الطولونية يقوم بأعمال الوزير . إذ لم تعرف الوزارة فى مصر قبل الدولة الإخشيدية .

وفى عهد الفاطميين كانت الكتابة تلى الوزارة فى الرتبة؛ ولذا فقد كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن يأنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور، وكان الكاتب يقوم بعمل الوزير إذا رأى الخليفة الاستغناء عنه .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٩ .

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص٦٢٠ – ٦٢٥ .

(٤) ثقاف ككتاب، ما تسوى به الرماح – القاموس .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٢١ .

تدوين الدواوين

الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال [1] .

وهو فارسى معرب [2]، وفى تسميته ديواناً وجهان :

أحدهما : أن كسرى اطلع ذات يوم على كُتَّاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم كأنهم يحادثون؛ فقال : ديوانه [3] (أى مجانين) فسمى موضعهم بذلك، ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الأعمال المتضمن للقوانين والحسبان .

والثانى : أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين . فسمى الكُتَّاب باسمهم لحذقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلى منها والخفى، وجمعهم لما شد وتفرق، ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل : ديوان [4] .

« وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كُتَّاب الرسائل، ومكان جلوسهم بباب السلطان . وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر فى سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر على حسب مصطلح الدولة » [5] .

بدء تدوين الدواوين :

لم يكن على عهد رسول الله ﷺ ، وعهد أبى بكر رضي الله عنه ديوان لإحصاء

---

(١) الأحكام السلطانية ص١٧٥ . وقال ابن الأثير : هو الدفتر الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء – لسان العرب .

(٢) وقيل إنه عربى ومعناه، الأصل الذى يرجع إليه، ويعمل بما فيه، ومنه قول ابن عباس « إذا سألتمونى عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب » صبح الأعشى ج١ ص٩٠ .

(٣) ديوانه أى مجانين بلغة الفرس، وحذفت الهاء من ديوانه تخفيفا لكثرة الاستعمال، فقيل : ديوان . مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٣ .

(٤) الأحكام السلطانية ص١٧٥، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٣ .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٣ .

الأموال وضبط العطاء [١]، فلما كان زمن عمر رضى الله عنه كثر المال، واتسعت البلاد، وكثر الناس؛ فدونت الدواوين لوجود الدواعى؛ فكان رضوان الله عليه أول من وضع الدواوين فى الدولة الإسلامية .

واختلف الناس فى سبب وضعه له؛ فقال قوم :

سببه أن أبا هريرة رضى الله عنه قدم عليه بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به ؟ فقال : خمسمائة ألف درهم؛ فاستكثره عمر؛ فقال له: أتدرى ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات؛ فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أعلم إلا ذاك؛ فصعد عمر المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير؛ فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا؛ فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم، فدون أنت لنا ديواناً .

وقال آخرون: بل سببه أن عمر بعث بعثا، وكان عنده الهرمزان، فقال عمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل، وأخل بمكانه، فمن أين يعلم صاحبك به؛ فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن الديوان حتى فسره له .

وقال جماعة: بل سببه مال أتى به أبو هريرة من البحرين، فاستكثروه، وتعبوا فى قسمه، فسموا إلى إحصاء الأموال، وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان، وقال: رأيت ملوك الشام يدونون، فقبل منه عمر [٢] .

ولعل هذه الرواية الأخيرة أوضح فى سبب التدوين، ويرشحها ما ذكره ابن تيمية إذ يقول: « ولم يكن للأموال المقبوضة والمقسومة ديوان جامع على عهد

---

(١) وجد مبدأ إحصاء الناس وكتابتهم على عهد رسول الله ﷺ ، كما وجد فى عهده صلوات الله عليه كتابة الجند الذين أعدوا للغزو فى سبيل الله؛ فقد أخرج البخارى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ : « اكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل . . . » ، وأخرج أيضا بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى كتبت فى غزوة كذا وكذا، وامرأتى حاجة، قال: ارجع فحج مع امرأتك » وراجعه فى باب كتابة الإمام للناس، وفى باب من اكتتب فى جيش خرجت امرأته حاجة، وفى باب الحج .

وظاهر أن الكتابة التى كانت فى زمن النبى ﷺ لم ترتفع إلى مستوى التدوين الذى حصل فى زمن عمر رضى الله عنه .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦١٤ .

رسول الله ﷺ ، وأبى بكر رضى الله عنه، بل كان يقسم المال شيئا فشيئا؛ فلما كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كثر المال، واتسعت البلاد، وكثر الناس، فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم» (١) ولما استقر رأى عمر على تدوين الديوان دعا عقيل ابن أبى طالب، ومخرمة بن نوفل،وجبير بن مطعم، وكانوا من شباب قريش وكتابها، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم؛ فكتبوهم على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ ، وما بعدها الأقرب فالأقرب، ثم روعى فى التفضيل عند انقراض أهل السوابق، التقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهاد (٢) .

وفرض العطاء للناس جميعا حتى للأطفال فقد أمر رضى الله عنه مناديه «ألا لا تعجلوا أولادكم بالفطام، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام؛ ففرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتى درهم، فإذا بلغ زاده» (٣) .

ومن هذا يتبين أن هذا الديوان كتب بادئ بدء بالعربية، كما أنه كان يضم الجند وأهل الأعطيات حتى الأطفال، وتلك هى الحادثة الأولى فى تاريخ العالم، حيث اضطلعت الحكومة بمسئولية إطعام سكان الدولة وكسوتهم» (٤) .

هكذا كان تدوين الديوان فى ابتداء وضعه، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٠هـ (٥) وقيل كان ذلك سنة ١٥ هـ (٦) .

وبقى ديوان الخراج والجبايات بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل: ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية. وكتاب الدواوين من أهل الذمة من الفريقين (٧) .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص٤٢ ، وراجع الفخرى فى الآداب السلطانية، ص٦٠ ففيه كلام قيم .

(٢) الخراج للإمام أبى يوسف ص١٥،٢٦، الأحكام السلطانية ص١٧٥٥، فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٥٨، الطبرى جـ٣ ص٢٧٨ – ط التجارية، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص٨٨، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٤ .

(٣) الأحكام السلطانية ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق، والإدارة العربية للحسينى ص١١٦ .

(٥) البلاذرى ص٤٥٥، ٤٦٢، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٤ .

(٦) راجع الطبرى جـ٣ ص١٠٨، الفخرى فى الآداب السلطانية ص٦٠، تاريخ أبى الفداء جـ١ ص١٦٠ .

(٧) الأحكام السلطانية ص١٧٨، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٤ .

الدواوين فى عهد الأمويين :

تعددت الدواوين فى عهد الدولة الأموية، وصارت خمسة دواوين رئيسية [(١)] وهى :

١- ديوان الجند . ٢- ديوان الخراج .

٣- ديوان الرسائل . ٤- ديوان الخاتم .

٥- ديوان البريد .

فأما ديوان الجند فهو الذى يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم [(٢)] وكل ما يختص بهم؛ فهو يشبه ديوان وزارة الحربية . وهذا الديوان منذ وضع كان بالعربية .

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل وخرج؛ فهو يشبه ديوان وزارة المالية .

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال، والإشراف على ما يرد منهم من رسائل فى الإمارات المختلفة، وكان بالعربية طبعا .

وديوان الخاتم، هو الديوان الذى كان يقوم بأنظمة الدولة، وهو ديوان «به نواب؛ فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان، وأثبتت نسخته فيه، وخزم بخيط، وختم بشمع [(٣)]»، وختم بختم ذلك الديوان، وهو يشبه قلم (الأرشيف) أو السجلات .

---

(١) كان هناك إلى جانب هذه الدواوين الرئيسية دواوين أخرى أقل أهمية، منها: ديوان المستغلات أى ما يجبى لبيت المال من أسواق، أو منازل، أو طواحين ابتناها الناس فى أرض الدولة فيؤدون عنها خرجا - راجع ابن حوقل، وقد أنشئ فى مصر ديوان للأوقاف والأحباس فى سنة ١١٨ هـ فى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمى، وكانت الأحباس قبله فى أيدى أهلها، وفى أيدى أوصيائهم، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيما - القضاء فى مصر للأستاذ عطية مشرفة ص١٧٢، ١٧٣ .

(٢) العطاء يجمع على أعطية (بفتح الهمزه) وجمع الجمع أعطيات - لسان العرب .

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٧٩ .

وكان الذى حمل معاوية على اختراع هذا الديوان، أنه أحال عمر بن الزبير على زياد ابن أبيه أمير العراق بمائة ألف درهم؛ فمضى عمر، وقرأ الكتاب، وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة فجعل المائة مائتين؛ فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر عليه ذلك وقال: ما أحلته إلا بمائة ألف، وطلب بها عمر، وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله، واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وولاه عبيد الله بن أوس الغسانى؛ فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدرى أحد ما فيها، ولا يتمكن أحد من تغييرها [1] .

وكان ديوان الخاتم من أكبر الدواوين منذ أن أنشأه معاوية إلى أواسط دولة بنى العباس؛ فأسقط لتحول الأعمال إلى الوزراء والسلاطين [2] .

على أن ختم الرسائل كان معروفاً فى زمن النبى ﷺ، فقد ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، ونقش فيه «محمد رسول الله» وتختم به أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم سقط من يده فى بئر أريس [3] .

وكان لديوان البريد أهمية عظمى للدولة كما سيتبين فيما بعد .

تعريب الدواوين :

«لما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر، ملكا، وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان؛ فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم ابتدائه»، وأتى به إلى

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٧٩، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٤٥، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٣٤ .

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٧٩ .

(٣) الطبرى جـ٣ ص٢٧٧، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٤٣، وعمر رضى الله عنه هو أول من ختم بالطين كما فى الطبرى جـ٣ ص٧٧، وكان هذا الطين صبغه أحمر، وكان فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم، وكان يجلب من سيراف فيظهر أنه كان مخصوصاً بها . مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٤٥ .

عبد الملك فدعا سرجون كاتبه، فعرضه عليه فغمه، وخرج كئيباً، فلقيه قوم من كتاب الروم، فقال لهم: «اطلبوا المعيشة فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم» ، وكان ذلك سنة ٨١ هـ (١) .

وأما ديوان العراق فإن الحجاج أمر كاتبه صالح بن عبد الرحمن - وكان يكتب بالعربية والفارسية (٢) - أن ينقله إلى العربية ففعل، وكان ذلك سنة ٧٨هـ، فشق الأمر على الفرس وبذلوا له مائة ألف درهم على أن لا يظهر النقل، فأبى عليهم،؛ فرغم لذلك كتابهم، وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول: لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب . ثم جعلت هذه الوظيفة فى دولة بنى العباس مضافة إلى الوزير الذى كان له النظر فيه، كما كان شأن بنى برمك، وبنى سهل بن توبخت، وغيرهم من وزراء الدولة (٣) .

وأما ديوان مصر فقد نقل إلى العربية سنة ٨٧هـ . فى إمارة عبد الله بن عبدالملك على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فصرف عبد الله انتناش (القبطى) وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص (٤) .

« وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين: السياسية والأدبية، فمن الناحية السياسية أصبحت لغة الدواوين هى اللغة العربية، مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين العرب . ومن الناحية الأدبية أصبحت اللغة العربية لغة التدوين؛ فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت (٥) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٥، الأحكام السلطانية للماوردى ص١٧٩ .

(٢) لقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله، ولما قتل زادان فى حرب عبد الله بن الأشعث استخلف الحجاج صالحاً هذا مكانه - الأحكام السلطانية للماوردى ص١٧٨، ١٧٩، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦١٥ .

(٣) الأحكام السلطانية ص١٧٧، ١٧٨ ومقدمة ابن خلدون جـ٥ ص٦١٥ .

(٤) الخطط للمقريزى جـ١ ص٩٨ ط الأميرية .

(٥) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

الدواوين فى العهد العباسى

بلغت الدولة العباسية شأواً عظيما من الحضارة،وتعددت مصالحها؛ فاستحدث خلفاؤها الكثير من الدواوين التى لم تكن موجودة من قبل، ولكن استدعتها حاجة الدولة وتطورها . كما توسعوا فيما كان موجوداً، وكان من أهم هذه الدواوين التى استحدثوها أو توسعوا فيها :

١- ديوان الزمام . ٢- ديوان الأكرية .

٣- ديوان الأحداث والشرطة . ٤- ديوان البريد .

وديوان الزمام هو أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان، وهو من أعظم النظم التى أدخلها الخليفة المهدى، وهو يشبه ديوان المحاسبة اليوم .

وديوان الأكرية كان يشرف على القنوات، والترع، والجسور، وشئون الرى، فهو يشبه وزارة الأشغال فى زماننا .

وديوان الأحداث والشرطة، كان عمله خاصًا بالأحداث الى تقع فى الدولة، وواجب الشرطة نحو هذه الأحداث؛ فهو قريب الشبه من وزارة الداخلية فى أيامنا .

وكان ديوان البريد من الدواوين الهامة فى بغداد كما سيتبين فيما بعد .

كذلك كانت هناك إدارات خاصة للمحافظة على مصالح غير المسلمين، ويدعى رئيسها كاتب الجهباز .

ومن ثم يتبين أن النظام الإدارى فى أيام العباسيين من حيث توزيعه للعمل يعادل إلى حد كبير النظم الحديثة [1] .

* * *

---

(١) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

القضـــاء

القضاء هو الفصل بين الناس فى خصوماتهم حسما للتداعى، وقطعا للتنازع[1].

القضاء فى عهد النبى ﷺ :

ذكرنا فيما سبق أن النبى ﷺ لما استقر به المقام فى المدينة عقد عهداً بين المهاجرين وأهل المدينة من المسلمين واليهود، كان مما جاء فيه : «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ»[2].

ومن ثم أصبح النبى ﷺ هو القاضى الذى يفصل بين أهل المدينة المسلمين منهم واليهود، ويقضى فيما يكون بينهم من حدث أو اشتجار .

ومع ذلك فإن المسلمين بحكم إيمانهم، كانوا يتجهون إلى النبى ﷺ فيما يحدث بينهم؛ فقد كان من أمارات الإيمان الكامل، تحكيم النبى ﷺ فيما يشجر بينهم . قال تعالى :﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ .

ولم يكن فى زمنه ﷺ قاض سواه، لقلة عدد المتقاضين ؛ فقد أزال الإسلام ما كان بينهم من الشحناء والبغضاء، وألف بين قلوبهم، وجعلهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان به خصاصة .

ولم يؤثر عنه ﷺ أنه خصص رجلا بالقضاء ولكن كان يعهد به إلى بعض ولاة الأقاليم فى ضمن توليتهم أمور الولاية، وأحياناً كان يعهد إلى بعض أصحابه بفض بعض الخصومات .

كان يحكم بينهم بما أنزل الله امتثالا لقوله جل شأنه : ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾ . وكان المتخاصمان يحضران إليه بمحض اختيارهم، إذ إن الكثير من الخصومات لم تكن نزاعا حقيقيا، وإنما كانت صورة من صور السؤال والاستفتاء .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٦ .

وكانت أهم طرق الإثبات فى زمنه ﷺ هى : البينة واليمين والكتابة .

القضاء فى عهد الخلفاء الراشدين :

ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة [(١)] أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب، فظل سنة [(٢)] ، وقيل سنتين لا يختلف إليه أحد، ولا يأتيه متخاصمان لم بينا، ولما عرف عنه من الحزم والشدة فى الحق، على أنه لم يلقب بلقب قاض مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه .

وفى عهد عمر لما انتشر الإسلام، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واختلط المسلمون بغيرهم، وكثرت مهام الخليفة، استدعى ذلك تولية قضاة مستقلين عن الأمراء، ينوبون عن الخليفة فى الفصل بين الناس فى الخصومات؛ فولى أبا الدرداء معه قضاء المدينة، وولى شريحا قضاء الكوفة، وولى أبا موسى الأشعرى قضاء البصرة، وولى قيس بنْ أبى العاص قضاء مصر [(٣)]؛ فكان رضى الله عنه أول من ولى قضاة مستقلين فى الولايات الإسلامية وفوضهم فيه [(٤)] .

سن عمر رضوان الله عليه للقضاة دستوراً يسيرون على هديه فى أحكامهم، وأرسله إلى أبى موسى الأشعرى، وإلى غيره من القضاة، وهذا نصه [(٥)] .

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن

---

(١) كان الفصل بين الناس فى خصوماتهم بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا فى عمومها – ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص٢٥٤ .

(٣) اختلف المؤرخون فى أول من ولى القضاء فى مصر، كما اختلفوا فى أن تولية القضاء كانت من الخليفة، أو من والى مصر، ولكن أهمية القضاء فى ذلك الوقت ترجح أن الخليفة نفسه هو الذى ولى قاضى مصر، والذى يظهر من كلام بعض المؤرخين أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن يولى القضاء كعب بن يسار، ثم عزله إجابة لرغبته، وولى مكانه قيس بن أبى العاص – راجع كتاب القضاء فى الإسلام للأستاذ عطية مشرفة .

(٤) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ .

(٥) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص١١٦ ، العقد الفريد جـ١ ص١٠٠ ط لجنة التأليف، الأحكام السلطانية للماوردى ص٥٩، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ – ٥٧٠ ، الكامل للمبرد جـ١ ص٧،٨ ط التقدم سنة ١٣٢٣ ، إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى على هامش الإتقان للسيوطى جـ١ ص١٨٧ ، البيان والتبيين للجاحظ جـ٢ ص٢٣، المبسوط للسرخسى جـ١٦ص٦٠،=

قيس [١]، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس [٢] بين الناس فى وجهك، وعدلك، ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك [٣]، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين . إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج [٤] فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور بنظائرها، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائباً أو بينة أمدا ينتهى إليه؛ فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أوظنينا [٥] فى ولاء أو نسب؛ فإن الله عز وجل تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات [٦] والأيمان، وإياك والغلق [٧] والضجر، والتأذى بالخصوم، والتنكر عند الخصومات؛ فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته، وأقبل على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق [٨] للناس بما يعلم الله أنه ليس

= أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية جـ١ ص٩٩، ١٠٠ وما بعدهما، ومن أحسن ما كتب فى ذلك أيضا ما كتبه على بن أبى طالب إلى الأشتر وهو أطول عهد وأجمع كتبه للمحاسن، راجع نصه فى نهج البلاغة جـ٣ من ص٩٢ - ١٢٢، وإن كان المرحوم الشيخ النجار فى كتابه تاريخ الإسلام ص٤٨٨ شك فى نسبته لعلى، وكذلك شك الأستاذ مصطفى مشرفة فى كتابه القضاء فى الإسلام ص١١١ .

(١) هو اسم أبى موسى الأشعرى .

(٢) آس بين الناس أى سو بينهم، واجعل بعضهم أسوة بعض .

(٣) حتى لا يطمع شريف فى حيفك أى فى ميلك معه لشرفه .

(٤) تلجلج : تردد .

(٥) أو ظنين فى ولاء أو نسب فهو المتهم، تقول: ظننت بزيد، وظننت زيداً أى اتهمت .

(٦) ودرأ بالبينات والأيمان أى دفع التهمة بالبينة أو اليمين .

(٧) وإياك والغلق والضجر: يعنى ضيق الصدر وقلة الصبر .

(٨) من تخلق للناس: أظهر لهم فى خلقه خلاف نيته .

من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب [١] الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

وهذا الكتاب يعتبر إلى وقتنا هذا من أسس القضاء، ومن أهم نظمه وأصوله؛ فقد جمع فيه عمر رضى الله عنه جمل الأحكام، وجعل الناس بعده يتخذونه إماما، ولا يجد محق عنه معدلا، ولا ظالم عن حدوده محيصاً [٢] .

كان القضاء فى زمن الخلفاء مستقلا ذا منزلة رفيعة، وكان القضاة يولون من قبل الخليفة، أو الوالى، إن كانت ولايته عامة، بأن كانت إليه ولاية الصلاة والخراج وإمارة الجند، والشرط والقضاء، وكان يراعى فى اختيار القضاة الصفات التى تحقق العدالة والمساواة؛ من العلم، والتقوى، والعدل، والعفة وما يتصل بذلك [٣] .

ولم يكن للقاضى كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام؛ لأن الأمر لم يكن يدعو إلى شىء من ذلك؛ فالقاضى هو الذى يقضى، وهو الذى ينفذ، وقلما كان المتقاضون يحتاجون إلى التنفيذ؛ لأنهم كانوا إلى الاستفتاء أقرب منهم إلى التقاضى؛ فالمنازعات كانت تجرى بينهم فى أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء [٤] .

وكان القاضى يجلس للحكم فى منزله، ثم أصبح يعقد جلساته فى المسجد بعد ذلك .

ولم يكن فى زمنه ﷺ ولا فى زمن أبى بكر، وعمر، وعثمان سجن [٥] بالمعنى المعروف، فلما كان زمن على كرم الله وجهه بنى السجن، وهو أول من بناه فى

---

(١) ثواب : ما يثوب إليك من مكافأة الله وفضله من ثاب يثوب إذا رجع ـ الكامل للمبرد جـ١ ص٩ ط التقدم العلمية : وقال صاحب أعلام الموقعين : « وهذا الكتاب الجليل تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والحاكم والمفتى أحوج شىء إليه، وإلى تأمله والتفقه فيه » جـ١ ص١٠٠ .

(٢) الكامل للمبرد جـ١ ص٧ .

(٣) الأحكام السلطانية ص٥٣، ٥٤ وراجع كتاب القضاء الإسلامى للأستاذ مصطفى مشرفه، ففيه فوائد ذات بال عن ميزات القضاء فى عهد الخلفاء، ومدى اختصاص القضاة وغير ذلك .

(٤) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٦٤ .

(٥) كان هناك حبس فى زمن عمر رضى الله عنه؛ فقد حبس الحطيئة باستدعاء الزبرقان عليه فى قصة ذكرها المبرد فى الكامل جـ١ ص٢٨٦ .

الإسلام، وفى ذلك يقول :

ألا ترانى كـيـسـا مكيـسـا بنيت بعـد نافع مـخـيـسـا [1]

القضاء فى عهد الأمويين :

تميز القضاء فى العهد الأموى، بميزتين :

الأولى: أن القاضى كان يحكم باجتهاده فيما ليس فيه نص من كتاب ولا سنة؛ إذ لم تكن المذاهب الأربعة المعروفة، والتى تقيد بها القضاة فيما بعد قد ظهرت .

والثانية : أن القضاء لم يكن متأثرا بالسياسة؛ فقد كان القضاة مستقلين فى أحكامهم، لا تأخذهم فى الحق لومة لائم، ولا يتأثرون بميول الحاكمين، وكان قضاؤهم نافذا على الولاة وعمال الخراج .

القضاء فى العصر العباسى :

تطور نظام القضاء فى العهد العباسى تطوراً كبيراً، ومن أهم مظاهر هذا التطور:

١- ضعف روح الاجتهاد فى الأحكام، لظهور المذاهب الأربعة التى سادت العالم الإسلامى، وأصبح القاضى يحكم وفقاً لمذهب من هذه المذاهب، وكان القاضى فى العراق يحكم بمذهب أبى حنيفة، وفى مصر بمذهب الشافعى، وفى الشام والمغرب بمذهب مالك [2] .

٢- تأثر القضاء بالسياسة؛ لأن الخلفاء العباسيين كانوا يريدون أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية، فعملوا على استمالة القضاة للسير وفق سياستهم، فى الحكم، مما أدى إلى امتناع بعض الفقهاء عن تولى القضاء خشية الميل فى قضائهم والحكم بما يخالف الشريعة؛ فهذا أبو حنيفة يمتنع عن تولى القضاء، ويعتذر للخليفة المنصور، ويقول له: «اتق الله ولا ترع فى أمانتك إلا من يخالف الله، والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب» .

٣- استحداث نظام قاضى القضاة، وهو يشبه وزير العدل اليوم، وكان يقيم فى حاضرة الدولة، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأمصار والأقاليم، وأول من لقب

---

(١) فتح القدير جـ٥ ص ٤٧١، حاشية أبى السعود على منلامسكين جـ٣ ص٢٩ .

(٢) كان ذلك تبعاً لانتشار هذه المذاهب فى الأقاليم الإسلامية، ثم ساد مذهب أبى حنيفة فى الدولة العثمانية، واستتبع ذلك أن جرى عليه القضاء فى مصر، وإلى وقتنا هذا مازال العمل فى قضاء الأحوال الشخصية على مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

بهذا اللقب، القاضى أبو يوسف صاحب أبى حنيفة، وكان الخليفة الرشيد يجله ويكرمه؛ فدعاه قاضى القضاة، وكان أبو سيف جليلا عالى الهمة، وهو الذى ميز العلماء بلباس خاص بهم، وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس (١) .

٤- اتساع سلطة القاضى، فأضيف إليه استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين كالنظر فى أموال اليتامى والمحجور عليهم، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم، وفى مصالح الطرقات والأبنية، وقد تضاف إليه الشرطة، والمظالم، والحسبة .

وكانوا إذا ولوا القاضى جاءوا به إلى الجامع، واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر بذلك، وتوسع بعض الخلفاء، فجعلوا للقضاة قيادة الصوائف (٢) ، وممن تولى الصائفة يحيى بن أكثم؛ فقد كان يخرج فى أيام الخليفة المأمون بالصائفة إلى أرض الروم، وقد تضاف إليه الوزارة، وأول من جمع بينهما أبو محمد البازورى سنة ٤٤١هـ، ثم أضيفت إلى غيره من بعده (٣) .

ومن ثم ندرك أن منصب القضاء كانت له هيمنة على كثير من مهام الدولة، وكان صاحبه يتمتع بنفوذ كبير، على أنه لم يكن كذلك فى كل العصور، وإنما كان ذلك يختلف باختلاف الأحوال فى الدول الإسلامية .

قاضى المظالم

«نظر المظالم هو قود(٤) المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة؛ فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع؛ لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة، وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين» (٥)؛ فهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان ص٢٤٥، وهذه الوظيفة كانت قائمة فى مصر إلى عهد قريب، وكان يطلق على صاحبها قاضى قضاة مصر والسودان .

(٢) الصائفة: الغزوة فى الصيف، وكانت عادتهم أن يغزوا الروم فى الصيف .

(٣) راجع ابن خلدون جـ٢ ص٥٦٧ وما بعدها . وتاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

(٤) القود (بسكون الواو) نقيض السوق، يقود الدابة من أمامها ويسوقها من خلفها .. وقاد البعير واقتاده معناه جره خلفه – لسان العرب .

(٥) الأحكام السلطانية ص ٦٤ .

والنظر فى المظالم خطة قديمة؛ فقد «كان ملوك الفرس يرون ذلك من قواعد الملك، وقوانين العدل الذى لا يعم الصلاح إلا بمراعاته، ولا يتم التناصف إلا بمباشرته».

«وكانت قريش فى الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء، وانتشرت فيهم الرياسة، وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنه سلطان قاهر، عقدوا حلفاً على رد المظالم، وإنصاف المظلوم من الظالم» كما قدمنا [1].

وقد نظر النبى ﷺ المظالم فى الشرب الذى تنازعه الزبير بن العوام رضى الله عنه ورجل من الأنصار، فقد روى أصحاب السنن : «أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبى ﷺ فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل، فقال الأنصارى: سرح الماء يمر؛ فأبى عليه؛ فاختصما عند النبى ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصارى فقال: أن كان ابن عمتك ! فتلون وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال، : اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر» [2].

ولم ينتدب[3] للمظالم من الخلفاء الراشدين إلا فى القليل النادر، لأنهم فى الصدر الأول مع ظهور الدين عليهم، بين من يقوده التناصف إلى الحق، أو يزجره الوعظ عن الظلم، وإنما كانت المنازعات تجرى بينهم فى أمور مشتبهة، يوضحها حكم القضاء، فإن تجور من جفاة أعرابهم متجور ثناه الوعظ أن يدبر، وقاده العنف أن يحسن، فاقتصر خلفاء السلف على فصل التشاجر بينهم بالحكم، والقضاء تعييناً للحق فى جهته لانقيادهم إلى إلزامه، واحتاج على رضي الله عنه حين تأخرت إمامته،

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٩٠-٩٢، الأحكام السلطانية للماوردى ص٦٤،٦٥ وقد ذكر السبب فى هذا الحلف بالتفصيل كما ذكره بشيء من التفصيل أيضاً فى الروض الأنف على سيرة ابن هشام .

(٢) أخرجه البخارى فى الشرب، وفى الصلح، وفى تفسير سورة النساء، وأخرجه مسلم فى فضائل النبى ﷺ، وأخرجه أبو داود فى القضايا، وأخرجه الترمذى فى الأحكام، وفى التفسير، وأخرجه النسائى فى القضاء، وفى التفسير، وأخرجه ابن ماجه فى السنة وفى الأحكام، واللفظ للبخارى، وراجع الخراج لأبى يوسف ص٥٨ ط الأميرية، والأحكام السلطانية للماوردى ص٦٤، والمغنى لابن قدامة الحنبلى جـ ٥ ص٥٣١ . والشرج مسيل الماء من الحرة إلى السهل والجمع شراج وشروج، والحرة أرض ذات حجارة نخرة سود، والجدر الحائط كالجدار - القاموس .

(٣) ندبه لأمر فانتدب له أى دعاه له فأجاب - لسان العرب .

واختلط الناس فيها، وتجوروا إلى فضل صرامة فى السياسة، وزيادة تيقظ فى الوصول إلى غوامض الأحكام، فكان أول من سلك هذه الطريقة واستقل بها، ولم يخرج فيها إلى نظر المظالم المحض لاستغنائه عنه (١) .

ثم انتشر الأمر بعده حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم يكفهم زواجر العظة عن التمانع والتجاذب، فاحتاجوا فى ردع المتغلبين، وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذى يمتزج به قوة السلطنة بنصفة القضاء، فكان أول من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين، من غير مباشرة للنظر، عبد الملك بن مروان؛ فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبى إدريس الأودى (٢) ، فنفذ فيه أحكامه لرهبة التجارب من عبد الملك بن مروان فى علمه بالحال، ووقوفه على السبب، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر .

ثم زاد من جور الولاة، وظلم العتاة ما لم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدى، وأنفذ الأوامر؛ فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها، وراعى السنن العادلة وأعادها، ورد مظالم بنى أمية على أهلها . . .

« ثم جلس لها من خلفاء بنى العباس جماعة؛ فكان أول من جلس لها المهدى، ثم الهادى، ثم الرشيد، ثم المأمون، فآخر من جلس لها المهتدى حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها (٣) .

هكذا كان الخلفاء يسمعون ظلامات الناس، وينصفونهم، ومن أمثلة ما ردوه من مظالم .

---

(١) الأحكام السلطانية ص٦٥ ومن الطرق التى عمد إليها على كرم الله وجهه للوصول إلى غوامض الأحكام أنه كان يفرق بين الشهود كما فعل مع شهود المرأة التى رمت غيرها بالزنى، مما أدى إلى اعترافهم بأنها بريئة، وأنها إنما رمتها وهى يتيمة عند زوجها بعد أن أخذت عذرتها مخافة أن يتزوجها زوجها عليها لجمالها – الطرق الحكمية لابن القيم ص ٦٠ وذلك هو المتبع الآن فى القوانين الحديثة .

(٢) الأودى بفتح الألف وسكون الواو وفى آخرها دال مهملة نسبة إلى أود بن صعب بن سعد العشيرة من مذحج – اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير جـ١ ص٧٤، الأنساب للسمعانى .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص٦٤ و ٦٥، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٥٧١ .

١- ما حكى من أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة، فصادفه رجل من اليمن متظلماً فقال :

تدعون حيران مظلوماً ببابكم فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

فقال : ما ظلامتك؟ فقال : غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي، فقال يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي؛ فوجد فيه أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان فقال : أخرجها من الدفتر، وليكتب برد ضيعته إليه، ويطلق له ضعف نفقته [١] .

٢- كان الخليفة المأمون يجلس للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذات يوم من مجلس نظره، فلقيته امرأة في ثياب رثة، فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد الملك أرملة عدى عليها، فما تقوى به أسد
فابتز منها ضياعاً بعد منعتها لما تفرق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون يسيراً ثم رفع رأسه وقال :

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد وأقرح القلب هذا الحزن والكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي وأحضرى الخصم في اليوم الذى أعد
المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت، وحضرت يوم الأحد في أول الناس؛ فقال لها المأمون : من خصمك؟ فقالت : القائم على رأسك، العباس ابن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم : أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه، ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجابه، فقال له المأمون : دعها فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، وأمر برد ضياعها عليها [٢] .

على أنه «ربما كانوا يجعلونها لقضاتهم، كما فعل عمر رضى الله عنه مع قاضيه أبى إدريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبى داؤد» [٣] .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦٩ . (٢) الأحكام السلطانية ص ٧١ .
(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٧١ .

وفى مصر كان أول من جلس للنظر فى المظالم أحمد بن طولون، ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم .

« وإذا نظر فى المظالم من انتدب لها جعل لنظره يوما معروفا يقصده فيه المتظلمون، ويراجعه فيه المتنازعون، ليكون ما سواه من الأيام هو موكول إليه من السياسة والتدبير، إلا أن يكون من عمال المظالم المنفردين لها، فيكون مندوبا للنظر فى جميع الأيام » [1] .ويستكمل مجلس نظره بحضور خمس جماعات لا يستغنى عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم وهم :

١- الحماة والأعوان، لجذب القوى وتقويم الجرىء .

٢- القضاة والحكام، لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق .

٣- الفقهاء ليرجع إليهم فيما أشكل، ويسألهم فيما اشتبه وأعضل .

٤- الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم، وما توجه لهم أو عليهم من الحقوق .

٥- الشهود ليشهدهم على ما أوجبه من حق، وأمضاه من حكم .

وكان اختصاص من ينظر فى المظالم واسعاً يشمل :

١- النظر فى تعدى الولاة على الرعية، وأخذهم بالعسف فى السيرة .

٢- جور العمال فيما يجبونه من الأموال .

٣- كتاب الدواوين؛ فيتصفح أحوال ما وكل إليهم؛ فإن عدلوا بحق من دخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان أعاده إلى قوانينه .

٤- تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم، أو تأخرها عنهم وإجحاف النظر بهم .

٥- رد الغصوب سواء أكانت سلطانية تغلب عليها ولاة الجور، أو كانت مما تغلب عليها ذوى الأيدى القوية .

٦- مشارفة الوقوف فيتصفحها ليجريها على سبيلها، ويمضيها على شروط واقفها إذا عوفها .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٦٦ .

٧- إمضاء ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه؛ لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره .

٨- النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة فى المصالح العامة، كالتعدى فى طريق عجز من منعه .

٩- مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع، والأعياد، والحج، والجهاد من تقصير فيها وإخلال بشروطها .

١٠- النظر بين المتشاجرين، والحكم بين المتنازعين، فلا يخرج فى النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه، ولا يسوغ أن يحكم بينهم إلا بما يحكم به الحكام والقضاة[١] .

وقد ذكر صاحب الأحكام السلطانية الفرق بين نظر المظالم، ونظر القضاة بما يوضح مدى سلطة قاضى المظالم واتساعها، وما كان يتمتع به من نفوذ وهيبة[٢] .

ولما أفضت الحكومة فى مصر إلى السلاطين الأيوبيين بنوا داراً للنظر فى المظالم سموها « دار العدل » وكان قد سبقهم إلى بناء مثل هذه الدار فى دمشق الملك العادل نور الدين زنكى، وهو أول من بنى « دار العدل » من الملوك [٣] .

ومن هذا نتبين أن قضاء المظالم كان أشد وقعاً، وأسرع نفاذاً، وأوسع مدى؛ وأن اختصاصه يشمل القضاء العالى ومجلس الدولة فى زماننا .

كما نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة، وما كان لصاحبها من السلطة، ونفاذ الكلمة، وعلى ما كان عليه النظام القضائى من الدقة، وهو نظام لا يقل كثيراً عن مثيله فى الوقت الحاضر مع أنه قد ساد منذ نيف وعشرة قرون .

* * *

---

(١) المصدر السابق ص٦٩ ، ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩ ، ٧٠ ، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ١٧٥ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ٢ ص٢٠٨ .

الحسبة [1]

الحسبة هى أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله؛ فهى وظيفة دينية؛ لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له؛ فيتعين فرضه عليه، بحكم الولاية، وإن كان على غيره من فروض الكفاية [2] ، قال تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤]

ولما لهذه الوظيفة من جليل الأثر وصف الله بها هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم التى أخرجت للناس؛ فقال جل شأنه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وكانت سلطة القاضى – على ما هومعروف عن القضاء اليوم – موزعة بينه، وبين المحتسب، وقاضى المظالم؛ فوظيفة القاضى هى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب هى النظر فيما يتعلق بالنظام العام، وفى الجنايات أحياناً، ومن أهم ما يقوم به قاضى المظالم، الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب [3] .

---

(١) الحسبة لغة اسم من الاحتساب وهو ادخار الأجر والثواب عند الله تعالى، وفى الحديث : « من صام رمضان إيماناً واحتسابا ... » أى طلبا لوجه الله وثوابه .. وفى حديث عمر: « أيها الناس احتسبوا أعمالكم؛ فإن من احتسب عمله كتب له أجر عمله، وأجر حسبته » .. وإنما قيل لمن ينوى بعمله وجه الله احتسبه « لأن له حينئذ أن يعتد عمله .. » لسان العرب .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٥٧٦ ، وهذا هو حكمها؛ فقد اتفق العلماء على أنها من فروض الكفاية، إذا قام بها البعض سقط الطلب عن الباقين، كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ... ﴾ الآية أى من بعضكم، وهى فرض عين على القائم بأمور المسلمين، ولكن لكثرة مهامه ومشاغله، له أن يعين لها من يراه أهلا .

(٣) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

وقد يسند القضاء والحسبة إلى رجل واحد مع ما بين الوظيفتين من اختلاف؛ إذ إن القضاء موضوع للمناصفة؛ فهو يتطلب الأناة والوقار، والحسبة موضوعة للرهبة، فهى تتطلب السلاطة والغلظة والصرامة (١) .

نشأة الحسبة:

« نشأت الحسبة فى عهد رسول الله ﷺ ، استجابة لحكم الآية الكريمة ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقد تولى رسول الله ﷺ الحسبة بنفسه، وقلدها غيره، واتبعها من بعده الخلفاء، ثم صارت ولاية من ولايات الإسلام، ونظاماً من أنظمة الحكم التى جرى عليها الولاة والحكام » (٢) .

ومما يدل على أن النبى ﷺ قد تولاها بنفسه، ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال : « ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منى » (٣) .

لم يقصر النبى صلوات الله عليه الحسبة على نفسه، بل أشرك غيره فى القيام بها؛ فقد استعمل صلوات الله عليه سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح، على سوق مكة .

وسار عمر رضى الله عنه فى القيام بالحسبة على نهج رسول الله ﷺ ؛ فقد روى أنه رؤى مرة يضرب جمّالا ويقول له: « حملت جملك ما لا يطيق » .

كما روى أنه حرق بيت رويشد الثقفى لأنه كان يبيع الخمر وقال له: « أنت فويسق ولست برويشد » (٤) .

كما استعمل السائب بن يزيد على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة بن مسعود، وكذلك استعمل النساء فى القيام بهذه الوظيفة أيضاً، فولى السيدة الشفاء

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢١٠ .

(٢) الحسبة فى الإسلام للأستاذ إبراهيم الشهاوى ص ١٠٣ .

(٣) صحيح مسلم جـ١ ص٩٩ ، باب ٤٣ ، وراجع نيل الأوطار جـ٥ ص ١٨٠ ط. الحلبى، وفيه أنه رواه الجماعة إلا البخارى والنسائى .

(٤) الطرق الحكمية لابن القيم الجوزية ص٢٤٧ ، ٢٥٨ .

على سوق المدينة، وكانت لها عنده منزلة كبيرة، حتى إنه كان يقدمها فى الرأى، وتولت السيدة سمراء بنت نهيك الأسدية هذا المنصب أيضاً، وقد أدركت رسول الله ﷺ وعمرت طويلا، وكانت تمر فى الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس على ذلك بسوط معها (١) .

شروط المحتسب :

ومن شروط والى الحسبة، أن يكون حرا، عدلا، ذا رأى، وصرامة، وخشونة فى الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة (٢) ؛ لذا كان لا يتولاها إلا رجل وجيه فى دينه، وجيه فى دنياه، وله أن يتخذ الأعوان الذين ينوبون عنه فى المدن والأعمال، ويطوفون على أرباب الحرف والمعايش، فى الأسواق والطرقات، يفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة، وما إلى ذلك (٣) .

وكانت للحسبة دار خاصة بها، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم؛ فيعايرها، فإن وجد فيها خللا صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها، أو أمره بإصلاحها، وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية (٤) .

عمل المحتسب واختصاصه

يقول ابن خلدون : إن المحتسب «يبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة مثل المنع من المضايقة فى الطرقات، ومنع الحمالين، وأهل السفن من الإكثار فى الحمل، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط، بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب، وغيرها فى الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين» .

ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق

---

(١) القضاء فى الإسلام للأستاذ مصطفى مشرفه ص١٨٧ ، ١٨٨ .
(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٠٩ .
(٣) الخطط للمقريزى جـ١ ص ٤٦٣ .
(٤) الأحكام السلطانية ص ٢٢٠ ، الخطط للمقريزى جـ١ ص١١٠ ، ٤٦٤ .

بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها، وفى المكاييل والموازين، وله أيضا حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك، مما ليس له سماع بينة، ولا إنفاذ حكم، (١) .

ومن الواضح أن ابن خلدون لم يستوعب فيما ذكره كل اختصاصات المحتسب، ولما كانت اختصاصاته – أصالة – هى: الأمر بكل معروف ظهر تركه، والنهى عن كل منكر ظهر فعله، وكانت الحقوق المقررة فى الشريعة ترجع إلى حقوق الله، أو إلى حقوق العباد، أو إلى حقوق مشتركة بين الله والعباد – أمكن أن نحصر اختصاصات المحتسب في أمرين :

الأول : الأمر بالمعروف، ويتناول .

١ – حقوق الله تعالى، مثل صلاة الجمعة والجماعة.

٢– حقوق العباد، مثل : الإشراف على الأسواق وما إليها مما يتصل بالمرافق العامة .

٣– حقوق مشتركة بين الله تعالى والعباد، مثل: أخذ الأولياء بنكاح الأيامى، وتكليف أصحاب الدواب بإطعامها .

والثاني: النهى عن المنكر، ويتناول:

١– حقوق الله تعالى، مثل: الإفطار فى رمضان .

٢– حقوق العباد، مثل: الضرب على أيدى من يتعدى على حقوق الجوار .

٣– حقوق مشتركة بين الله والعباد، مثل: منع أصحاب الدواب من تحميلها مالا تطيق (٢) .

ومن هذا يتضح أن اختصاص والى الحسبة يمتد إلى كل ما يتصل بالصالح العام «ولكن بالرجوع إلى تاريخ الولايات فى الإسلام نرى أن الاختصاصات فيها قد تزيد عن أصلها، وقد تنقص؛ فليست محددة فى كل الأوقات، ولا فى كل الدول، وذلك راجع إلى نظر الحاكم فيمن يريد أن يوليه أمرا من الأمور» (٣) .

وهذه الأمور التى يقوم بها المحتسب كانت فى الأغلب من عمل القاضى،

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٧٦ ، ٥٧٧ .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص٢١١ وما بعدها .

(٣) الحسبة فى الإسلام للأستاذ إبراهيم الشهاوى .

ولكنهم فصلوها عنه، وأسندوها للمحتسب، «وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها، وسهولة أغراضها ... فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء».

وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية مثل الفاطميين بمصر والمغرب، والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى، يولى فيها باختياره، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخليفة، وصار نظره عاما فى أمور السياسة، اندرجت فى وظائف الملك، وأفردت بالولاية (١) .

وقد ارتقى نظام الحسبة فى عهد الفاطميين، واتسعت سلطة المحتسب، حتى إنه كان يلزم رجال الشرطة بتنفيذ أحكامه .

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو، والأزهر، يوما بعد يوم (٢) .

القائمون بالحسبة الآن

اتسعت مرافق الحياة فى وقتنا الحاضر وتشعبت، كما تشعبت جهات الاختصاص تبعا لوظيفة كل مرفق؛ ولذلك فإن اختصاصات والى الحسبة يقوم بها الآن كثير من المصالح والوزارات المختلفة، فمنها ما تقوم به النيابة العامة كالاعتداء على النفس، أو المال، وما تقوم به النيابة الإدارية كتقصير الموظفين وإهمالهم فى واجبهم، وما يقوم به مجلس الدولة كظلامات الموظفين، وما تقوم به الشرطة كملاحظة الطرقات، وما تقوم به مصلحة الدمغة، كالإشراف على المكاييل والموازين والصياغة، ومنها ما تقوم به وزارة الصحة، كمخالفات الصيادلة، وما تقوم به وزارة التربية والتعليم كالإشراف على المدارس والمعاهد ،وما تقوم به وزارة الأوقاف كالإشراف على المساجد، وما تقوم به وزارة المواصلات كالعناية بوسائل النقل، وما تقوم به وزارة الأشغال كالعناية بالجسور والمياه، وما تقوم به وزارة الإسكان كالإشراف على المنازل والدور، وما يقوم به الوعاظ والمرشدون كالحض على الصلاة؛ واجتناب الغش والتدليس.

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٥٧٧ .

(٢) الخطط للمقريزى جـ١ ص ٤٦٣ .

وهكذا نرى أن كثيرا من المصالح والوزارات المختلفة تقوم كل منها بجانب مما كان يقوم به المحتسب .

أثر الحسبة للمجتمع

تختلف النفوس البشرية فى حبها للخير، وميلها عنه؛ فهناك نفوس خيرة يقودها التناصف إلى الحق، ويزجرها الوعظ عن الظلم، ونفوس متجورة لا يقودها إلى الإحسان إلا العنف، ولا يثنيها عن الشر إلا الشدة والخوف؛ ومن لم تصلحه الكرامة يصلحه الهوان؛ فالمجتمع بما فى أفراده من تباين فى الأخلاق، وتنافر فى الطباع، يحتاج إلى اللين مرة، والشدة أخرى، وإلى العنف تارة والإرشاد تارة أخرى؛ فللحسبة الأثر الطيب فى النفوس الكريمة، والتوجيه الحميد لذوى القلوب الطاهرة؛ وحتى النفوس الجامحة كثيراً ما يؤثر فيها الوعظ ويلطف من جموحها الإرشاد، وهذ أمر مشاهد ملموس، فإذا ما اهتم أولو الأمر بالحسبة، وأولوها عنايتهم، واختاروا لها الأكفاء جنوا أطيب الثمرات، وحصلوا على أفضل النتائج .

❊ ❊ ❊

الشرطـــة [1]

الشرطة الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة، أو الوالى فى حفظ الأمن، والقبض على الجناة والمفسدين، والضرب على أيدى المريبين والمذنبين، وتأديبهم وما يتصل بذلك مما يكفل سلامة الناس، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم؛ فهى من الوظائف الهامة للدولة .

وأول من استن العسّ [2] عمر بن الخطاب، وكان يعس بالمدينة يحرس الناس، وينفض الليل عن أهل الريبة ويكشفهم، وفى عهد على كرم الله وجهه نظمت الشرطة، وأطلق على رئيسها «صاحب الشرطة»، ثم ازدادت أهميتها والعناية بها فى عهد الدولة الأموية، وكان صاحبها يختار من علية القوم وأهل العصبية والقوة، وأطلقوا عليه صاحب الأحداث، وهو يشبه مدير الأمن فى وقتنا الحاضر .

وكانت الشرطة من توابع القضاء فى أول الأمر؛ فقد كان الغرض منها تنفيذ أحكام القضاء، أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، وإقامة التعزير والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة، ومساعدة القاضى فى إثبات الذنب على مرتكبه، كذلك كان صاحبها يتولى إقامة الحدود، كحد الزنا وشرب الخمر، وغير ذلك من الأمور الشرعية إذا تنزه عنها القاضى، ثم انفصلت عن القضاء وأصبحت وظيفة مستقلة :

يقول ابن خلدون: «وكان أيضا النظر فى الجرائم وإقامة الحدود فى الدولة العباسية والأموية بالأندلس، والعُبيديين بمصر والمغرب، راجعا إلى صاحب الشرطة، وهى وظيفة أخرى دينية، كانت من الوظائف الشرعية فى تلك الدول، توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلا، فيجعل للتهمة فى الحكم مجالا، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم، ويقيم الحدود الثابتة فى محالها، ويحكم فى القود

---

(١) الشرطة فى السلطان من العلامة والإعداد .. سموا بذلك لأنهم أعدوا لذلك، وأعلموا أنفسهم بعلامات ـ لسان العرب .

(٢) عس يعس عسا وعسا أى طاف بالليل ـ القاموس، لسان العرب .

والقصاص، ويقيم التعزير والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة » [١] .

ولم تكن فى الدولة العباسية عامة التنفيذ فى طبقات الناس، ولكن كان حكمها على الدهماء وأهل الريب، والضرب على أيدى الرعاع والفجرة .

« ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى أمية بالأندلس، ونوعت إلى شرطة كبرى، وشرطة صغرى، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم فى الظلامات، وعلى أيدى أقاربهم، ومن إليهم من أهل الجاه، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة، ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة، حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة، وفى أفريقية الحاكم، وفى دولة الترك الوالى [٢] .

الشرطة فى مصر :

كانت الشرطة فى مصر من أهم وظائف الدولة، وكان صاحبها من عظماء الرجال، وكان ينوب عن الوالى فى الصلاة، وفى توزيع الأعطيات، وفى غير ذلك من الأعمال، ولما بنيت مدينة العسكر جعل فيها شرطة أخرى أطلق عليها « الشرطة العليا » ، وبذلك أصبحت الشرطة قسمين :

١- الشرطة السفلى ومقرها مدينة الفسطاط .

٢- الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر [١] .

ثم نقلها جوهر الصقلى إلى القاهرة بعد بنائها .

وأصحاب الشرطة كانوا يحملون آلة من السلاح تسمى « الطبرزين » وهى عبارة عن سكين طويل يحملونها معلقة فى أوساطهم [٢] .

---

(١) ابن خلدون جـ٢ ص٥٧٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٢٥ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ١ ص٢٠٤، ٢٠٦، وإلى جانب الشرطة العليا بنى أحمد بن طولون جامعه المعروف، ولعلها سميت الشرطة العليا لأن مكانها (وهو جبل يشكر) كان أعلى من الفسطاط .

(٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٢٧٥ .

البريـــد

قال صاحب الفخرى : « البريد أن يجعل خيل مضمرات [1] فى عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا، وكذلك يفعل فى المكان الآخر، والآخر حتى يصل بسرعة .

وأما معناه لغة فالبريد اثنا عشر ميلا ، وأظن أن الغاية التى كانوا قدروها بين بريد وبريد هى هذا القدر » [2] .

ولفظ بريد قيل إنه عربى، ومعناه الرسول أو الثابت، [3] وقيل إنه فارسى معرب، وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه محذوف الذنب؛ وذلك لأن الفرس كانوا يحذفون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى، قال امرئ القيس:

على كل مقصوص الذُّنابى معاودٍ　　بريدِ السُّرى بالليل من خيل بربرا [4]

---

(١) تضمير الفرس أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت - لسان العرب، القاموس .

(٢) الفخرى لابن الطقطقى ص٧٩ ، وقال فى صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٦٦ :« أما معناه لغة فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلا » ... وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ والفرسخ، ثلاثة أميال ... ، وقد ضبط بعضهم ذلك بقوله :

إن البريد من الفراسخ أربع　　والفرسخ فثلاث أميال ضعوا

والميل ألف أى من الباعات أقل　　والباع أربع أذرع فتتبعوا

فالبريد = ٤ فراسخ = ١٢ ميلا = ١٢٠٠ باع = ٤٨٠٠٠ ذراع .

حاشية الطحطاوى على مراقى الفلاح ص٦٤ ، وراجع لسان العرب .

(٣) قال فى لسان العرب: « ويرد لى عليه كذا وكذا أى ثبت، ويقال: ما يرد لك على فلان ... أى ما ثبت ووجب ... والبريد الرسل على دواب البريد، والجمع برد، وبرد بريداً أرسله، وفى الحديث: إنه ﷺ قال: إذا أبردتم إلى بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم، البريد الرسول، وإبراده إرساله .. » .

(٤) قال فى صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٦٧ : « ثم اختلف فيه فقيل: إنه عربى، وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه وقيل من أبردته إذا أرسلته =

الغرض من البريد .

كان الغرض من البريد فى صدر الإسلام توصيل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وعمالهم، وأخبار الولاة والعمال إلى الخلفاء . ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة؛ فهو كما ينقل أمره إلى ولاته وعماله، كان رقيبا عليهم، ينقل أخبارهم إليه، كذلك كان يتجسس على الأعداء، ويتعرف ما عندهم؛ فالبريد من هذا الوجه أشبه بقلم المخابرات فى وزارة الدفاع الآن، قال الصاحب علاء الدين: «ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلبا لحفظ الأموال، وسرعة وصول الأخبار، ومتجددات الأحوال [١]؛ فكان البريد مقصورا على أغراض الدولة، ثم أبيح فيما بعد للرعية أن ينتفعوا به فى نقل رسائلهم .

نشأة البرد :

«والبريد اختراع قديم جدا عرفه الفرس والرومان، ولكن الفضل فى تقدمه يرجع إلى ما قام به دارا الأول من ربط أجزاء الإمبرطورية الفارسية فى الشرق الأدنى [٢] » .

البريد فى الإسلام :

كان البريد معروفا عند ملوك العرب فى الجاهلية [٣]، وكذلك كان معروفا فى صدر الإسلام؛ ففى الحديث أنه ﷺ قال: إذا أبردتم إلىّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم [٤]، وقد ذكر المؤرخون أن المسلمين بينما كانوا يقاتلون الروم فى موقعة اليرموك جاء البريد يحمل وفاة أبى بكر، وتولية عمر رضى الله عنهما، وعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجند، وتولية أبى عبيدة بن الجراح مكانه[٥] .

= وقيل من برد إذا ثبت؛ لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار، يقال: اليوم يوم بارد سمومه أى ثابت. وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب . قال ابن الأثير فى النهاية: وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه مقصوص الذنب . . » وراجع لسان العرب، الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤٤٠، الكامل للمبرد جـ١ ص٢٢٢ ط التقدم سنة ١٣٢٣ .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٧٩ .

(٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٦٧ كثير من مصطلحات البريد التى كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل، ومنها الفيج وهو الساعى على قدميه، والشاكرى بمعنى راكب البريد، والإسكدار وهو السجل الذى يدون فيه عدد حقائب البريد والخطابات، ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها ــ الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤٠٤

(٣) الكامل للمبرد جـ١ ص٢٣٢ ط التقدم سنة ١٣٢٣ .

(٤) لسان العرب .

(٥) الطبرى جـ٤ ص٣٥ ، ط التجارية .

البريد فى عهد الأمويين :

كان معاوية أول من عنى بالبريد فى الإسلام لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها؛ فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم، وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد [1] ولكن أمره أحكم، ونظم فى عهد عبد الملك بن مروان حتى أصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة، وقد أثر عنه أنه قال لابن الدغيدغة : « وليتك ما حضر بابى إلا أربعة [2] المؤذن فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارق الليل فشرٌ ما أتى به، ولو وجد خيراً لنام، والبريد، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة، والطعام إذا أدرك، فافتح الباب، وارفع الحجاب، وخل بين الناس وبين الدخول » .

البريد فى عهد العباسيين :

اهتم العباسيون بالبريد، واعتنوا به عناية كبرى، واعتمدوا عليه كثيراً فى إدارة شئون دولتهم، وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم؟ قال : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية، فإنى عن ظلمها غنى، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول فى كل مرة آه آه فقيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة » [3] .

ولقد بلغ من انتظام أعمال البريد فى زمانه أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم : من بعد صلاة الصبح، ومن بعد صلاة المغرب، فكان ملما بأحوال دولته إلماما تاما، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى تقصيرا من أحد عماله لامه ووبخه، أو عزله عن عمله مهانا .

يقول فون كريمر . « إنه كان على رأس كل مصلحة فى الولايات الكبيرة عامل بريد مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة، بل والإشراف على أعمال الوالى،

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٣٤ ط منير، صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٦٨ .

(٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٦٨ ، ويذكر هذا القول عن زياد أيضا، وراجع العقد الفريد جـ١ ص٧٩ لجنة التأليف، وفى رواية؛ إلا عن ثلاثة، وراجع مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص٦٠٥ .

(٣) الطبرى جـ٦ ص ٣١٣ ط الاستقامة .

كما كان بعبارة أخرى مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها [١]، فكان الخلفاء يعدون عمال البريد عونا لهم على الإشراف على أمور دولتهم وبواسطتهم كانوا يقفون على أعمال ولاتهم وسائر رجال دولتهم» .

ومن ثم نرى أن الخلفاء كانوا لا يولون البريد إلا ثقاتهم من أهل التعقل والدراية؛ لأن على ما ينقلونه من أخبار تتوقف علاقة الخلفاء بعمالهم، أو بمعاصريهم [٢] .

البريد فى الحروب .

«وكانت تنظم أثناء الحربُ بُردٌ حربية لشئون الحكومة؛ فمن ذلك أنه لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر أنهض المقتدر مؤنسا الخادم، وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢ هـ - ٩١٤م ، وتقدم على بن عيسى بترتيب الجمازات [٣] من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم [٤] .

وكان للبريد ديوان مركزى كبير فى بغداد لتسلم البريد والتقارير المرسلة من أنحاء البلاد، وكان صاحب البريد يعرض على الخليفة الهام منها، ويرسل ما عداها إلى الدواوين المختلفة [٥] كما كان له محطات [٦] على طول الطريق، وقد ساعدت معالم هذه الطرق التى أقامتها الحكومة التجار فى أسفارهم، كذلك كانت نواة للبحوث الجغرافية، إلا أن البريد كان خاصا بأعمال الدولة، وليس لنقل مراسلات الجمهور، ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة، ومع ذلك « فقد كانت تحمل فيه إلى جانب الرسائل، أشياء خاصة تبعث للسلطان مما يحتاج إلى سرعة الإيصال، فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثمارا غضة من كابل أثناء ولايته على خراسان» [٧] .

---

(١) راجع كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله ص ٢٥٧ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان ص ٢٣٩ .

(٣) جمز الإنسان والبعير وغيره يجمز جمزا وجمزى وهو عدو دون الحضر، وفوق العنق وبعير جماز وناقة جمازة ... والجمز الذى يركب الجمازة - القاموس، ولسان العرب .

(٤) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤١٤ .

(٥) راجع الإدارة العربية للحسينى ص ٢٩٩ .

(٦) وبلغ عدد سكك (محطات) البريد فى إبان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها ١٠٠ر١٥٩ ديناراً فى السنة .. وفى أيام الدولة الأموية كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم - ابن خرداذبة ص ١٥٣ ، تاريخ التمدن الإسلامى جـ١ ص ٢٤١ .

(٧) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ٤١٤ .

وقد يعمد الملوك أو الأمراء إلى الحيطة والحذر؛ فيجعلون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سراً فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كان متسما بتلك العلامة، ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه؛ إذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه، كما حدث حينما دعا المنصور إليه أبا مسلم الخراسانى؛ فقد خاف عاقبة تلك الدعوة، ولما عزم على المضى للخليفة استخلف على عسكره أبا نصر بن الهيثم وقال له: «إن جاءك كتابى وهو مختوم بنصف خاتمى فهو كتابى، وإن كان مختوما بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمى»، وحين مثل أبو مسلم بين يدى المنصور قتله، وكتب على لسانه كتابا لابن الهيثم، وختمه بخاتم أبى مسلم، فلما وصله الكتاب مختوما بكل الخاتم عرف أن أبا مسلم لم يكتبه (١) .

البريد الجوى «الحمام الزاجل» :

لم يكتف المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البرى، ولكنهم خطوا خطوات واسعة فى تنظيم نقله وسرعة وصوله، واستعملوا فى ذلك الحمام الزاجل، وقد اعتنى خلفاء بنى العباس كالمهدى ثالث خلفائهم بهذا الحمام الرسائلى، وتنافس فيه رؤساء الناس فى العراق، وبالغوا فى أثمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار (٢) .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أخباراً كثيرة عن استخدام الحمام فى نقل البريد، وسرعة توصيل الأخبار، ومن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة عام ٣٠٤ هـ-٩١٦م ، وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه من يومه، وذكر الثعالبى: أن الرسائل كانت تصل فى ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد، وواسط، والبصرة، والكوفة بواسطة الأطيار فى يوم وليلة (٣) .

المراسلة بالنار :

استعمل المسلمون فى المراسلة طريقة أسرع من الحمام، وهى بناء المناظر أو المنائر، كالأبراج العالية على المرتفعات، ونقل الإشارت عليها بإشعال النار أو نحوه، فينتقل الخبر بها من منظرة إلى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب، واستخدم هذه الطريقة الحجاج بن يوسف، واتخذ المناظر بينه وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر إن كان نهارا، وإن كان ليلا أشعلوا نارا، وكانت المناظر متصلة بين قزوين

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٤ .
(٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٩٠ .
(٣) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص٤١٦ .

وواسط فيصل الخبر في وقت قصير [١] ، واستخدمها المسلمون «استخداما حسنا في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي؛ فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة ٤٤٠هـ ، ١٠٤٨م حينما ثار المغرب على الفاطميين، ولم يعد في إمكانهم حماية الحصون من البدو» [٢] .

وقد ذكر القلقشندي فصلا مفيدا عن هذه المناور ختمه بكلمة قال فيها: «على أن مرتبها بهذه المملكة أولا أني بحكمة ملوكية لا تساوي مقدارا؛ إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى، وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة» [٣] .

البريد في مصر :

اهتم الخلفاء الفاطميون في مصر بالبريد اهتماما كبيرا، ولاسيما البريد الجوي الذي اعتنوا به، واعتمدوا عليه كثيرا حتى أفردوا له ديوانا، وجرائد بأنساب الحمام، وصنفت به بعض الكتب، ومما يدل على اعتمادهم عليه ما ذكر من أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر، ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية، وأنه يحب أن يراها، وكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق؛ فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري، ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية، ويرسلها إلى مصر ففعل ذلك؛ فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية؛ فجمعه الوزير يعقوب بن كلس، وطلع به إلى العزيز في يومه؛ فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه [٤] .

كذلك ارتقى البريد في عهد المماليك، وبخاصة في أيام السلطان بيبرس؛ فقد وضع له نظاماً يكفل ارتباط جميع أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر بشبكة من

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي للأستاذ جورج زيدان ص ٢٤٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ٤١٦ .

(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٤٠٠ . (٤) صبح الأعشى جـ١٤ ص٣٩٠ ، ٣٩١

خطوط البريد البرية والجوية، وكان مركز هذه الخطوط قلعة الجبل [1] التى أنشأها صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ ، وكان يتفرع منها أربعة خطوط برية هى :

١- خط إلى قوص، ومنها إلى أسوان، وما يليها من بلاد النوبة .

٢- خط إلى عيذاب [2] (عن طريق قوص) وما يليها من سواكن .

٣- خط إلى الإسكندرية .

٤- خط إلى دمياط، ومنها إلى غزة.

وأصبح البريد فى عهده يصل إلى مصر مرتين فى الأسبوع، وكان يشرف عليه صاحب ديوان الإنشاء .

كذلك استخدام بيبرس حمام الزاجل فى رسائله، وكانت له أبراج فى القلعة، ومراكز معينة فى جهات مختلفة، كمراكز البريد البرى لكنها تزيد عنها فى المسافة؛ فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحيه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزلة التى تليها . وقد جرت العادة أن تكتب الرسائل من صورتين ترسلان مع حمامتين، وتطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى، حتى إذا ضلت إحداهما، أو قتلت تصل الأخرى .

كما لا يرسل الحمام فى الجو المعطر، أو قبل تغذيته غذاء كاملا، وكان حمام البريد يميز بعلامة خاصة كقص ريشه بطريقة معينة؛ فإذا وصل إلى القلعة أخذت البطاقة التى يحملها، وكثيرا ما كان السلطان يتولى فضها بنفسه [3] .

* * *

---

(١) وهى تقع شرقى القاهرة وتشرف على ميدان صلاح الدين .

(٢) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة بليدة على ضفة بحر القلزم فى طريق قوص يركبون منها البحر إلى جدة - معجم البلدان لياقوت .

(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٧٣ ، النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله ص ٢٥٨ .

الجيش

الحرب:

«الحرب رحى ثقالها [١] الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمارها الحذر» [٢]، وهى شىء طبعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل، وضرورة اجتماعية طالما كانت هناك أطماع ومظالم بشرية، وسببها فى «الأكثر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده» [٣].

والحرب فى الإسلام حرب داعية، وقد بين القرآن الكريم فى مواضع [٤] منه السبب الذى من أجله شرع القتال، وأذن للمؤمنين فى الحرب والجهاد، وأرجعه إلى أمرين:

---

(١) ثقالها: الثقال ككتاب الجلد أو نحوه يوضع تحت الرحى يقع عليه الدقيق.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جـ ١ ص ١٠٨ لجنة التأليف.

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٥٣.

(٤) المواضع التى ذكرها القرآن هى: قوله تعالى فى سورة الحج وهو أول ما أنزل فى شأن القتال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾، وقوله فى سورة البقرة: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ... ﴾، وقوله فى سورة النساء: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ... ﴾، وقوله فى سورة النساء أيضاً: ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ... فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ وقوله فى سورة الأنفال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وقوله فى سورة الأنفال أيضاً: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقوله أيضاً فى هذه السورة: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا

الأول: الدفاع عن النفس عند التعدى .

الثانى: الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها، بفتنة من آمن، أو بصد من أراد الدخول فى الإسلام عنه، أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته .

وأول آية نزلت فى شأن القتال هى قوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ..** ﴾ .

وهذه الآية تفيد الإذن فقط للمسلمين فى القتال دون فرضه عليهم، ثم تتابع بعدها نزول آيات القتال طبقا للأحوال والملابسات، وإن من يتتبع كل ما نزل بشأن القتال فى القرآن يتضح له أن الإسلام لم يقرر القتال طريقا لدعوته، ووسيلة للإيمان به، وأن دعوته لم تقم، ولم تنتشر على أساس من الضغط والإكراه وإنما كانت كما قال سبحانه لنبيه: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن هذا يتبين أن الإسلام لا يريد القتال، ولا يهدف إليه إلا لغرض الدفاع عن النفس، أو الدفاع عن الدعوة .

تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ ، وقوله فى سورة التوبة: ﴿ **وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ...** ﴾ ، وقوله بعد أن مالأ اليهود قريشاً والمنافقين، وأخافوا المسلمين فى غزوة الأحزاب، ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ ، وقوله حينما اتحدت قريش وقبائل العرب مع اليهود ضد المسلمين، ووقفوا جميعاً فى سبيل الدعوة: ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ .

من هذه الآيات يتبين فى وضوح: أن الحرب فى الإسلام لم تكن معتدية، وأن الإذن فيها كان متدرجاً، وطبقاً للأحوال، وقد بين هذا التدرج ابن القيم الجوزية فى زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٢، وفى ص ١١٤ بيان للتدرج أيضا وتصنيف للناس، وموقف الإسلام بالنسبة لقتال كل صنف، أو عدم قتالهم .

معاملة الإسلام لمخالفيه :

إن سبيل الإسلام فى دعوته، وفى القتال فى سبيل الله توضح العلاقة بينه وبين غيره، ونكتفى من ذلك بذكر بعض الآيات :

يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٠].

ويقول سبحانه فى سورة الأنفال : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٦١].

ويقول عز وجل فى سورة الممتحنة : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة : ٨، ٩].

وآية الممتحنة هذه بمثابة دستور إسلامى فى معاملة المسلمين لغير المسلمين، وإذا قرأنا هذا الدستور، ثم رجعنا إلى سورة المائدة وهى من آخر القرآن نزولا، وقرأنا منها فيما يتصل بعلاقة المسلمين بغيرهم قوله تعالى :

﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٥].

«إذا قرأنا هذا وذاك علمنا روح السمو التى يحملها الإسلام فى علاقته بغير معتنقيه، وأنه بر، وقسط، وتعاون، ومصاهرة .

وهى علاقة يتضاءل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشرى فى العلاقات الدولية العامة (١) .

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية للمرحوم الإمام الشيخ شلتوت ص ٣٨، ٣٩ .

نظام الجندية :

لم يكن للعرب فى جاهليتهم نظام خاص للجند لبداوتهم، وكان كل رجل يقدر على حمل السلاح يخرج للقتال إذا ما دعا الداعى دفاعا عن عشيرته وقبيلته، ثم إذا ما انتهى القتال عادوا إلى أماكنهم وشئونهم .

وكانت أسلحتهم السيف والرمح والقوس . وكان يقودهم زعيم من زعمائهم أَلِفَ القتال، وعرف بالشجاعة، وكثيرا ما يكون هو رئيس القبيلة .

ولما جاء الإسلام، وأذن للمسلمين فى القتال، والجهاد فى سبيل الله كان كل مسلم جنديا، وله من حبه لدينه ما يدفعه إلى المبادرة إلى الجهاد، والاستشهاد فى سبيل الله .

ولما ولى عمر الخلافة عنى بأمر الجند، وأنشأ لهم ديوانا خاصا للإشراف على شئونهم، ومختلف أمورهم؛ من بيان أسمائهم وأوصافهم، وأعمالهم وأرزاقهم .

وحينما اتسعت الفتوح الإسلامية، وكثرت الغنائم، وأقبلت الدنيا على المسلمين، واستقر الكثير منهم فى المدن، خشى عمر أن يخلد بعضهم إلى الراحة والتقاعد عن الحرب، وأن ينصرف إلى الثروة؛ فتقدم إليهم بالانصراف إلى الجهاد، ورتب لهم ولأسرهم الأرزاق، وكان من يتأخر منهم عن الجهاد بغير عذر يعير ويلام لوما يردعه ويردع غيره (١) .

وإلى عمر أيضا يرجع الفضل فى إقامة الحصون، والمعسكرات الدائمة لإراحة الجنود فى أثناء سيرهم إلى عدوهم بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل، من غير أن يستريحوا من عناء السفر – اللهم إلا فى أكواخ من القصب، أوسعف النخيل، الأمر الذى ينتقص من قوتهم عند لقاء عدوهم .

ون ثم بنيت الأمصار كالبصرة، والكوفة، والفسطاط، لإراحة الجند وصد هجمات الأعداء .

---

(١) لوما يردعه كأن يعتزله الناس، أو أن يعلن عن تخلفه فى مسجد حيه، وكان هذا أشد عليه من الموت، لأن العرب كانت ترى أن الاتصاف بالجبن عار لا يمحى .

التجنيد الإجبارى :

أتم الأمويون ما بدأه عمر من العناية بالجيش؛ فنظموا ديوان الجند، وعنوا بالجيش، ولما استقر لهم الأمر نهائيا تقاعد المسلمون عن الحرب، وانصرفوا عن الجهاد، فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى .

الاستعداد للحرب :

الحرب - كما عرفنا - من طبيعة البشر، وضرورة اجتماعية طالما كانت هناك مظالم وأطماع بشرية، والاستعداد لها، والحذر من كيد العدو، ومكره أمر لازم لكل دولة تحرص على كيانها، وتريد الحياة الكريمة لنفسها، والاستعداد للحرب يمنع الحرب ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥١]؛ وقديما قيل :

قد علمت خيلك أنى الصحصح إن الحديد بالحديد يفلح [١]

من أجل ذلك أخذ الإسلام حذره من خداع العدو ومكره، وأعد للحرب ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل؛ لإرهاب ذلك العدو وزعزعة ثقته فى نفسه، وفى مقدرته على الانتصار والفوز .

قال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴾ .

وقال جل وعلا : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ .

بينت هذه الآية الكريمة الغرض من إعداد ما استطعنا من قوة، ومن رباط الخيل، وأنه إرهاب العدو، وتوهينه، وإلقاء الرعب فى نفسه حتى ترتعد فرائصه، وتخور قواه

---

(١) يفلح : يشق ويقطع .

فرقا وخوفا من قوة المسلمين وعظيم استعدادهم للحرب، ومن ثم لا يقدم على حربهم، ولا يفكر في غزوهم؛ فيسود السلام، ويطمئن الناس على أنفسهم وأموالهم [1] .

المخذلون (الطابور الخامس) .

هناك قلوب مريضة؛ تثبط الهمم، وتخذل الناس وتبطئهم، وتناصر العدو ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . والإسلام يعرف هؤلاء ويتقيهم، ويحذرهم، وينحيهم عن كل ما له صلة بسلامة الدولة وأمنها .

قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾
[النساء: ٨١]

أولئك هم جرثومة الوهن في الجيش، وأسُّ التخاذل في الأمة؛ ومن هنا نرى الأمم الواعية تحذرهم، وتحتاط منهم، وتباعد بينهم وبين كل أمر قد يصلون منه إلى أغراضهم .

قيادة الجند :

كان النبي ﷺ هو القائد الأعلى لجيش المسلمين، وبعد وفاته كانت الأحوال قد تطورت، وميادين القتال قد كثرت، وتعددت الجيوش في الأماكن المختلفة؛ فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم بمهمة القيادة بنفسه، فأسندها إلى من يصلح لها ممن عرف بالشجاعة والنجدة، والإقدام والحزم، وحسن التدبير، والبصر بتعبئة الجيوش، والخبرة بفنون القتال، وإعمال الخدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس العزة، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق والتحفظ من البيات [2] ، من أمثال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص .

وكانت الطاعة لهؤلاء القواد واجبة كطاعة الخليفة نفسه؛ فهو الذي ينوب عنه في إقامة الصلاة وهي أهم وظيفة للخليفة وقتئذ، وكان القواد يعرضون الجند قبل لقاء

---

(١) في أحداث التاريخ في كل زمان الشواهد لذلك . وموقف المعسكرين: الشرقي والغربي في زماننا خير شاهد، فاستعداد كل من المعسكرين للحرب هو الذي جعل كلا منهما يتخوف من الحرب، واستعداد جمهوريتنا العربية منع إسرائيل من حربنا .

(٢) العقد الفريد جـ١ ١٠٨ ط لجنة التأليف .

العدو حتى يطمئنوا عليهم، وعلى عدتهم؛ وذلك اقتداء بالنبى صلوات الله عليه؛ فقد سن للمسلمين هذه السنة فى حروبه، ومتى انتهى القتال أصبحت مهمة القائد النظر فى أمر الجند وتدريبهم، وتحسين معداتهم، والاستزادة منها .

وصايا أمراء الجيوش :

كان النبى صلوات الله عليه وخلفاؤه من بعده يتعهدون القواد والجند بالنصيحة التى تفيدهم فى حسن أدائهم لواجبهم الأول باعتبارهم دعاة للإسلام، وفى حسن تسيير الجنود والظفر بالعدو؛ فكان ﷺ إذا بعث سرية أو جيشاً تقدم إليه بالوصية؛ ومن ذلك قوله : « اغزوا باسم الله، وفى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولاتغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا امرأة ولا وليدا »، وكان صلوات الله عليه ينهى فى مغازيه عن النهبة، ويقول: « من انتهب نهبة فليس منا » ، وكان يمنع التفريق فى السبى بين الوالدة وولدها ويقول: « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » [1] .

وشبيه بهذه الوصية وصية خليفته الأول لأسامة بن زيد قائد أول جيش غزا بعد وفاته ﷺ ؛ إذ يقول فيها: « أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر؛ فاحفظوها عني: لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولاتقتلوا طفلا صغيرا، ولاشيخا كبيراً، ولا امرأة؛ ولاتعقروا نخلا، ولاتحرقوه، ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . . » [2] .

ولعل من أحسن الوصايا وصية عمر رضى الله عنه لسعد بن أبى وقاص – كبير قواد الجبهة الشرقية فى زمانه – ومما جاء فيها : « . . . وترفق بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم؛ فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامى الأنفس والكراع [3]، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم،

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم الجوزية جـ٢ ص٩٠ وما بعدها – ط . صبيح، العقد الفريد جـ١ ص١٥١ ط لجنة التأليف .

(٢) الطبرى جـ٢ ص ٤٦٣ ط الاستقامة .

(٣) الكراع : الخيل .

ويرمُّون [1] أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا، ولا تستنصروا عى أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئت أرض العدو، فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم .. ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك ..» [2] .

ومن ثم كان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند، ويعاقبون كل من يتعرض لأهل البلاد المفتوحة بسوء، ولا يقاتلون إلا من يقاتلهم، ويقف فى سبيل دعوتهم، وذلك امتثالا لأوامر نبيهم، ونصائح خلفائه من بعده، على أن مهمتهم الأولى، وهى كونهم دعاة للإسلام تحتم عليهم هذا النهج القويم .

وكان لعقيدتهم أكبر الأثر فى إقدامهم على القتال، واستهانتهم بالمخاطر؛ فإن من عاش منهم عاش سعيداً، ومن مات مات شهيداً، وكانوا يكبرون ويتلون القرآن أثناء سيرهم للجهاد، كما كانوا يدقون الطبول، ويرتجزون الأراجيز لتذمير الجنود، وبث الحماس فى نفوسهم .

سمو الإسلام فى حروبه :

نهج الإسلام فى حروبه طريقاً لم يكن معهوداً من قبل فى أمة من الأمم، ولا فى شريعة من الشرائع السابقة، ومن السهل أن نتبين من الآيات الكريمة التى تعرضت لشأن القتال، ومن أفعال النبى صلوات الله عليه، ووصاياه، ووصايا خلفائه من بعده «أن الإسلام هذب أمور الحرب، ورفع مستوى الإنسانية، وبث الرحمة والعدل فى قلوب متبعيه [3] ، وأوضح لهم نظاماً للحروب لم تصل إليه تلكم الأمم، التى تدعى لنفسها أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة والمدنية .

هذه سبيل الإسلام فى شأن القتال كما يوضحها القرآن الكريم فأين منها ما جاء فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى (٣٤) : «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على

---

(١) يرمون . (بضم الراء وتشديد الميم) يصلحون .

(٢) العقد الفريد جـ١ ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

الأرض ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً (٣٥) فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها (٣٦) وأعداء الإنسان أهل بيته» . وما فى سفر التثنية (٢٠ : ١٠-١٦) : «حين تقترب من مدينة لتحاربها أدعها إلى الصلح؛ فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالمك وعملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ...» .

« نحن الآن فى القرن العشرين، ومع هذا فالحرب لا توجد شريفة الأسباب، والوحشية تتجلى فيها فى أفظع مجاليها، ومعاملة الغالب للمغلوب أخشن ما يمكن أن تكون، مهما تزينت الحروب بأسمى أسماء العواطف الخادعة، فما الحرب العامة عنا ببعيدة، وما الصلح فيها إلا استرقاق الأمم والشعوب البريئة لمن أوتى الظفر، وإن لم يكونوا من جناتها ولا من مؤرثى نارها» (١) .

عناصر الجيش :

كان الجيش فى بادئ الأمر يتكون من العنصر العربى فقط،وظل هكذا من أيام النبى ﷺ إلى أن توسع الأمويون فى فتوحهم، وضموا شمال أفريقيا وبلاد الأندلس، فاستعانوا بالبربر فى الجيش .

وفى عهد العباسيين دخل العنصر الفارسى فى الجيش العربى . ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ استكثر من الأتراك (لأن أمه تركية) فولاهم حراسة قصره، وأسند إليهم أعلى المناصب، وأدر عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب، فدب دبيب الغيرة والحسد فى نفوس القواد وبخاصة العرب فتآمروا على التخلص من المعتصم، ولكن المؤامرة لم تنجح، وكان من أثر فشلها أن أقصى المعتصم القواد العرب والفرس ومحا أسماءهم من ديوان العطاء، وزاد اعتماده على الأتراك حتى أربى عددهم على السبعين ألفاً، وكانت النهاية أن استأثروا بالأمر فيما بعد، وأصبح الخليفة لا سلطان له، وغدا فى أيدى هؤلاء الأتراك أمر توليته وعزله، أو حسبه وقتله .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

أثر المرأة فى الجيش :

كان للمرأة فى الجيش أثر فعال؛ فقد كانت تقوم بسقى الجند، وتضميد الجرحى[١] وتذمير الجيش وتحميسه للقتال، وكثيراً ما كانت تقاتل إذا حمى الوطيس، ورخصت النفوس، وكان لوجودها فى الجيش أثره فى تحميس الرجال فإنهم كانوا إذا رأوا النساء استحيوا من الفرار، واستهانوا بالموت، فيتم النصر لهم على عدوهم .

وقد قاتل النساء فى بعض غزوات النبى ﷺ والخلفاء من بعده .وإن التاريخ الإسلامى ليفخر بمثل نسيبة بنت كعب المازنية التى دافعت عن رسول الله ﷺ فى غزوة أحد حتى لقد قال فيها « ما التفت يميناً ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى » [٢] .

وفى غزوة الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب اليهودى الذى كان يطيف بالحصن حتى لا يدل على عورة للمسلمين [٣] ، بل إنهن لم يكتفين بالغزو فى البر بل ركبن البحر وغزون فيه، فهذه أم حرام بنت ملحان تصحب زوجها عبادة بن الصامت مع بنت قرظة امرأة معاوية بن أبى سفيان فى أول غزوة بحرية يقوم بها المسلمون [٤] .

وحمل مسلمة عبد الملك حينما غزا « عمورية » نساءه معه، وحمل ناس ممن معه نساءهم، وفى سنة ١٣٩هـ . استرد المسلمون « ملطية » وكان فى الحملة ثنتان من عمات الخليفة المنصور .

ولقد امتدح « أدوارد جيبون » فى كتابه سقوط الدولة الرومانية شجاعة النساء المسلمات فى حصار دمشق فقال :

« إن هؤلاء النساء اللاتى تعودن الضرب بالسيف، والطعن بالرمح، والرمى بالنبل

---

(١) « وكن (فى غزوة أحد) قد جئن أربع عشرة امرأة منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى، ويداوينهم، ومنهن أم سليم بنت ملحان، وعائشة أم المؤمنين . . . » إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص ١٣٨ ، وكذلك قاتلن فى غزوة حنين – المصدر نفسه ص ٤٠٨ .

(٢) شهدت قتال مسيلمة الكذاب باليمامة وجرحت يومئذ اثنى عشر جراحة، وقطعت يدها – الإصابة جـ٨ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) الإصابة جـ٨ ص ١٢٨ .

(٤) صحيح البخارى باب غزو المرأة فى البحر، وراجع فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٥٩ .

هن اللاتى إذا وقعت إحداهن فى الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها، وصون دينها من أى إنسان تحدثه نفسه بإرادتها بسوء» .

تعبئة الجيش :

كان العرب فى جاهليتهم يحاربون بطريقة الكر والفر من غير أن يتبعوا فى ذلك نظاما، فلما جاء الإسلام ابتدأ التنظيم فى جيوش المسلمين . وحين نزل قوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ رتب النبى صلوات الله عليه جيوش المسلمين صفوفا ثم عدل فى تنظيمهم، وترتيبهم .

ولما اتسعت الفتوح، والتقت جيوش المسلمين بجيوش الفرس والروم وهى جيوش تسير فى حروبها وفق نظم وخطط معروفة عدلوا فى تعبئة جيوشهم بما يتفق وطرائق عدوهم . وكان تنظيم الجيش وتعبئته هكذا :

١- المقدمة وهى التى تبدأ المناوشات مع العدو، وتتعرف مواضعه ومسالكه .

٢- القلب وهو وسط الجيش وفيه القيادة وأمير الجند .

٣- الجناحان أو المجنبتان .　　　　٤- الساقة .

وكل فرقة من هذه الفرق مقسمة إلى كراديس، ولها أمير يأتمر بأمر القائد الأعلى [١]، وكانوا يهتمون بأمر الفرسان، لما لهم من شأن عظيم فى القتال، وللاحتفاظ بخط الرجعة للجيش، حتى لا يؤتوا من خلفهم، وكانوا فى حروبهم يحذرون من البيات جهدهم .

وتعتبر موقعة اليرموك، والقادسية، وأجنادين من المواقع الحربية التى تعد مثالا لغيرها فى تعبئة الجيوش وحسن قيادتها، وقد تأسى الحلفاء الأوربيون فى الحرب العالمية الأولى بما صنعه خالد بن الوليد فى موقعة اليرموك من توحيد القيادة، واختيار الموقع المناسب للمعركة .

ظل هذا النظام سائداً فى أيام الدولة الأموية، والدولة العباسية، والأندلس مع تعديل بما يوافق تطور الحروب وخطط الأعداء .وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفى شاعر«لمتونة» ، وأهل الأندلس فى كلمة يمدح بها تاشفين بن على بن يوسف، ويصف ثباته فى الحرب، منها :

---

(١) الطبرى جـ٣ ص ٨ ،٩ - مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٥٤ ، ٦٥٥ .

والبس من الحلق المضاعفة التى	وصى بها صنع الصنائع تبع
خندق عليك إذا ضربت محلة	حصنا حصينا ليس فيه مدفع
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك	ضنك فأطراف الرماح توسع
واجعل من الطلاع أهل شهامة	للصدق فيهم شيمة لا تخدع [١]

أسلحة الجيش :

كانت الدولة تتعهد الجند بكل ما يحتاجون إليه من سلاح ومؤن، وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة، وكانت أسلحة الفرسان هى : الدروع والسيوف والرماح وهى السلاح الرئيسى للفرسان [٢] ، وأسلحة الرجالة هى الدروع، والحراب، والقسى، والسهام، والسيوف؛ فالقوس للرمى بالسهام فى أول الحرب؛ فإذا تقاربت الصفوف بدأ التطاعن بالرماح؛ فإذا وقع الالتحام كان التضارب بالسيوف .

وكان الرماة أهم عناصر فى الجيش، وكانوا يقفون فى صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان؛ وكان لهم فى استعمال السهام مهارة فائقة، لحدة أبصارهم، ولحاجتهم إليها فى الصيد [٣]، وقد بلغ من مهارتهم فى الرمى أن الرامى يستطيع أن يرمى إحدى عينى الغزال التى يريدها، وقد ساعدتهم هذه المهارة فى التغلب على الروم، كما كان لها أثرها الواضح فى التغلب على الفيلة فى حرب الفرس.

المنجنيق والدبابات :

لما سار الرسول ﷺ إلى الطائف لمطاردة فلول ثقيف، واعتصمت منه بالحصون، ورمت المسلمين بالنبل نصب النبى ﷺ المنجنيق ورماهم به؛ فكان ﷺ أول من رمى بالمنجنيق فى الإسلام، كما استعان على حربهم بالدبابات، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها، ويزحفون بها إلى جدار الحصن لينقبوه .

الجاسوسية :

كان النبى ﷺ يهتم بتعرف أخبار عدوه، واستطلاع أحواله؛ فكان يزكى العيون ليأتوه بخبره، ويعلموه بأمره؛ ومن ذلك أنه أرسل عبد الله بن جحش فى اثنى

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٦٢ .

(٢) كانت الرماح هى السلاح الرئيسى للفرسان، وكانت رماحا تبلغ نحوا من عشرة أذرع، الحضارة العربية للأستاذ هل ص ٥٠ .

(٣) انظر العقد الفريد جـ١ ص٢١٨ وما بعدها؛ فقد ذكر فى ذلك الشيء الغريب .

عشر مهاجرا إلى « نخلة » بين مكة والطائف ليترصد بها قريشا، ويعلم من أخبارهم، كما أرسل إلى بدر رجلان يستقيان، ويتنطسان [1] الأخبار، وفى أحد بعث أنسا ومؤنسا ابنى فضالة يلتمسان خبر قريش؛ فأخبراه بما علما، وهكذا كان صلوات الله عليه يهتم بأخبار عدوه ليأخذ حذره، وليعد للأمر عدته .

وكذلك سار خلفاؤه من بعده، فنرى عمر رضى الله عنه يقول فى وصاته لسعد ابن أبى وقاص : « فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم . . » .

وفى عهد العباسيين عنوا بها وأحكم أمرها، حتى إنهم كانوا يستخدمون لذلك الرجال والنساء الذين كانوا يذهبون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى زى التجار، أو الأطباء، أو غيرهما، ويتنطسون الأخبار، ثم يعودون بها إلى الدولة لتحتاط للأمر، ولم تكن الجاسوسية أكثر نشاطا، ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت لا تزال تنافس الدولة الإسلامية [2] .

حرب الأعصاب :

كذلك عرف المسلمون حرب الأعصاب، واستغلوها فى توهين العدو، وإضعاف عزيمته للقتال، ومن ذلك أن المسلمين حينما حاصروا قنسرين تحصن أهلها، منهم؛ فأرسل إليهم خالد بن الوليد يقول : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم إلينا » ؛ فألقوا السلم، وفتحوا مدينتهم للمسلمين .

الأسلحة الوقائية .

استعمل النبى الحسك وأحاط به عسكره ليمنع العدو من الدنو من جنده [3] كما تستعمل الجيوش الآن الأسلاك الشائكة .

وكانوا يحذرون من البيات ومباغتة العدو لهم، واستعملوا الخوذة والبيضة لوقاية الرأس والعنق، والترس لاتقاء ضربات الخصم، والدرج لوقاية الجذع والأطراف .

تطور الأسلحة ، ونظام التعبئة .

عرف العرب فيما بعد كثيرا من الأسلحة، ومنها البارود الذى اخترعه عرب

---

(١) يتنطسان : المتنطس من أدق النظر فى الأمور، واستقصى علمها – مختار الصحاح .

(٢) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

(٣) الحسك شوك مدحرج لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس – سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٠٣، إمتاع الأسماع ص ٤١٦ .

المغرب واستعملوه فى حروبهم (٦٧٣ هـ - ١٢٧٣ م) أى قبل أن تعرفه أوربا بنحو نصف قرن من الزمان [١] .

وقد وصف المسعودى حصار جند المأمون بغداد بما يبين الأسلحة والآلات التى كانت تستعمل فى الحروب فى ذلك الوقت فقال :« ونصب (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات، ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة فتأذى الناس به، وصمد نحوه خلق من العيارين، وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عراة، فى أوساطهم التبابين والميازر، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص، وسموها الخوذ، ودرقا من الخوص، والبوارى قد قيرت، وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير[٢] . ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده؛ فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر، ومقاود قد اتخذت، ولجم وأذناب من مكانس ومذاب، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة على رءوسهم خوذ، ودرق البوارى، ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك، فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول المعدة، والجواشن، والدروع، والتجافيف، والرماح، والدرق التبتية. . . .، [٣] .

من هذا يتضح أن الحرب فى الإسلام ما كانت اعتداء، وأن نظم الحرب مرت بأطوار عدة تبعا للأحوال والملابسات، وأن المسلمين قد استعملوا كل سلاح يتكافأ مع سلاح عدوهم، ويوصلهم إلى النصر، والفوز المبين .

---

(١) تاريخ ابن خدون جـ٧ ص ١٨٨ .

(٢) راجع الطبرى جـ٣ ص ٨، ٩ ومنه يتبين أن هذا النظام فى جملته كان معروفاً فى زمن النبى ﷺ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص ٣٠٧، ٣٠٨ ، والعيارون قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلا (لصوص)، والتبابين جمع تبان (بالضم والتشديد) وهى سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط (مايوه) تكون للملاحين والمصارعين، والدرق جمع درقة الجحفة وهى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب، والبوارى جمع بورى أو بورية وهو الحصير المنسوج من القصب، قيرت : طليت بالقار، والجوشن مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبن الزرد أن يكون من حلقة واحدة، والجوشن يكون حلقة حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك، والتجافيف جمع تجفاف وهو ما جلل الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ، والتبتية نسبة إلى تبت بلدة بأرض الترك - النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

البحرية

نشأة الأساطيل [١] الإسلامية

لم يكن عرب الحجاز[٢] أول الأمر – لبداوتهم – مهرة فى ركوب البحر، وثقافته، وممارسة أحواله [٣] وأول من ركبه منهم للفتح [٤] العلاء بن الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد أحب أن يؤثر فى الفرس أثراً يعز الله به الإسلام؛ ففى سنة ١٧هـ ندب أهل البحرين لفتح بلاد فارس؛ فبادروا، فحملهم فى السفن [٥] بغير إذن عمر رضى الله عنه، وعبر بهم الخليج الفارسى، ولكنه لم يفلح فى غزوته، وغرقت سفنه التى عبر بها الخليج – وإن كان قد عاد هو وجنده إلى البصرة محملين بالغنائم – فشق ذلك على عمر وعزله، «وتوعده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه»[٦] وهو يومئذ أمير الكوفة.

ولما فشا الإسلام، وخفقت أعلامه على سواحل الشام ومصر، ورأى المسلمون سفن الروم، وعرفوا مهارتهم فى ركوب البحر، والحرب فى أساطيله، تاقت نفوسهم

---

(١) الأساطيل جمع أسطول وهو السفن التى يسافر فيها للقتال، وقد وقع فى أشعار العرب بعد العصر الأول . قال على بن محمد الأمادى من قصيدة له :

أعجب بأسطول الإمام محمد وبحسنه وزمانه المستغرب

راجع كتاب شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل لشيخ الإسلام شهاب الدين الخفاجي قاضى العسكر بمصر ص ٣٨ .

(٢) مخرت سفن العرب من حمير وسبأ، البحر الأحمر، والمحيط الهندى؛ فقد كانت لهم صلات تجارية بكثير من البلاد تستدعى ركوب البحر، وساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافى؛ فبلاد اليمن يحيط بها الماء من الغرب حيث البحر الأحمر، ومن الجنوب حيث المحيط الهادى . .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٨ .

(٤) ركب عرب الحجاز البحر لغير الفتح كما حدث عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة .

(٥) سفنه يسفنه قشره، ومنه السفينة لقشرها وجه الماء، وجمعها سفائن وسفن وسفين، وصانعها سفان، وحرفته السنانة – القاموس .

(٦) الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٨٩ .

للغزو فى البحر، ومجاراة الروم فى ذلك، ولحماية السواحل والبلاد التى فتحوها، ودفع أخطار الروم عنها، وكان أشدهم توقا إلى ذلك معاوية والى الشام، فقد كتب إلى الخليفة عمر يستأذنه فى غزو الروم بحراً فأبى، فألح عليه ورغبه فى الفتح والمغانم، وقال له فيما قال: «إن قرية [1] من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر؛ فكتب إلى عمرو بن العاص أن صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه» ؛ فكتب إليه عمرو: «يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا برق [2]»؛ فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: «لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً»، «وتالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لى وقد تقدمت إليك، وقد علمت مالقى العلاء منى، ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك» [3] .

ولما ولى عثمان رضى الله عنه الخلافة «لم يزل به معاوية حتى عزم على ذلك بآخرة، وقال: «لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل [4] » .

ولما استقر الأمر للمسلمين، وشمخ سلطانهم، وخضع لهم غيرهم تقرب إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته، وأنشأوا لهم السفن والشوانى [5] ، فاستخدموا لها من

---

(١) هى قرية فى جزيرة أرواد (بالفتح ثم السكون وواو، وألف ودال)، وفتح المسلمون هذه الجزيرة سنة ٥٤ هـ فى أيام معاوية بن أبى سفيان . معجم البلدان لياقوت .

(٢) الطبرى جـ٣ ص ٣١٦ ، العقد الفريد جـ١ ص ١٠٤ لجنة التأليف، الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٩٠، مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٢٦٨ برق كفرح ونصر برقا وبرقا تحير لا يطرف، أو دهش فلم ينصر - القاموس .

(٣) الطبرى جـ٣ ص ٣١٦ .

(٤) الطبرى جـ٣ ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ط الاستقامة، تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٠٤، ١٠٥ فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٥٩ ، وما بعدها ، تاريخ أبى الفداء جـ١ ص١٦٧ ، العقد الفريد جـ١ ص ١٠٤ ، مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٨ .

(٥) الشونة (بسكون الواو) المركب المعد للجهاد فى البحر - القاموس .

النواتية [١] فى حاجتهم البحرية أمما تقوم عليها، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته؛ فاستحدثوا بصراء بها، وشرهوا إلى الجهاد فيه،وأنشأوا السفن والشوانى، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر، والمقاتلة لمن وراء البحر، الذى جعلوه مقرًّا لأساطيلهم، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر، وعلى حافته، مثل :الشام، وإفريقية، والمغرب، والأندلس [٢] .

دور الصناعة [٣] :

فى ولاية مسلمة بن مخلد على مصر، غزا الروم البرلس سنة ٥٣ هـ ، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، فاهتم أمراء مصر ببناء السفن، وأنشئت لأول مرة دار لصناعتها فى جزيرة الروضة سنة ٥٤ هـ [٤] ، أطلق عليها « دار الصناعة » .

ولما ولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة٦٥ - ٧٦ هـ) بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس، لإنشاء السفن، والآلات البحرية [٥] .

واشتهر أحمد بن طولون ٢٧٠ هـ بإنشاء السفن الحربية، وقام بتوسيع دار الصناعة وتحسينها، وجعل لها أحواضاً حول جزيرة الروضة، كانت تعرف باسم « صناعة السفن»؛ ثم انتقلت هذه الدار إلى الفسطاط فى أيام الأخشيد (٣٢٣-٣٣٤هـ) فى المصنع المعروف باسم « صناعة السفن » ؛ فغدت السفن الحربية والنيلية تصنع فى « صناعة مصر » مرة، وفى « صناعة الجزيرة » مرة أخرى [٦] .

ولما فتحت صقلية فى أيام الأغالبة فى عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات، ازداد المسلمون رغبة فى غزو البحر، فبالغوا فى إنشاء

---

(١) النوتى الملاح الذى يدير السفينة فى البحر .. وقد نات ينوت إذا تمايل من النعاس، كأن النوتى يميل بالسفينة من جانب إلى جانب وهو من كلام أهل الشام - لسان العرب .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٢٨ .

(٣) دار الصناعة: كانت فيما مضى تطلق على ما يسمى فى عرفنا الآن (الترسانة) ، وهى «اسم المكان قد أعد لإنشاء المراكب البحرية » - الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٨٩ .

(٤) الخطط للمقريزى ، جـ ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٥) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٨ ، الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٦) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

الأساطيل فى إفريقية، والأندلس، وبلغ عدد سفن الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر فى أواسط القرن الرابع الهجرى ٢٠٠ سفينة، وكان أسطول إفريقية نحو ذلك، وتعددت دور الصناعة هناك (١) .

وفى عهد الدولة الفاطمية هدد الروم بلاد الشام، واستولوا على بعضها مثل أنطاكية، وحلب؛ فدعت الضرورة إلى أسطول قوى؛ فأنشأ المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بالمقس قريباً من مدينتهم « القاهرة » ، صنع بها ٦٠٠ سفينة من أقوى السفن وأحسنها كما وصفها المسبحى المؤرخ المصرى (٤٣٠ هـ) بقوله : «إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً» (٢) .

وقد مدح ابن هانئ الشاعر الأندلسى المعز، وأشاد بأسطوله فى قصيدة طويلة منها:

لك البر، والبحر العظيم عبابه	**فسيان أغمار تخاض، وبيد**
أما والجوار المنشآت التى سرت	**لقد ظاهرتها عدة، وعديد**
مواخر فى طامى العباب كأنها	**لعزمك بأس، أو لكفك جود**
من الراسيات الشم لولا انتقالها	**فمنها قنان شمخ، وريود**
من القادحات النار تضرم للطلى	**فليس لها يوم اللقاء خمود**
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج	**كما شب من نار الجحيم وقود** (٣)

وفى أيام الظاهر بيبرس (٦٧٦ هـ) اهتم بإعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٧ هـ) ، ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن، وأمر بإنشاء الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط، وكان يذهب إلى دار الصناعة بالجزيرة، ويشرف بنفسه على إعدادها، وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكوناً من أربعين سفينة .

وكذلك كان الاهتمام بالأسطول فى أيام الأشرف قلاوون؛ فقد أنشأ أسطولا مكوناً من ستين سفينة، جهزها بالآلات الحربية وبالرجال (٤) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٢٩ .
(٢) الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ١٩٥ .
(٣) راجع ديوان ابن هانئ .
(٤) النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله .

أنواع السفن :

كانت السفن الحربية أنواعا متفاوتة فى شكلها وجرمها، وقوتها، تبعاً للأغراض المختلفة، ومن أهمها .

١- الشونة وهى مراكب كبيرة، كانوا يقيمون فيها أبراجا، وقلاعا للدفاع، وكانت تتسع لمائة وخمسين رجلا، ويحركها مائة مجداف .

٢- الحراقة : وكانوا يحملون فيها منجنيقات، يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء .

٣- الطرادة : وهى سفينة صغيرة سريعة الجرى .

معدات السفن :

كانت معدات السفن للقتال كثيرة متنوعة منها .

١- الكلاليب : وهى خطاطيف من حديد يلقونها على إحدى سفن العدو فيوقفونها ثم يشدونها إليهم، ويرمون عليها الألواح كالجسر، ريدخلون إليها، ويقاتلون من فيها .

٢- الباسليقات . وهى سلاسل فى رءوسها رمانة من حديد .

٣- التوابيت . وهى صناديق مفتوحة من أعلاها، يضعونها فى أعلى السوارى، ويجعلون فيها رجالا معهم أحجار صغيرة فى مخلاة بجانب الصندوق يرمون بها العدو، وهم مستورون بالصناديق .

٤- قوارير النفط للإشعال .

٥- جرار النورة . وهى مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ، يرمون بها فى سفن الأعداء فتعمى الرجال بغبارها .

٦- قدور الحيات والعقارب، يرمون بها فى سفن الأعداء فتحدث اضطراباً وهرجا .

٧- قدور الصابون اللين اللزج، لتزلق أقدامهم .

٨- اللجام ، وهو أداة كالفأس تجعل فى مقادم المراكب . وهى عبارة عن حديدة

طويلة محددة الرأس جدا، تدخل فى خشبة كالقناة بارزة تشبه سنان الرمح . فيحتالون فى طعن المراكب به، حتى يخشى عليها الغرق؛ فيطلب أهلها الأمان .

طرق الوقاية :

١- كانوا يعلقون حول السفينة من الخارج الجلود أو اللبود المبللة بالخل، أو الماء والشب والنطرون .

٢- الطين المخلوط بالبورق والنطرون .

٣- الخطمى المعجون بالخل؛ فإن هذه المواد تقاوم فعل النفط .

٤- كانوا لا يشعلون ناراً إذا جن الليل، ولا يتركون ديكا حتى لا يصيح، فيعلم العدو مكانهم .

٥- قد يسدلون قلوعا زرقاء على السفن، كيلا تظهر من بعد، مبالغة فى الحذر (١) .

قيادة الأساطيل :

كان لكل أسطول قائد، ورئيس، ونواتية؛ فالقائد يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاديف، وأمر إرسائه فى مرفئه، والنواتية يعملون بأمر الرئيس .

وإذا اجتمعت جملة أساطيل ولوا عليها أميرا من أعلى طبقات الدولة (٢) يسمونه أمير البحر، ومن هذا اللفظ أخذ لفظ (أميرال) الإفرنجى .

وفى عهد الفاطميين كان على رأس الأسطول المصري عشرة قواد، عليهم رئيس يسمى قائد القواد، ولهم مرتبات قد تصل إلى ٢٠ ديناراً فى الشهر، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليه، وقد بلغت الجنود البحرية فى أيامهم خمسة آلاف، لهم الرواتب المعينة .

ولما انتقل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبى اهتم بأمر الأسطول اهتماما كبيراً وأنشأ له ديواناً خاصاً سمى « ديوان الأسطول » وعهد به إلى أخيه العادل .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص٦٢٩ .

وقد اشتهر من أمراء البحر العرب، عدد كبير من بينهم، عبد الله بن سعد بن أبى شرح، وعبد الله بن قيس الحارثى، وجنادة بن أمية، وأسد بن الفرات فاتح صقلية، وأحمد الصقلى، قائد أساطيل المغرب فى القرن السادس الهجرى، الذى بلغت الأساطيل الإسلامية فى عهده منزلة لم تبلغها قبله ولا بعده .

الاحتفال بالأساطيل :

كان الفاطميون يحتفلون بالأسطول - حينما يخرج للغزو - احتفالا شائقاً، وكان الخليفة يحضر هذا الاحتفال؛ فيجلس فى منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس، لوداع الأسطول، فتنحدر المراكب، وتقلع وتفعل ما تفعله أن لو كانت فى حرب، وهو ما يسمى اليوم (مناورة)، ثم يحضر الرئيس، والمقدم بين يدي الخليفة، فيودعهما، ويدعو لهما، ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو .

وهكذا كان يفعل بعض السلاطين من بعد، كالسلطان الأشرف قلاوون، وقد ذكر المقريزى [١] وصفاً شائقاً لاحتفاله بإنشاء أسطوله وعرضه .

أثر الأساطيل فى الفتوح :

لما فتح الله على المسلمين الشام ومصر، أصبح إنشاء أسطول بحرى أمراً لازماً لحماية المرافئ، والمدن الإسلامية، ومنازلة الأعداء، الذين كانت لهم السيادة البحرية فى هذه المنطقة منذ القدم .

وكان معاوية أول من غزا الروم فى البحر؛ فقد أبحر إلى قبرص [٢] سنة ٢٨ هجرية، كما أبحر إليها أهل مصر، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ولقوا معاوية، فكان على الناس، وصالحه أهلها على ٧٠٠٠ دينار يؤدونها إلى المسلمين فى كل سنة، وعلى أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم، ويكون طريق المسلمين إلى

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) قبرص جزيرة ذات أهمية كبرى، ولموقعها الممتاز فى شرقى البحر الأبيض كانت الدول تتصارع للسيطرة عليها من عهد تحتمس الثالث؛ فموقعها يتيح لمن يسيطر عليها أن يسود هذا الجزء من البحر، وأن يبحر منها فى وقت قصير إلى لبنان ومصر وغيرهما، ولذا استهل العرب نشاط أسطولهم بغزوها .

العدو عليهم؛ وبذلك صارت قبرص نقطة اتصال بين أهل الشام وأساطيلهم التى أخذت تمخر فى بحر الروم (١) .

وحارب عبد الله بن سعد بن أبى سرح قسطنطين بن هرقل قيصر الروم، وانتصر عليه فى موقعة « ذات الصوارى » سنة ٣١ وقيل ٣٤ هـ، وكانت سفن المسلمين مائتى سفينة أو تزيد قليلا، فى حين أن سفن الروم كانت أكثر من ٦٠٠ سفينة (٢) .

ومن ثم صارت الدولة الإسلامية فى عهد عثمان رضي الله عنه دولة بحرية، بما استولت عليه من سفن الروم، وبما استحدثه معاوية، وعبد الله بن سعد من السفائن، ومن ذلك الوقت أصبحت الحملات البحرية تتوالى على البلاد البيزنطية، واستعمل معاوية عبد الله بن قيس الحارثى على البحر؛ فرتب الغزو عليها صيفاً وشتاء، وغزا خمسين غزاة بين صائفة وشاتية (٣) .

استطاع المسلمون بعد أن مرنوا على ركوب البحر، والحرب فى أساطيله، أن يفتحوا جزر بحر الروم المتقطعة عن السواحل فيه، مثل: ردوس التى كانت بها دار لصناعة السفن الرومية، وسردانية (سردينيا)، وصقلية (سيسليا) ، ومالطة، وأقريطش (كريد) وغيرها .

وسارت أساطيله فى بحر الروم ذاهبة جائية، وعليها الجنود تجيز البحر من صقلية إلى شواطئ إيطاليا، تثخن فى ممالك الإفرنج، وخصوصاً فى أيام بنى الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة الفاطميين، فانحاز الإفرنج بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى من هذا البحر (٤) .

---

(١) ركبت أم حرام بنت ملحان البحر مع زوجها عبادة بن الصامت فى هذه الغزوة، وكانت قد طلبت من النبى ﷺ أن يدعو الله لها أن تكون ممن يركبون ثبج هذا البحر؛ فقال لها ﷺ : أنت فى الأولين – راجع نص هذا الحديث فى البخارى كتاب الجهاد، والاستئذان، والتعبير، ورواه مسلم فى الإمارة، وراجع فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٥٩ .

(٢) المقريزى فى خططه جـ٢ ص ١٩٠ قال : إنها ألف سفينة .

(٣) الخطط للمقريزى جـ٢ ص ١٩٠ .

(٤) مقدمة ابن خلدون جـ٢ ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

يقول «آدم متز» : «لم يكن لأوربا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي؛ فقد كان بحراً عربيًا، وكان لابد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب، كما فعلت نابلى، وغيته، وأمالفى، ويظهر أن الملاحة الأوربية نفسها كانت فى ذلك العصر على حال يرثى لها من الضعف» . [١] .

وهكذا استطاع المسلمون منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة أن يبنوا لأنفسهم مجداً بحريًا تحدثت به انتصاراتهم الباهرة التى خلدها لهم التاريخ؛ وبذلك صاروا سلاطين البحر، كما كانوا سلاطين البر .

وظل الأمر كذلك إلى أن ضعفت الدولة الفاطمية بمصر، والأموية بالأندلس، وأفاق الإفرنج، واسترجعوا بلادهم، ثم غزوا بلاد المسلمين، وكان ما كان من الحروب الصليبية التى نشبت من سنة ١٠٩٦ إلى سنة ١٢٧٠م على ما هو معروف فى التاريخ [٢] .

كذلك كان للمسلمين أسطول تجارى كبير يمخر عباب البحر، ويحمل أصناف التجارة إلى البلاد الإسلامية، كما سيتبين فيما بعد .

* * *

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٦٣٠ .

حكومة الأقاليم

لما استقر ﷺ بالمدينة، وانتشر الإسلام في جزيرة العرب، بعث صلوات الله عليه عماله، وأمراءه إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، وكانت مهمة هؤلاء العمال، والأمراء، إمامة الناس فى الصلاة، وجمع الصدقات، وكان يختار عماله ممن عرف بالتقوى، والعلم، والفقه فى الدين .

ومن أهم عماله ﷺ :

١- عثمان بن أبى العاص	وكان على الطائف
٢- العلاء بن الحضرمى	وكان على البحرين
٣- زياد بن لبيد	وكان على حضرموت
٤- المهاجر بن أبى أمية	وكان على صنعاء
٥- عتاب بن أسيد الأموى	وكان على مكة (١)

وأول راتب فرضه النبى ﷺ للعمال هو راتب عتاب بن أسيد، وكان درهما فى كل يوم .

وفى عهد أبى بكر كانت الجزيرة العربية هى البلاد التى تحت الإدارة الإسلامية نهائيًا، وقد جعلها عدة ولايات، على كل ولاية أمير، وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة، وجمع الصدقات، والفصل فى القضايا، وإقامة الحدود، فهو أمير وقاض، ومنفذ، يقوم بعمل الشرطة .

وهذه هى الولايات وولاتها فى أيامه :

١- مكة	وعليها عتاب بن أسيد
٢- الطائف	وعليها عثمان بن أبى العاص

---

(١) راجع الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٠ ط الاستقامة، سيرة ابن هشام جـ٢ ص٣٤٩، وعتاب من مسلمة الفتح، ولما خرج النبى ﷺ إلى حنين استعمله على مكة، وكان عمره ٢٠ سنة، ومات هو وأبو بكر فى وقت واحد لم يعلم أحد منهما بموت الآخر - المعارف لابن قتيبة، خلاصة تذهيب الكمال، إمتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٤٠٣ .

٣- حضرموت وعليها زياد بن لبيد

٤- صنعاء وعليها المهاجر بن أبى أمية

٥- البحرين وعليها العلاء بن الحضرمى

وهؤلاء الخمسة هم الذين كانوا ولاة فى زمن النبى ﷺ، قرهم أبو بكر رضى الله عنه على ولاياتهم .

٦- خولان وعليها يعلى بن أمية

٧- زبيد ورمع وعليهما أبو موسى الأشعرى

٨- الجند وعليها معاذ بن جبل

٩- نجران وعليها جرير بن عبد الله البجلى

١٠- جرش وعليها عبد الله بن ثور

أما العراق والشام فكانت الحروب لاتزال قائمة فيهما، وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيهما .

وفى عهد عمر اتسعت رقعة البلاد الإسلامية؛ فقسمها إلى أقسام إدارية كبيرة، وجعل على كل قسم منها وال يتولى شئونها . حتى يسهل حكمها والإشراف عليها. وعلى مواردها .

وكان يختار الولاة من أماثل القوم وأفضلهم سمتا وهدياً، سيرا على سنن النبى صلوات الله عليه فى اختيار الأصلح للولاية . وكان يتعهدهم بالنصح والإرشاد؛ ومن ذلك نصيحته لبعض عماله التى يقول فيها «إنى لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة. فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم . ولا تجمروهم فتفتنوهم . ولا تمنعوهم فتظلموهم . وأدروا لقحة المسلمين» (١) .

وهذه هى الأمصار الكبرى فى آخر عهد عمر . وأول عهد عثمان :

١- مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعى

٢- الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

---

(١) الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٦٦ ط الأميرية .

٣- صنعاء وأميرها يعلى بن منبه

٤- الجند وأميرها عبد الله بن أبى ربيعة

٥- البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى

٦- الكوفة وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

٧- البصرة وأميرها أبو موسى الأشعرى

٨- دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان

٩- حمص وأميرها عمير بن سعد

١٠- مصر وأميرها عمرو بن العاص

وبذلك أصبح للدولة الإسلامية نظام إدارى يكفل حسن الإشراف عليها .

وفى عهد الأمويين بلغت الدولة أقصى ما وصلت إليه من الاتساع، وقد قسمت إداريًا إلى خمس إمارات كبرى يحكم كل واحدة منها أمير مرتبط بالخليفة رأسا وهى :

١- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢- مصر بقسميها : السفلى والعليا .

٣- العراقان - العربى : ويشمل بلاد بابل وآشور القديمة، والعجمى وهو بلاد فارس نفسها .

٤- بلاد الجزيرة، ويتبعها أرمينية، وأذربيجان، وبعض أراضى آسيا الصغرى .

٥- إفريقية الشمالية . وتشمل ما غرب مصر، وبلااد الأندلس، وجزيرة صقلية. وسردانية . والبليار . ومركزها القيروان .

تعين الولاة وكبار العمال :

اتبع الأمويون طريقة الخلفاء الراشدين؛ فكانوا هم الذين يعينون الولاة والقضاة وقواد الجيش، وكانوا يعينونهم من العرب، فكانت دولتهم عربية صميمة، وكان كثير من الموظفين الذين يلون هؤلاء فى المرتبة من أهل البلاد الأصليين، وكان يوكل إليهم كثير من الأعمال، وبخاصة أعمال الدواوين، واستمر الأمر كذلك إلى زمن عبد الملك ابن مروان؛ إذ نقلت الدواوين إلى العربية، ونهى عن استخدام غير العرب في أعمال الدولة، مما ترك أثراً فى نفوس غير العرب ظهر واضحا فى أيام مروان الثانى .

الوالى :

كان الوالى هو الرئيس الأعلى لحكومة الأقاليم، وهو الذى يؤم الناس فى الصلاة نيابة عن الخليفة . وإليه أعمال الخراج وبيده شئون الحرب. وله الإشراف على الشرطة. فكان يتمتع بقسط كبير من الاستقلال الداخلى، ولا يرجع إلى الخليفة إلا فى المهم من الأمور .

وكانت أعمال الجباية تناط فى كثير من الأوقات بموظف خاص يطلق عليه «صاحب الخراج» يعين من قبل الخليفة . ويقوم بمهام وظيفته مستقلا عن الوالى .

وكان الخلفاء العباسيون يتبعون سياسة تغيير الولاة بين وقت وآخر، مما جعل الولاة ينصرفون عن القيام بالأعمال المثمرة، ولا يكادون يتمون شيئا من الإصلاحات النافعة فى ولاياتهم .

وكانت أعمال الدولة لا تسند إلا إلى من عرف بالمرونة السياسية، والخبرة الإدارية، وحسن التدبير . ولكن المحاباة لم تلبث أن تغلغلت فى أيام يزيد بن عبد الملك حتى غدت عاملا أسياسيًّا فى الترشيح لتولى أعمال الدولة، كما ظهرت فيما بعد بادرة أخرى نجم عنها أسوأ النتائج؛ فقد كان بعض الولاة يعمدون كثيراً إلى إرسال شخص ينوب عنهم فى حكم البلاد التى يعينون عليها، ويقيمون هم فى حاضرة الخلافة حتى يضمنوا رضاء الخليفة الدائم بما يوالونه به هو وحاشيته من الهدايا، وليتمتعوا بمباهج حاضرة الخلافة ومسراتها، وكان أولئك النواب ينتهزون الفرصة لابتزاز أموال الدولة، والجنوح إلى الرشوة .

ظل الولاة من العرب إلى أيام المعتصم، وفى عهده ومن جاء بعده تدخل القواد الأتراك فى شئون الدولة، واستبدوا بالأمر؛ فصاروا يختارون الولاة من الأتراك مما أدى إلى تذمر كل من العرب والفرس، وإثارة الكثير من الاضطراب فى الدولة .

وكان أهم الموظفين فى الولايات هم :

صاحب الشرطة، عامل الخراج، صاحب البريد، رجال الجيش .

١- كان صاحب الشرطة هو الذى يعتمد عليه الوالى فى استتباب النظام

والضرب على أيدى المفسدين، والقبض على الجناة، وكان ينوب عن الوالى إذا غاب فى إمامة الصلاة، وأعطيات الجند .

٢- عامل الخراج: وكثيراً ما يليه الوالى بنفسه، وقد يسنده الخليفة إلى غيره، وكان إليه تقدير الضرائب وتحصيلها، ودفع أعطيات الجند، وما إلى ذلك، وإرسال ما يتبقى إلى بيت المال بحاضرة الخلافة؛ ومن ثم كان التنافس بينه وبين الوالى .

٣- صاحب البريد : وكانت مهمته أولا نقل الأخبار من دار الخلافة إلى الولايات وبالعكس، ثم اتسعت مهمته بعد أن أسند إليه الخلفاء العباسيون التجسس على ولاة الأقاليم، وكبار الموظفين، ومراقبة شئون الحكومة فى الولايات .

٤- رجال الجيش، أو المقاتلة: وكان الوالى هو الذى يقودهم فى الحروب، وربما أسند قيادتهم إلى من يرى فيه الكفاية لذلك .

تنوع الإمارات :

تنوعت الولايات وصارت متفاوتة على ما اقتضاه الزمان والمكان، ولكنها ترجع إلى إمارتين: إمارة عامة، وإمارة خاصة .

الإمارة العامة ضربان : إمارة استكفاء، وإمارة استيلاء .

إمارة الاستكفاء :

هى أن يفوض الخليفة للأمير إمارة بلد أو إقليم، ولاية على جميع أهله، ونظراً فى المعهود من سائر أعماله، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل، ومعهوداً من نظر؛ فيشتمل نظره فيه على سبعة أمور :

١- تدبير الجيوش، وترتيبهم فى النواحى، وتقدير أرزاقهم .

٢- النظر فى الأحكام، وتقليد القضاة والحكام .

٣- جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما .

٤- حماية الدين، والدفع عن الحريم، ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل .

٥- إقامة الحدود فى حق الله، وحقوق الآدميين .

٦- الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها، أو يستخلف عليها .

٧- تسيير الحجيج من عمله، ومن سلكه من غير أهله؛ فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخماً للعدو اقترن به ثامن وهو :

٨- جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم فى المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس (١) .

ويعتبر فى هذه الإمارة من الشروط ما يعتبر فى وزارة التفويض؛ لأن الفرق بينهما خصوص الولاية فى الإمارة، وعمومها فى الوزارة، وليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق فى الشروط المعتبرة فيها، ثم إن كان الخليفة هو الذى قلده الإمارة فليس لوزير التفويض عزله ولا نقله من إقليم إلى غيره، ولكن له عليه حق المراعاة والتصفح، وإن كان الوزير قد انفرد بتقليده فله عزله ونقله وإذا كان تقليد الأمير من قبل الخليفة لم ينعزل بموت الخليفة، وإن كان من قبل الوزير انعزل بموت الوزير؛ لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين، وتقليد الوزير نيابة عن نفسه، وينعزل الوزير بموت الخليفة وإن لم ينعزل به الأمير؛ لأن الوزارة نيابة عن الخليفة، والإمارة نيابة عن المسلمين (٢) .

وكانت أكثر ولايات الإسلام على هذه الصورة، وخصوصاً ما بعد منها عن مركز الخلافة كالعراق فى أيام الأمويين، ومصر والشام فى أيام العباسيين .

ومن أشهر عمال الاستكفاء فى أيام الأمويين عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه، وبشر بن مروان، والحجاج، ويزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك، وعمر بن هبيرة، وخالد بن عبد الله القسرى؛ فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف فى إمارته تصرف الملوك المستقلين، فيعين العمال على البلاد تحت إمارته، وسائر عمال حكومته، ويجبى الأموال، فينفق منها على جنده، وفيما تقتضيه مصلحة إمارته، ويرسل مايبقى عنده إلى بيت المال .

وسار الخلفاء العباسيون على غرار هذه الخطة، وكثيراً ما كانوا يفوضون إلى بعض خاصتهم عملا من الأعمال؛ فيرسل هذا من يقوم مقامه فى ذلك العمل، ويبقى هو فى حاضرة الخلافة .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص٢٤ ، ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

وكانت إمارة الاستكفاء هذه من جملة الأسباب التى ساعدت على تشعب الدولة العباسية إلى دول مستقلة؛ لأن الوالى كان يقيم فى ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بإرسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له، وضرب النقود باسمه، وأمور أخرى لا تضغط على إرادته، فإذا كان الوالى ذا دهاء، وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الإقليم على ولائه واستقل بعمله إما استقلالا تامًّا، وإما على مال معين يبعث به إلى الخليفة ببغداد، أو على شروط أخرى، وعلى هذا النمط استقل الأغالبة فى إفريقية، وابن طاهر فى خراسان، وابن طولون فى مصر . ولكن تلك الأقاليم التى استقلت كانت مع ذلك تعد إمارات عباسية، ويعبرون عنها بإمارة الاستيلاء .

إمارة الاستيلاء :

وهى أن يستولى الأميرة بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها؛ فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة، ومن الحظر إلى الإباحة .

الإمارات الخاصة :

هى أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش، وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والدفاع عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء أو الأحكام، أو لجباية الخراج والصدقات فى شيء حتى الإمامة فى الصلاة فربما كان القاضى أولى بها منه .

والخليفة يعين لهذه الإمارة قضاة وجباة من عنده، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزى، وهم يؤدون أعطيات الجند وغيرها مما يجمعون [١] .

والإمارات الخاصة كانت قليلة فى أيام الدولة العباسية.

* * *

---

(١) راجع الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ٢٤ ، ٢٨ .

الفصل الخامس

نشأة العلوم الإسلاميّة وبدء الحياة العلميّة

- الحديث.
- التفسير.
- الفقه.
- النحو.

الحديث [1]

الحديث هو ما أضيف إلى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

منزلته من القرآن:

والحديث هو الأصل الثانى من أصول التشريع الإسلامى. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء ٥٩]، وطاعة الله هى امتثال ما جاء فى كتابه، وطاعة رسوله هى امتثال ما بينه لنا من تشريع.

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾[الحشر:٧]

وقال عز وجل: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨].

وقال ﷺ فى حجة الوداع: «أيها الناس إنى تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى» [2].

وقال صلوات الله عليه: «ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله [3]» إلى كثير من الآيات والأحاديث.

كذلك نرى أن كثيراً من آيات القرآن الكريم مجملة، أو مطلقة، أو عامة، والسنة

---

(١) الحديث فى اللغة الكلام الذى يصدر عن المتكلم، وإذا نسب إلى النبى ﷺ كان معناه الذى تكلم به، والسنة فى اللغة الطريقة، وإذا أضيفت إلى النبى ﷺ كان المراد كل ما أثر عن النبى ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير؛ وعلى هذا فالحديث أخص من السنة، ولكن جرى عرف كثير من المحدثين بجعل الحديث مرادفا للسنة.

(٢) أخرجه الحاكم عن ابن عباس، وقد قدمناه فى ص ٣٥ كلمة منزلة السنة.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه، وراجع مقدمة تفسير القرطبى ص ٣٧.

هى التى بينت المراد منها؛ بتفصيل المجمل، وتقييد المطلق، وتخصيص العام، كما يتبين من حديث عمران بن الحصين المتقدم.

وقد تجيء السنة بتشريع مبتدأ لم يذكر فى القرآن، ومن ذلك قوله ﷺ: «ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها».

وقد حرمت السنة لبس الحرير والتختم بالذهب للرجال، وكل ذى مخلب من الطيور، وهذه الأحكام، وكثير غيرها مما ملئت به كتب السنة لم يرد لها ذكر فى القرآن [١].

ومن هذا نتبين منزلة السنة، وأنها مكملة للكتاب، وهى الأصل الثانى للتشريع الإسلامى.

وقد عرف بعض المستشرقين للسنة منزلتها فقال: «وغدت تلك الأحاديث إلى جانب القرآن المنابع الأصلية للتشريع الإسلامى [٢]».

ولقد أحسن القائل إذ يقول:

إن العلوم وإن جلت محاسنها فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه وبعد ذلك علم فرج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه نور النبوة سن الشرع والأدبا

إقبال المسلمين على الحديث وعنايتهم به:

عنى كثير من أصحاب النبى ﷺ برواية الحديث، ولعل الذى كان يحفزهم على هذه العناية حث النبى ﷺ على ذلك؛ فقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتى، فحفظها، ووعاها، وأداها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه [٣]»

---

(١) راجع مقدمة تفسير القرطبى ص ٤٩، ٤٠.
(٢) الحضارة العربية للأستاذ ى. هل ص ٥٦.
(٣) رواه الشافعي والبيهقى، ورواه أبو داود والترمذى بلفظ: «نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» وقال الترمذى: حسن صحيح.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت على بن أبى طالب كرم وجهه يقول: «خرج علينا رسول الله ﷺ؛ فقال: اللهم ارحم خلفائى. قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس[١]».

وروى عن أسامة بن زيد وعن كثير من الصحابة رضى الله عنهم أن النبى ﷺ قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[٢]».

وروى النووى عن أكثر من واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أن رسول الله ﷺ قال: «من حفظ على أمتى أربعين حديثًا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء[٣]».

فهذه الأحاديث وأمثالها كانت تحفز المسلمين إلى التلقى عن الرسول ﷺ، ثم رواية ما يتلقونه لمن لم يسمعه منه.

الإقلال من رواية الحديث فى عهد الخلفاء:

كانت الظاهرة السائدة فى عهد الخلفاء الراشدين الإقلال من الرواية عن النبى ﷺ والتثبيت منها والتشدد فيها؛ فقد كان كبار الصحابة يخشون من كثرة الرواية:

١ - لئلا تزل بالمكثرين أقدامهم فيسقطوا فى هوة الخطأ والنسيان فيكذبوا على رسول الله ﷺ من حيث لا يشعرون، وربما استتبع ذلك اختلاف وفرقة بين المسلمين.

٢ - ولئلا يشتغل الناس برواية الحديث، وينصرفوا عن تلاوة القرآن ولما يتيسر حفظه لكثير منهم. روى عن قرظة بن كعب أنه قال: «لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا، وقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم،مكرمة لنا. قال: ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا

---

(١) رواه الرامهرمزى فى كتابه «المحدث الفاصل بين الراوى والواعى» بسنده عن عطاء بن يسار عن ابن عباس رضى الله عنهما، وراجع نيل الأمانى للأبيارى.

(٢) راجع مقدمة القسطلانى، ونيل الأمانى للأبيارى، مقدمة تفسير القرطبى ص ٣٦.

(٣) مقدمة الأربعين النووية للإمام النووى.

القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله، وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا. قال: نهانا عمر [١]».

٣ - ولئلا يتخذ المنافقون والذين فى قلوبهم مرض من شيوع الحديث ذريعة للتزيد فيه، وسلما لتزييف الحديث على رسول الله ﷺ فينفتح باب الكذب على رسول الله ﷺ، ويقع هؤلاء فيما توعد به الرسول صلوات الله عليه من كذب عليه حيث يقول: «حدثوا عنى ما تسمعون ولا تقولوا إلا حقًّا، ومن كذب علىَّ بنى له بيت فى جهنم يرتع فيه».

وقد كثرت الروايات بهذا المعنى حتى عد العلماء هذا الحديث من المتواتر.

وكانت الكثرة الكثيرة من كبار الصحابة وجلتهم كأبى بكر، وعمر، وأبى عبيدة يقلون الرواية، حتى إن سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة لم يرو له إلا حديثان أو ثلاثة، والشعبى يقول: «جالست ابن عمر فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ شيئًا»؛ فكان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون عند قوله ﷺ: «إياكم وكثرة الحديث، ومن قال عنى فلا يقولن إلا حقًّا».

ومما يدل على تثبتهم، وتشددهم فى الرواية ما رواه ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث فقال: ما أجد لك فى كتاب الله شيئا، وما علمت أن الرسول ﷺ ذكر لك شيئا، ثم سأل الناس، فقام المغيرة بن شعبة، فقال: كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه [٢].

وروى الذهبى أن عمر قال لأبى - وقد روى له حديثا -: لتأتينى على ما تقول ببينة، فخرج فإذا ناس من الأنصار، فذكر لهم، قالوا سمعنا هذا من رسول الله ﷺ؛ فقال عمر: أما إنى لم أتهمك ولكن أحببت أن أتثبت.

---

(١) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبى.

(٢) راجع موطأ الإمام مالك فى كتاب الفرائض.

رواية الحديث بعد عهد الخلفاء :

بعد عهد الخلفاء كان كبار الصحابة قد انتقلوا إلى الدار الآخرة، وظهرت فى المسلمين فرق وأشياع من خوارج، وشيعة، وزنادقة، كما حدثت شئون تقتضى معرفة حكم الدين فيها، فكان ذلك مدعاة لأن يحدث فى الرواية أمران هامان :

(أ) شيوع الرواية؛ إذ المتشددون فيها الذين كانوا يخيفون الناس بدرتهم كعمر، أو وقارهم كأبى بكر قد ماتوا، ولم يبق للناس من ملجأ إلا من بقى من الصحابة، ومن عاصرهم من كبار التابعين، فكان الناس يستفتونهم فيما جد عليهم من شئون فيفتونهم بما حفظوا من أحاديث سمعوها عن النبى ﷺ مباشرة. أو سمعوها من كبار الصحابة.

(٢) ظهور الكذب فى الحديث؛ روى مسلم عن مجاهد، قال : « جاء بشير العدوى إلى ابن عباس، فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ : قال : فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه (لا يصغى له) ولا ينظر إليه فقال : يا ابن عباس، مالى أراك لا تسمع لحديثى؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع. فقال ابن عباس : إنا كنا مدة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف »(١).

وكان من أهم ما حمل الناس على وضع الحديث أمران :

١ - إن الفرق التى نشأت لذلك العهد كانوا يعملون جاهدين لنصرة مبادئهم، وما كانوا يتحرجون فى سبيل نصرة هذه المبادئ أن يختلقوا الحديث، وينسبوه للنبى ﷺ لتأييد رأيهم، وتأكيد مدعاهم.

ومن ذلك ما روته الشيعة فى أحقية على بالخلافة من أنه ﷺ قال : « من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا هل بلغت. ثلاثا ».

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٨ ط المصرية.

٢ – كانت توضع الأحاديث زلفى للحاكمين، ومن ذلك ما روى أن غياث بن إبراهيم النخعى دخل على المهدى – وكان يعجب بالحمام الطيار (الزاجل) الذى يجىء من الأماكن البعيدة – فروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا سَبَق إلا فى خف أو حافر أو نصل أو جَناح » فقال المهدى بعد أن أعطاه منحة وخرج : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ﷺ ، ما قال رسول الله ﷺ : « أو جناح » ولكن هذا أراد أن يتقرب إلينا، يا غلام اذبح الحمام . فذبح حماما بمال كثير، فقيل يا أمير المؤمنين: وما ذنب الحمام؟ قال: من أجهلن كذب على رسول الله ﷺ . (١) .

نخل الأحاديث

كان وضع الحديث وافتراؤه مدعاة لظهور طائفة من العلماء الأعلام فى القرن الثانى من الهجرة سموا علماء الجرح والتعديل جعلوا همهم غربلة الأحاديث والبحث عن حال الرواة من التابعين فمن بعدهم، ووصف كل منهم بالوصف الذى يناسبه من إتقان وضبط وعدالة وجرح وما إلى ذلك من أوصاف وزنت بموازين دقيقة تبين وصف كل راو؛ فمن عدله هؤلاء الأعلام قبلت روايته، ومن جرحوه ترك حديثه؛ ولذا اهتموا بالإسناد، وصاروا يسألون عنه بعد أن كان الناس يتلقون الحديث دون السؤال عن إسناده؛ فما وجدوه عند أهل السنة أخذوه، وما وجدوه عند الفرق الأخرى لا يأخذونه.

وإلى هذا يشير مسلم فى صحيحه؛ إذ يروى عن ابن سيرين أنه قال: « لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم » .

وعلى نهجهم سار من بعدهم فى تحرى الأحاديث وبيان صحيحها من سقيمها. حتى عنى بعض العلماء بتأليف الكتب فى الأحاديث الموضوعة، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب : « اللآلئ المصنوعة » للسيوطى رتبه على كتب وأبواب يسهل بواسطتها الكشف عن الحديث .

---

(١) راجع جامع الأصول لابن الأثير الجزرى جـ١ ص ٧٦ .

تدوين الحديث

كان القرآن ينزل على النبى ﷺ منجما فيحفظه ويبلغه الناس ويأمر كتاب الوحى بكتابته فى موضع كذا من سورة كذا .

وقد كتب القرآن كله فى زمن النبى ﷺ فى العسب، واللخاف والرقاع، وقطع الأديم، وعظام الأكتاف، والأضلاع (١) .

أما السنة فلم تدون « فى زمن النبى ﷺ على النحو الذى كتب به القرآن، فلم يأمر النبى ﷺ أحداً من كتاب الوحى بكتابة حديثة وإن وجد من بعض الأفراد كتابة شيء من الحديث فذلك قليل، وهذا يرجع إلى :

١- أن عامة الصحابة لا يعرفون الكتابة، والأفراد القلائل الذين كانوا يكتبون انحصر عملهم فى كتابة القرآن والرسائل، ولو أنهم كلفوا مع ذلك كتابة السنة لوقعوا فى الحرج .

على أن أدوات الكتابة كانت نادرة لديهم، فكانوا يعتمدون على الحفظ لقوة ذاكرتهم وسيلان أذهانهم .

٢- أنهم كانوا يعتمدون على ملكة الحفظ التى امتازوا بها، فلو أنهم كتبوا السنة أيضاً لاعتمدوا على المكتوب، وأهملوا الحفظ فتضيع ملكته التى امتازوا بها .

٣- أنه قد يلتبس الأمر على بعض الناس وتشتبه عليهم الآية من القرآن بالحديث من كلام النبى ﷺ .

قال فى مقدمة فتح البارى (٢) : اعلم أن آثار النبى ﷺ لم تكن فى عصر أصحابه، وكبار تبعهم مدونة فى الجوامع، ولا مرتبة لأمرين :

---

(١) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص، ويكتبون فى الطرف العريض، واللخاف جمع لخفة (بفتح اللام وسكون الخاء) وهى الحجارة الرقاق، والرقاع جمع رقعة، وقد تكون من جلد، أو ورق، أو كاغد، وقطع الأديم: قطع الجلد .

(٢) جـ ١ ص ٤ ط بولاق .

أحدهما : أنهم كانوا فى ابتداء الحال نهوا عن ذلك كما ثبت فى صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .

وثانيهما : لسعة حفظهم، وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة .

ومن ثم يتبين أن كتابة القرآن فقط دون الحديث تجعل المجال متسعا للقرآن لينفرد بالكتابة والحفظ معا، وحتى يثبت فى صدور الحفاظ وتألفه أسماعهم؛ فإذا زال خطر الالتباس، وأمن الاشتباه زال البأس من كتابة الحديث .

النهى عن كتابة الحديث والإذن فيها :

نهى النبى ﷺ عن كتابة الحديث . أخرج مسلم [1] وغيره عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه، وحدثوا عنى فلا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ؛ فقد نهى ﷺ أصحابه عن كتابه الحديث، وأجاز لهم روايته ونقله عنه مع تحذيره لهم من الكذب عليه .

وإلى جانب هذا النهى نجد أنه قد كتبت بعض الأحاديث فى عهده ﷺ وبإذنه، من ذلك ما رواه البخارى من أن أبا شاه اليمنى التمس من رسول الله ﷺ أن يكتب له شيئا سمعه من خطبته عام الفتح فقال : «اكتبوا لأبى شاه» [2] .

وما رواه البخارى أيضا عن أبى هريرة من أنه قال: «ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» . وما رواه داود والحاكم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «قلت يا رسول الله أسمع منك الشيء أفأ كتبه؟ قال نعم : قال فى الغضب والرضا؟ قال: نعم فإنى لا أقول فيهما إلا حقًّا» .

وقد وفق بعض العلماء بين نهى النبى ﷺ عن كتابة الحديث وإذنه بالكتابة فقالوا :

---

(١) فى الزهد، ورواه أبو داود والترمذى فى العلم، ورواه ابن ماجه فى السنة .
(٢) أخرجه البخارى فى أبواب : العلم، واللقطة، والديات .

١- إن النهى كان لخوف الاختلاط والالتباس بالقرآن، وكانوا يكتبون الحديث مختلطا بالقرآن فى رقعة واحدة، والإذن كان بكتابة ذلك منفرداً حتى يؤمن الالتباس .

٢- أو النهى كان متقدما لخوف التباس القرآن بالحديث أو لخوف الاتكال على الكتابة، وإهمال الحفظ، وكان الإذن متأخراً ناسخا للنهى السابق عند أمن اللبس، أو عدم الخوف من الاتكال على المكتوب .

وذكر ابن كثير عن البيهقى وابن الصلاح وغير واحد أنهم قالوا : «لعل النهى عن ذلك كان حين يخاف التباسه بالقرآن، والإذن فيه حين أمن ذلك . ثم قال : ولقد حكى إجماع العلماء فى الأمصار المتأخرة على تسويغ كتابة الحديث، وهذا أمر مستفيض شائع ذائع من غير نكير» [١] .

أول من دون الحديث :

لم يدون الحديث بالمعنى المتبادر من التدوين إلا فى أوائل القرن الثانى من الهجرة .

وفى أول من دون خلاف :

١- قال القسطلانى : وكان أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه بالكتابة عمر ابن عبد العزيز على رأس المائة، كتب إلى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه؛ فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء [٢] .

٢- وذكر صاحب فتح البارى [٣] فى باب كتابة العلم ما نصه : «وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير والحمد لله» .

وقيل غير ذلك .

---

(١) اختصار علوم الحديث لابن كثير ص١٤٧، ١٤٨ ، التقريب للنووى ص٢١ .

(٢) كما فى الموطأ من رواية محمد بن الحسن عن يحيى بن سعيد، وأبوبكر هذا كان عامله على المدينة .

(٣) جـ١ ص٨١٥ ط ، الأميرية، وراجع البخارى فى باب : كيف يقبض العلم .

دواعى التدوين :

من أهم دواعى التدوين :

١- انتشار العلماء فى الأمصار، وخوف ضياع الحديث بذلك :

٢- موت العلماء الحفاظ، وإهمال الحفظ فيمن بعدهم .

٣- كثرة الابتداع الذى أحدثه الخوارج والرافضة والشيعة وأحزابهم .

وهذه الدواعى تستفاد من أمر عمر بن عبد العزيز لأبى بكر بن محمد، ومن مقدمة الفتح (١) وفيها : « ... ثم حدث فى أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء فى الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار » ، وفى الحق لم يحظ علم من العلوم الإسلامية بالنظر والتمحيص مثل ما حظى علم الحديث .

طرائق المحدثين فى التدوين :

تنوعت طرائق المحدثين في التدوين، ونحن نوجز القول فى طرائقهم (٢) فنقول :

١- كان الأوائل منهم يجمعون أحاديث كل باب على حدة :

٢- قام من بعدهم جماعة من كبار المحدثين دونوا الأحكام . ومن هذه الطبقة عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة، والأوزاعى بالشام، والإمامان أبو حنيفة والثورى بالكوفة، والإمام مالك بن أنس عالم المدينة وإمامها فجمع كتابة الموطأ الذى اشتهر وانتشر، ورواه عنه العلماء من جميع الأمصار، وقد توخى فيه القوى من حديث رسول الله ﷺ عند أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

٣- رأى بعض الأئمة أن يقصروا تدوينهم على ما روى عن النبى ﷺ وكانوا يجمعون الأحاديث التى يرويها كل صحابى على حدة، وأطلق على ذلك « المسند » فيقولون : مسند أبى بكر، مسند عمر، مسند ابن عباس وهكذا . ومن هذه الطبقة أبو داود الطيالسى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وابن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ، والإمام أحمد ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ومسنده يشتمل على أكثر من ثلاثين ألف حديث .

---

(١) مقدمة الفتح ص٤ ط بولاق ، وانظر مذكرة رجال الحديث للمؤلف .

(٢) راجع مذكرة رجال الحديث للمؤلف .

٤- جاء من بعدهم من الأئمة فكان تصنيفهم على سبل شتى : فمنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً ، ومنهم من تقيد بالصحيح فقط كالشيخين: البخارى ومسلم، وصحيحاهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، ومنهم من لم يتقيد به كبقية أصحاب الكتب الستة وهى : سنن أبى داود، سنن الترمذى، سنن النسائى، سنن ابن ماجه.

٥- ثم جاء بعدهم جماعة رأوا الاقتصار على ذكر الصحابى، وتركوا سند الحديث، واقتصر بعض هؤلاء على كتاب واحد كما فعل الحافظ أبو العباس الزبيدى فى صحيح البخارى وسمى كتابه (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح). وبعضهم جمع ما فى عدة كتب من كتب السنة كما فعل مجد الدين بن الأثير الجزرى؛ فإنه ألف كتابا جمع فيه صحيحى البخارى ومسلم، وموطأ مالك، وجامع الترمذى، وسنن أبى دود وسنن النسائى وسماه: «جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ» .

ومن هذا العرض الموجز نعرف الكثير من رواد هذا العلم الجليل .

* * *

التفسير

التفسير لغة التبيين والإيضاح ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : ٣٣] أى تبييناً وإيضاحا [١]. واصطلاحا علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية [٢] .

فضل التفسير والحاجة إليه :

فصل التفسير عظيم، وحاجة الناس إليه شديدة، فإن الأفراد والجماعات لا يصلون إلى غايتهم من السعادة فى الدنيا والآخرة إلا بالاسترشاد بالقرآن، والعمل بتعاليمه، وهديه ونظمه الحكيمة، والعمل بهذه التعاليم السامية الحكيمة؛ والإفادة منها لا يتأتى إلا بعد فهم القرآن وتدبره، والتفسير هو الذى يتأتى به الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن الكريم خصوصاً فى هذه العصور التى فسدت فيها ملكة البيان؛ قال الأصبهانى : « أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن » [٣] .

وفى بيان الحاجة إلى التفسير يقول السيوطى : « إن القرآن إنما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر، مع سؤالهم النبى ﷺ فى الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] فقالوا : وأينا لم يظلم نفسه! ففسره النبى ﷺ بالشرك، واستدل عليه بقوله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير فقال : « ذلك العرض »، وكقصة عدى بن حاتم فى

---

(١) قال فى لسان العرب : الفسر البيان ... والتفسير مثله .. والتفسير والتأويل والمعنى واحد .. الفسر كشف المغطى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، وراجع القاموس .

والتأويل لغة مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وفى القاموس : « أول الكلام تأويلا وتأوله دبره وقدره وفسره » والتأويل اصطلاحا مرادف أيضاً للتفسير، وقيل التفسير أعم، وقيل غير ذلك – الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص١٧٣ وراجع لسان العرب، والإكليل فى المتشابه والتأويل لابن تيمية ص ٢٣ .

(٢) منهج الفرقان للشيخ محمد سلامه جـ ٢ ص ٦ .

(٣) الإتقان للسيوطى ص ١٧٥ .

الخيط الأبيض والأسود، وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه، ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر؛ لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم؛ فنحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير، ومعلوم أن تفسير بعضه يكون من قبل الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض »(١) .

حكمه :

أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات (٢) .

أقسام التفسير

التفسير أقسام ثلاثة :

(أ) تفسير بالرواية ويسمى التفسير بالمأثور .

(ب) تفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى .

(جـ) تفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشارى (٣) .

(أ) التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو بيان معنى القرآن الكريم بما جاء فى القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة؛ فالأول مثل قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ [الطارق: ١-٣]، فإن كلمة «النجم الثاقب» بيان لكلمة «الطارق» التى قبلها، والثانى مثل تفسيره ﷺ . الظلم بالشرك فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام: ٨٢] مستدلا بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: ١٣]، والثالث : «مثل ماصح وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٧٤ . (٢) المصدر السابق ص ١٧٥ .

(٣) جعل العلامة ابن خلدون فى مقدمته جـ ٢ ص ٩٩٧ التفسير على صنفين: «تفسير نقلى مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ... والصنف الآخر من التفسير هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب، والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب» وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التفسير أربعة: حلال وحرام لايعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله - وراجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١٨٢ .

من تفسير القرآن الكريم؛ لأنهم شاهدوا الوحى، وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب، ولهم من سلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم، وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله» . ولذلك أطلق بعضهم كالحاكم فى المستدرك القول بأن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع (١) .

وأما ما ينقل عن التابعى ففيه خلاف العلماء؛ فمنهم من اعتبره من المأثور لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأى (٢) .

«وفى تفسير ابن جرير الطبرى كثير من المنقول عن الصحابة والتابعين فى بيان القرآن الكريم، بيد أن الحافظ ابن كثير يقول: إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود، والفرس، ومسلمة أهل الكتاب» (٣) .

طبقات المفسرين

١- طبقة الصحابة :

قال صاحب الإتقان . «اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة . الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً، وكأن السبب فى ذلك تقدم وفاتهم (٤) ، واشتغالهم بأمور المسلمين، على أنهم كانوا بين قوم منهم الكثير من العلماء بكتاب الله العارفين بمعانيه وأحكامه، أما على كرم الله وجهه فقد عاش بعدهم حتى اشتدت حاجة الناس فى زمانه إلى من يفسر لهم القرآن الكريم، لاتساع رقعة البلاد، ودخول الأعاجم فى الإسلام، ونشأة جيل من أبناء الصحابة كان فى حاجة إلى علم الصحابة .

هذا إلى ما امتاز به كرم الله وجهه من خصوبة الفكر، وغزارة العلم وإشراق القلب، وصلته الوثيقة برسول الله ﷺ، وقرابته وصهارته له؛ فلا جرم أن كان ما نقل عنه أكثر مما نقل عن غيره، وقد روى عنه أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت إن ربى وهب لى قلباً عقولا، ولساناً سؤولا» (٥) .

---

(١) الإتقان للسيوطى ص ١٧٦ ، مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ٦٩٦ .

(٢) الإتقان للسيوطى ص ١٧٨ ، ١٧٩٩ .

(٣) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى .

(٤) جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٥) راجع مقدمة تفسير القرطبى ص ٣٥ .

وابن مسعود المتوفى بالمدينة سنة ٣٢ هـ كان من أعلام الصحابة، ومن أعلمهم بكتاب الله تعالى، وقد قال فيه على كرم الله وجهه - حين قيل له أخبرنا عن ابن مسعود - : «علم القرآن والسنة، ثم انتهى وكفى بذلك علماً» .

وابن عباس المتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ . كان ترجمان القرآن، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وقد دعا له النبى ﷺ بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» .

وكان أبى بن كعب المتوفى سنة ٢٠ هـ من أعلام القراء، ومن كتاب الوحى، ومن المكثرين فى التفسير المبرزين فيه، وقد ورد فيه: «وأقرؤهم لكتاب الله عز وجل أبى بن كعب» .

وهؤلاء الأربعة: «على، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى بن كعب» هم المكثرون فى التفسير من الصحابة، وأما بقية العشرة فمع شهرتهم فى التفسير كانوا أقل من الأربعة المذكورين .

كذلك روى عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة اليسير من التفسير كأنس، وأبى هريرة، وابن عمر، وجابر، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين [١] .

٢- طبقة التابعين :

المفسرون من التابعين طبقات ثلاثة :

(أ) طبقة أهل مكة . (ب) طبقة أهل المدينة .

(جـ) طبقة أهل العراق .

(أ) طبقة أهل مكة كانت أعلم الناس بالتفسير؛ فهم أصحاب ابن عباس كما قال السيوطى نقل عن ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير، وطاووس» . وكلهم ثقات فى الرواية عن ابن عباس، رضى الله عنهم [٢] .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٢) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١٨٩ .

(ب) طبقة أهل المدينة، ومن أشهر رجالها: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى .

(جـ) طبقة أهل العراق، ومن أعلام هذه الطبقة: مسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، والحسن البصرى، ومرة الهمذانى الكوفى .

هؤلاء وأضرابهم هم أعلام المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وعنهم أخذ تابعو التابعين، وهكذا حتى وصل إلينا كتاب الله، وعلومه ومعارفه سليمة كاملة عن طريق التلقى جيلا عن جيل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

نقد المروى عن التابعين :

يلاحظ فى المروى عن التابعين اعتبارات مهمة توجه النقد إليه، منها :

١- أنهم لم يشاهدوا الوحى، ولم يشافهوا الرسول ﷺ؛ فيجوز أن يكون ما روى عنهم من تفسير القرآن من قبيل الرأى، فليس له قوة المرفوع إلى النبى ﷺ .

٢- إنه يندر فيه الإسناد الصحيح .

٣- اشتماله على إسرائيليات انسابت إليه تارة من زنادقة الفرس، وأخرى من بعض مسلمة أهل الكتاب، إما عن حسن نية، وإما عن سوء نية .

وصفوة القول إن التفسير بالمأثور نوعان :

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله، وهذا يجب قبوله وعدم رده .
ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب التى أشرنا إلى بعضها، وهذا يجب رده، لعل الذين أطلقوا القول فى رد المأثور إنما أرادوا المبالغة عذرهم أن الصحيح منه قليل نادر حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث» (١) .

---

(١) الإتقان للسيوطى ص ١٨٩، علوم القرآن للأستاذ أحمد على، رحمة الله عليه، وراجع مناهل العرفان للشيخ الزرقانى .

٣- طبقة جمعت أقوال الصحابة والتابعين :

ومن أشهر هؤلاء :

١- شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

٢- وكيع بن الجراح . المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

٣- سفيان بن عيينة . المتوفى سنة ١٩٨ هـ .

٤- يزيد بن هارون السلمى أحد الأعلام الحفاظ قال فيه أبو هاشم : «إمام لا يسئل عن مثله» . توفى سنة ٢٠٦ هـ .

٥- آدم بن أبى إياس . المتوفى سنة ٢٢١ هـ . وهو ثقة مأمون متعبد من خيار خلق الله .

٦- أبو بكر بن أبى شيبة الإمام الحافظ المتوفى سنة ٣٢٥ هـ [١] .

٧- إسحق بن راهويه الإمام الحافظ المتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

٤- طبقة ابن جرير الطبرى :

ومن أعلام هذه الطبقة :

١- ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ صاحب التفسير الذى لم يصنف مثله .

٢- ابن أبى حاتم . المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

٣- ابن ماجه . المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .

٤- ابن مردويه . المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

٥- أبو الشيخ ابن حبان البستى . المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

٥- طبقة من يحذف الأسانيد :

مفسرو هذه الطبقة «اختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى؛ فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر

---

(١) الإتقان للسيوطى ص ١٩٠ ، المعارف لا بن قتيبة، خلاصة تذهيب الكمال .

بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانًا أن له أصلا، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح، ومن يرجع إليهم فى التفسير. ومن أشهر هؤلاء:

١- أبو إسحاق الزجاج النحوى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٢- أبو على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

٣- أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ .

٤- أبو العباس المهدوى المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

٦- طبقة البارعين فى نوع من العلوم :

تنوعت تفاسير هذه الطبقة، وغلب على كل مفسر الفن الذى برع فيه؛ فنرى الفخر الرازى يغرم بأقوال الفلاسفة وشبههم ، والرد عليها، والقرطبى يولع بتقرير الأدلة للفروع الفقهية، والرد على المخالفين، وأبو حيان يهتم بالإعراب ووجوهه، كما اهتم أصحاب المذاهب المتطرفة بتأويل الآيات بما يؤيد تطرفهم [(١)] .

تدوين التفسير بالمأثور :

يبدأ تدوين التفسير بالمأثور فى عهد أتباع التابعين؛ فقد ألفت فى ذلك العهد تفاسير كثيرة جمعت أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، وإسحاق بن راهويه،وغيرهم .

ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبرى وابن ماجه وابن حبان إلى أمثالهم . وتفاسير هؤلاء الأعلام كلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط فهو يفوقها فى ذلك، وهو أجلّ التفاسير وأعظمها، وقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله، قال النووى فى تهذيبه: «كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله» [(٢)] .

(١ ، ٢) الإتقان ص ١٩٠ .

ومن أجلّ التفاسير بالمأثور :

١- تفسير بقى بن مخلد القرطبى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ، وقد سمع من أحمد ابن حنبل، ورحل إلى مصر والحجاز وبغداد . قال ابن حزم: « أقطع أنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولا غيره » ومن سوء الحظ أن هذا التفسير الفريد لم يكتب له البقاء كما كتب لغيره كتفسير ابن جرير مثلا .

٢- تفسير ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . وهو من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً .

٣- تفسير السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ لخصه من تفسير ترجمان القرآن ابن عباس .

(ب) التفسير بالرأى

التفسير بالرأى والاجتهاد متى كان بعيداً عن الجهالة والضلالة مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه كان تفسيرا محمودا وإلا كان مذموماً .

وأمهات الأمور التى يجب الاستناد إليها كما فى الإتقان للسيوطى هى: [١]

١- الاعتماد على ما نقل عن النبى ﷺ مما ينير السبيل أمام المفسر مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

٢ - الأخذ بقول الصحابى، فإنه فى حكم المرفوع، وإن كان بعضهم خصه بما لا مجال للرأى فيه، كأسباب النزول .

٣- المعرفة بأساليب اللغة، والخبرة بقوانينها .

٤- أن يكون المفسر بصيراً بقوانين الشريعة، حتى ينزل كلام الله على المعروف من شريعته .

---

(١) الإتقان ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

وهذه الشروط وغيرها إنما هى لتحقيق أعلى مراتب التفسير، أما المعانى العامة التى يستشعر منها المرء عظمة مولاه، والتى يفهمها كل إنسان عند إطلاق اللفظ الكريم، فهى قدر يكاد يكون عامًا بين عامة الناس، وهو المأثور به للتدبر والتذكر، وذلك أدنى مراتب التفسير، لأنه سبحانه يسره وسهله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

أشهر المفسرين بالرأى

من أشهر المفسرين بالرأى:

١- الإمامان الجلالان، صاحبا التفسير المسمى: (تفسير الجلالين).

٢- الإمام البيضاوى، صاحب التفسير المسمى: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

٣- الإمام فخر الدين الرازى، صاحب التفسير المسمى: (مفاتيح الغيب).

٤- أبى السعود، صاحب التفسير المسمى: (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم).

٥- النسفى، صاحب التفسر المسمى: (مدارك التنزيل وحقائق التأويل).

٦- الآلوسى، صاحب التفسير المسمى: (روح المعانى).

جـ- التفسير الإشارى

وتفاسير الفرق المختلفة

تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضته لنفسها؛ فظهر كثير من التفاسير التى تنطبع فيها صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم، وتباين منازعهم؛ فنجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة، وتفاسير المعتزلة تظهر فيها عقيدة الاعتزال، وتفاسير الشيعة تظهر فيها عقيدة التشيع، وهكذا:

ويمكن إرجاع هذه التفاسير إلى نوعين:

الأول: التفسير الإشارى.

الثانى: تفسير أهل الكلام.

والنوع الأول: وهو التفسير الإشارى أو التفسير الصوفى، هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف، مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر .

ومن هنا يفترق عن تفسير الباطنية الملاحدة كما سيتبين بعد .

والتفسير الإشارى مقبول إذا توافر له شروط ثلاثة :

١- ألا يكون تأويلا بعيداً، يتنافى مع ما يظهر من معانى النظم الكريم .

٢- ألا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر .

٣-أن يكون له شاهد من الشرع يؤيده .

ونرى اقتداء بالإمام الغزالى، عدم التعويل على هذه التفسيرات؛ لأنها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط، وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، ولا تخلو من الدس والوضع، فالبعد عنها بعد بالنفس عن المزالق واستبراء للدين .

وفى التفاسير المأمونة التى ظاهرت قوانين الشريعة واللغة مندوحة عن هذه الشبهات، وأهم كتب التفسير الإشارى أربعة :

١- تفسير النيسابورى .	٢- تفسير الآلوسى .
٣- تفسير التسترى .	٤- تفسير ابن العربى .

فأما الأولان، فإنهما يذكران المعنى المراد، ثم يليه التفسير الإشارى معنوناً بكلمة: (ومن باب الإشارة) مثلا .

وأما الأخيران، فقد سلكا مسلك الصوفية، مع الموافقة لأهل الظاهر .

والنوع الثانى: وهو تفاسير أهل الكلام، وهم فرق، تناولت كل فرقة كتاب الله تفسره بما يظاهر رأيها، وهم مع هذا مختلفون فى التعصب لمذاهبهم والقصد فيها، وأهمها:

١- تفاسير أهل السنة وهم كغيرهم، منهم القاصد فى تأييد عقيدته فى تفسيره، كهؤلاء الذين سبق أن تكلمنا عنهم عند كلامنا على التفسير بالرأى .

ومنهم من استبسل فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وعلى رأسهم الإمام فخر الدين الرازى، الذى شنها حربا شعواء عند كل مناسبة على أهل الزيغ والانحراف فى العقيدة، وصاغ الأدلة لتدعيم مذهب أهل السنة، ونقض شبه المخالفين، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج من تفاسيرهم .

٢- تفاسير المعتزلة . وأشهرها تفسير الكشاف للزمخشرى، وهو معتزلى متعصب، يدعو إلى الاعتزال، وكتابه من خير كتب التفسير، ورغم نزعته الاعتزالية، وغالب كتب التفسير بعده أخذت عنه واعتمدت عليه .

وهو كتاب خال عن الحشو، سليم من القصص والإسرائيليات، معنى بعلوم البلاغة، وتحقيق وجوه الإعجاز، ويمتاز بأسلوبه الخاص، وهو سلوك طريق السؤال والجواب.

٣- تفاسير الباطنية، وهم الذين رفضوا الأخذ بظواهر الكتاب الكريم، وقالوا إن للقرآن ظاهراً وباطناً، والظاهر غير مراد وإنما المراد الباطن، ومن أمثلة ذلك قولهم فى قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ إن الإمام على ورث النبى فى علمه .

وهم طوائف فمنهم القرامطة، والإسماعيلية، والسبعيية، والحرمية [١] وغيرهم، ومذهب الباطنية على عمومه وباء انتقل إليهم من المجوس، وتفاسيرهم إلحاد وكفر؛ لأنها تؤدى إلى نقض الشريعة والخروج عن الإسلام، قال الإمام النسفى فى عقائده .« النصوص على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد » [٢] .

٤- تفاسير الشيعه - وهم الذين بالغوا فى حب على كرم الله وجهه والتشيع له، وهم فرق، فمنهم من أغرق نفسه فى التشيع حتى كفر، ومنهم المعتدل الذى لم يسقط فى هاوية الكفران، وإن خالف أهل السنة والجماعة .

ومن أشهر الكتب التى غالت فى تفسير الشيعة كتاب : (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للكازلانى) وهو كتاب يشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية، فهو مثلهم فى ضلالهم .

ومن أحسن كتب الشيعة كتاب : (مجمع البيان فى تفسير القرآن) للشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى من أكابر علماء الإمامية فى القرن السادس، وهو كتاب فريد فى تصنيفه غزير فى مادته .

---

(١) القرامطة نسبة إلى حمدان قرمط، إحدى قرى واسط، والإسماعيلية إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه والسبعية، نسبة إلى عدد السبعة، ذلك لأنهم يعتقدون أن فى كل سبعة إماماً يقتدى به، والحرمية نسبة إلى الحرمة؛ وذلك لأنهم يستبيحون الحرمات .

(٢) راجع الإتقان للسيوطى ص ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ .

مزج العلوم الأدبية والكونية

وغيرها بالتفسير، وسبب ذلك وأثره

كان المفسرون الأولون يفهمون هداية القرآن وإعجازه ويصورونها فى تفاسيرهم بيسر وسهولة، لجريان ذلك على فطرتهم وسليقتهم .

ولما كثرت الفتوح الإسلامية، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، اختلط العرب بغيرهم، ففشت العجمة، وبدت الحاجة ماسة إلى ضوابط تعصم الناس من الخطأ فى فهم الكتاب والسنة؛ فنشأت بسبب ذلك علوم اللغة العربية، كما دعت الحاجة إلى ترجمة علوم هذه الأمم التى دخلت فى الإسلام، للتوفيق بينها وبين القرآن من ناحية، وفهم القرآن فى ضوئها من ناحية أخرى، حيث يتجاوب العلم والدين ولا يتعارضان .

لهذا بدأت العلوم العربية والكونية تتدخل فى تفسير القرآن الكريم وتمتزج به، على اعتبار أن هدايته، وإعجازه لا يفهمان على الوجه الصحيح إلا عن طريق هذه العلوم، لذا كان على المفسر أن يساير أفكار الناس، ويشرح لهم ألفاظ القرآن بالطرق العلمية المألوفة لهم، وبالأفكار الملائمة لمشاربهم وأذواقهم، وأصبح امتزاج هذه العلوم بالتفسير أمراً ضروريا .

ومن ثم احتلت هذه العلوم مكانها فى كتب التفسير، وإن اختلف الامتزاج قوة وضعفا، وكثرة وقلة، حسب اختلاف مشارب المفسرين، وتقدم الزمان وتأخره بهذه العلوم .

وكان من أثر هذا الامتزاج أن ساعدت العلوم الأدبية على فهم معانى القرآن الكريم، وأظهرت فصاحته ووجوه إعجازه، وساعدت العلوم الكونية على مسايرة أفكار الناس، وإدراك وجوه جديدة للإعجاز، ودفع مزاعم القائلين بالعداوة بين العلم والدين، واستمالة غير المسلمين للإسلام عن هذا الطريق العلمى، كما أنها تملأ النفس إيمانا بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات .

وبذلك تزداد ثقته بالقرآن، وبأنه كتاب فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان من ألوان السعادة، وأنه دستور الناس إلى يوم القيامة، يصلح لكل زمان ومكان ولايستغنى عن مكنونه إنسان .

على أن مزج هذه العلوم يجب أن يكون بقدر، حتى لا تطغى هذه العلوم على المقصود الأول من التفسير، وهو بيان هدايته وإعجازه .

الفقـــه (١)

الفـقـه فى اللغـة العلم بالشىء والفـهـم له والفطنة، وفى الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعـية العـملية المكتسب من أدلتـها التـفصيلية .. وهو مستنبط بالرأى والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل (٢) .

وهو المسمى بعلم الحلال والحرام والشرائع والأحكام (٣) .

وعرفـه ابن خلدون بقـوله : « الفـقـه مـعرفـة أحكام الله تعـالى فى أفـعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحـة، وهـى مـتلقـاة من الكتـاب والسنــة، وما نصبه الشارع لمعرفته من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : « فقه » (٤) .

---

(١) قال فى لسان العرب : الفقه العلم بالشىء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم ... وقد جعله العرف خاصًّا بعلم الشريعة، شرفها الله تعالى وتخصيصاً بعلم الفروع منها » فكلمة فقه أطلقت على ما يتناول الأحكام الدينية جميعها سواء منها ما كان متعلقاً بأحكام العقائد أو بالأحكام العلمية، وكان الفقه يطلق على تفهم هذه الأحكام وإدراكها جميعها، كما كان يطلق على جميع هذه الأحكام نفسها، لا فرق بين حكم وآخر، ومن هذا قول الله تعالى : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

والفقه بهذا الإطلاق يمثل الطابع الحقيقى للتفكير الإسلامى؛ لأن الفقه حتى فيما يتعلق بالعقائد وأمور الآخرة إنما يقوم على القرآن والسنة، ويدور حولهما، ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية، ودخل الناس فى دين الله أفواجا زادت الأحداث وتنوعت، واستتبع ذلك زيادة الأحكام وتنوع الفتيا، فدعى هذا إلى قصر كلمة فقه على العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، كما أطلقوا الفقه أيضاً على هذه الأحكام نفسها – المدخل للفقه الإسلامى للاستاذ محمد سلام مدكور .

(٢) ولهذا لا يجوز أن يسمى الله فقيهاً لأنه لا يخفى عليه شىء – التعريفات للجرجانى ص ١٤٧ .

(٣) بدائع الصنائع جـ ١ ص ٢ .

(٤) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ١٠١١ .

« وكلمة فقه لم تعرفها لغة العرب في معناها الذى نريده اليوم إلا بعد مضى صدر الإسلام » [١] وحين تمكن استنباط الأحكام من أدلتها، يقول ابن خلدون: « ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصًا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه، ومتشابهه ومحكمه، وسائر دلالته بما تلقوه عن النبى ﷺ ، أو ممن سمعه منهم من عليتهم، وكانوا يسمون لذلك القراء، أى الذين يقرءون الكتاب؛ لأن العرب كانوا أمة أمية، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقى الأمر كذلك صدر الملة، ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء [٢] .

نشأة الفقه وتدرجه :

« الفقه الإسلامى مثله مثل كل كائن مادى أو معنوى، لا ينشأ من لاشىء، ولا يبلغ كماله طفرة واحدة، بل ينشأ من شىء موجود سابق عليه، ويأخذ فى السير متدرجاً فى مراتب الحياة والوجود، حتى يبلغ أقصى ما يقدر له من نضج وكمال وتطور، ثم ينال منه الزمن وأحداثه حتى يدركه الهرم » [٣] .

الأطوار التى مر بها الفقه :

تدرج الفقه الإسلامى فى أطوار أربعة :

(١) طور النشأة .　　　(٢) طور الشباب .

(٣) طور النضج والكمال .　　　(٤) طور الشيخوخة .

١- الطور الأول: وهو طور النشأة أو طور التشريع، وكان فى حياة الرسول ﷺ، وانتهى بوفاته سنة ١١ هـ ، واستمر اثنين وعشرين عاماً تقريباً .

وفى هذه الفترة كان الفقه يعتمد على الوحى النازل من عند الله تعالى؛ فقد

---

(١) الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٠ .

(٢) ابن خلدون جـ ٢ ص ١٠١٢ .

(٣) الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ١١ .

نزل القرآن، وحفظت السنة، ولم ينتقل الرسول صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى حتى كانت أصول هذا الفقه قد استكملت، وأسس التشريع قد تمت .

وقد نزل الجانب الأكبر من الأحكام التفصيلية فى السور المدنية، وهى تزيد قليلا على ثلث القرآن .

وقد نزلت هذه الأحكام منجمة حسب الحاجة التى تدعو إليها دفعا للحرج عن المسلمين، وتيسيراً لهم فى التكاليف .

٢- الطور الثانى : طور الشباب، أو طور الاجتهاد، وهذا الطور ابتدأ فى عهد الخلفاء الراشدين حينما اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وفتح الله على المسلمين الكثير من الأمصار، وكان لهذه البلاد التى فتحت حضارات وأعراف مختلفة، وتعددت الأحداث والنوازل، وبرزت مشكلات تحتاج لبيان حكم الشرع فيها، وكان الكثير من هذه الأحداث والمشكلات ليس فيه نص صريح من كتاب أو سنة، وكان أبو بكر إذا أراد معرفة حكم من الأحكام لجأ إلى القرآن، فإن لم يجد لجأ إلى سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يجد جمع من يثق بهم من أهل الرأى واستشارهم ثم قضى بما يجمعون عليه، وكذلك كان عمر رضى الله عنه، وكان الصحابة فى بادئ الأمر يتشددون فى الاجتهاد بالرأى مخافة القول على الله وعلى رسوله بلا علم .

وبعد عمر تفرق الصحابة فى الأمصار، وهاجروا إلى البلدان المختلفة، وكثر التحديث عن رسول الله ﷺ ، والتعمق فى استنباط الأحكام من القرآن، واتسعت أبواب الاجتهاد، وبدأ الفقه يتميز ويتكون .

جاء عام الجماعة، وبه يبتدئ عهد صغار الصحابة وكبار التابعين، وفيه تفرق المسلمون إلى فرق سياسية : شيعة، وخوارج، وأهل السنة؛ وذلك بسبب اختلافهم فى الخلافة .

وكان الصحابة - كما قدمنا - قد تفرقوا فى الأمصار، والتف الناس حولهم يسمعون منهم؛ فكان منهم القراء والمعلمون، وقد يصح من الحديث عند أحدهم ما لا يصح عند الآخر .

لكل هذه الأسباب اتجه بعض الصحابة والتابعين إلى تأسيس علم الفقه ليكون مثلا يحتذى به .

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا أن أول الفقهاء المسلمين هم الصحابة الأولون وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، ثم انتقلت الفتوى والفقه إلى التابعين، واشتهر منهم فى المدينة سبعة وهم : سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، والقاسم بن محمد، وعبيد الله بن عبد الله، وعروة بن الزبير، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد، وقد جمعهم بعض العلماء فى قوله :

ألا كل من لا يقتدى بأئمة ... فقسمته ضيزى عن الحق خارجة

فخذهم عبيد الله عروة قاسم ... سعيد سليمان أبو بكر خارجة

وكان لكثرة التحديث عن رسول الله ﷺ أن زاد الشك فى صحة هذه الأحاديث؛ فاتجه بعض الفقهاء إلى الاجتهاد بالرأى؛ ولذلك ظهرت نزعتان فى الفقه :

١- نزعة أهل الحديث .

٢- نزعة أهل الرأى والقياس [١] .

وأهل الحديث هم الذين يقبلون فى بناء أحكامهم كل الأحاديث [٢]، ويقدمون الحديث الضعيف على الاجتهاد بالرأى، وهؤلاء كانوا بالحجاز مهد الحديث.

ثم تفرع من هذه النزعة مذاهب الإمام مالك، والشافعى، وابن حنبل . كما كان منهم الظاهرية الذين يتمسكون بالظاهر من القرآن والسنة [٣] وهم أتباع داود بن على، ثم ابن حزم الأندلسى من بعد .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ١٠١٢ .

(٢) عدا الأحاديث الموضوعة .

(٣) يقول ابن خلدون : ثم أنكر القياس طائفة من العلماء، وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية، وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص والإجماع، وردوا القياس الجلى، والعلة المنصوصة إلى النص؛ لأن النص على العلة نص على الحكم فى جميع محالها، وكان إمام هذا المذهب داود بن على وابنه وأصحابهما . . . » جـ٣ ص ١٠١٣ .

أما أهل الرأى، فكانوا لا يفتون إلا بما يجدونه فى الكتاب الكريم، والصحيح من السنة ، وإلا جنحوا إلى الرأى والقياس (١) .

وكان هؤلاء بالعراق وعلى رأسهم إبراهيم بن زيد بن قيس النخعى شيخ حماد، وحماد هو شيخ الإمام أبى حنيفة .

٣ - الطور الثالث : وهو طور النضج والكمال والتدوين، أو عصر المذاهب الفقهية .

وهذا الطور يبدأ فى أوائل القرن الثانى الهجرى، ويستمر إلى منتصف القرن الرابع، وفى هذا العصر ظهرت المذاهب الفقهية، ومنها المذاهب الأربعة التى بقيت إلى الآن لوجود من يدافع عنها ويتشيع لها، ومذاهب الزيدية والإمامية من الشيعة . ومنها التى لم تجد من يعمل على نشرها فاندثرت كمذاهب الثورى، والأوزاعى، وأبى ثور، والليث، والطبرى .

والمذهب الحنفى انتشر من العراق، ودخل مصر، والروم، وبلاد فارس، وأكثر بلاد الهند، والسند .

أما مذهب مالك فقد نشأ بالمدينة، ودخل مصر، وانتشر فى أوائل القرن الخامس فى أفريقيا، وسائر بلاد المغرب، ودخل الأندلس فى عهد هشام، وهو المذهب السائد فى شمال أفريقيا الآن .

ومذهب الشافعى ظهر بمصر، والعراق، والحجاز، وانتشر فى بلاد الشام، وما وراء النهر وفارس، وهو الآن منتشر فى منطقة الملايو وسيلان .

---

(١) يقول ابن خلدون : والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد فى شروط الرواية والتحمل، وضعف الحديث إذا عارضه العقلى القاطع فاستصعب، وقلت من أجل ذلك روايته فقل حديثه ... وأما غيره من المحدثين وهم الجمهور، فتوسعوا فى الشروط، وكثر حديثهم، والكل عن اجتهاد، وقد توسع أصحابه من بعده فى الشروط، وكثرت روايتهم، روى الطحاوى فأكثر، وكتب مسنده وهو جليل القدر إلا أنه لا يعدل الصحيحين ...» ابن خلدون جـ٣ ص ١٠١٠ ، ١٠١١ .

ومذهب الحنابلة ظهر ببغداد، وأكثر مقلدوه بالعراق، والشام، والحجاز، وهم قليلون – فيما عدا نجد والحجاز الآن – «لبعده عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، والأخبار بعضها ببعض ... وهم أكثر الناس حفظاً للسنة، ورواية للحديث»[1].

أما الشيعة الزيدية فكانوا بالعراق وشرق آسيا والجزيرة، وهم اليوم باليمن. والشيعة الإمامية كان مذهبهم منتشراً بالعراق وشرق آسيا، وهو اليوم بالعراق وإيران.

وباقى المذاهب لم يكتب لها الخلود .

ويتميز هذا العصر بتدوين السنة والفقه، ولكن لا يمكن الجزم بتحديد أول من قام بالتدوين، وإنما يكفى أن نعرف أن السبب في التدوين إنما هو فتح الأمصار، وزيادة الاجتهاد، وكثرة الفتيا، وتضارب الآراء، وقد كان للتدوين أثر كبير في الفقه .

٤ – الطور الرابع : وهو طور التقليد، وقد استمر إلى يومنا هذا؛ وذلك أن الناس استناموا إلى المذاهب الأربعة المعروفة وقلدوها، وظهر لكل مذهب أتباع مقلدون.

وغاية ما ظهر من الفقه أن جمع الأتباع أقوال فقهاء المذهب، ودونوها في متون، ثم قام البعض بشرح هذه المتون، ثم وضع حواش عليها، ثم اختصارات لها .

ولم تقم محاولة للاجتهاد إلا من الإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم من بعد، ولكن النفوس اليوم متطلعة إلى أن يعود للفقه ازدهاره، والله سبحانه كفيل بتحقيق ذلك .

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ١٠١١ – ١٠١٧ .

النحـــو

منزلته :

النحو هو قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها، وهو كما قال أبو سعيد البصرى :

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها عندى مقيم الألسن (١)

والعرب هم أفصح الناس لساناً وأبينهم بياناً، يقولون فيعربون، وينطقون فيفصحون، لا يتطرق اللحن إلى لسانهم، ولا العجمة إلى بيانهم ، وكانت ملكتهم فى ذلك أحسن الملكات، وأوضحها إبانة عن المقاصد .

السبب فى وضعه :

ظل اللسان العربى هكذا لساناً عربيًّا مبيناً حتى سطع نور الإسلام، واتسعت الفتوحات، واختلط العجم بالعرب، واندمج بعضهم فى بعض؛ فبدأ التغير فى ملكتهم، وظهر اللحن فى لغتهم، وتسربت العجمة إلى لسانهم « بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمتعربين – والسمع أبو الملكات اللسانية – ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع » (٢) ؛ فتذمروا مما كانوا يسمعونه من اللحن، وخصوصاً فى قراءة القرآن، وأحسو بالحاجة إلى ما يصون لغتهم من اللكنة، ولسانهم من اللحن والعجمة، فوضعوا علم النحو، وتعجلوا فى وضعه عناية منهم بالقرآن، وحرصا على نطقه بلسان عربى مبين .

ومن أمثلة اللحن الذى سبب التذمر فى النفوس، ودفع القوم إلى تلافى هذا العيب بوضع علم النحو ما يأتى :

١– أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر على قوم يسيئون الرمى فقرعهم فقالوا:

---

(١) صبح الأعشى جـ١ ص ١٦٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٦٩٥ .

« نحن قوم متعلمين » فأعرض مغضباً وقال : « والله لخطؤكم فى لسانكم أشد على من خطئكم فى رميكم » .

٢- أن أبا موسى الأشعرى والى البصرة أرسل إلى عمر بن الخطاب كتاباً ذكر فيه كاتبه : « من أبو موسى الأشعرى » فكتب عمر لأبى موسى « عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطا » .

٣- أن أعرابيا سمع مؤذناً يقول : أشهد أن محمدا رسول الله (بنصب رسول الله) فقال : ويحك يفعل ماذا ؟ إلى غير ذلك من الروايات التى سنذكر شيئا منها فيما بعد(١) .

واضعه :

اختلف الباحثون والرواة فى واضعه، وتعددت رواياتهم فى ذلك، وعامتهم على أن واضعه هو أبو الأسود الدؤلى، ومن هذه الروايات :

١- أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فقال :

من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة « براءة » حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ نطق بها هكذا (ورسوله) بكسر اللام؛ فقال الأعرابى :

أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابى فدعاه فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله ﷺ ! فقص عليه الأعرابى قصته . فقال عمر : ليس يا أعرابى . فقال :

كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (برفع اللام) فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منهم؛ فأمر عمر رضى الله أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة . وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو .

---

(١) راجع فى هذا الموضوع كتاب نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوى، المزهر للسيوطى جـ٢ ص ٢٤٦ ط الرافعى ، صبح الأعشى جـ١ ص ١٦٩ إنباه الرواة للقفطى جـ١ ص ١٤ - ١٦ ، أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ١٢ - ١٤ ، مقدمة تفسير القرطبى ص٢٤ .

٢- أنه جاء أبو الأسود الدؤلى إلى زياد وهو أمير البصرة فقال : إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وفسدت ألسنتها، أفتأذن لى أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم ؟ فقال له زياد: لا تفعل . ثم جاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير، توفى أبانا وترك بنونا . فقال له زياد: توفى أبانا وترك بنونا، ادع أبا الأسود فلما جاءه قال له: ضع للناس ما كنت نهيتك عنه؛ ففعل .

٣- ما روى عن أبى الأسود أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه؛ فوجدت فى يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال: إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعنى الأعاجم)، فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه، ويعتمدون عليه .

ثم ألقى إلىّ الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبئ به، والحرف ما أفاد معنى، وقال لي : انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك .. إلخ [١] .

٤- إن ابن خلدون قال فى مقدمته: «وأول من كتب فيها أبو الأسود من بنى كنانة، ويقال: بإشارة على رضى الله عنه» .

٥- إن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسن السماء فقال لها: نجومها فقالت: إنى لم أرد هذا، وإنما تعجبت من حسنها، فقال لها: إذن فقولى: ما أحسن السماء، افتحى فاك؛ فحينئذ وضع علم النحو .

ويرشح القول: بأن واضعه هو أبو الأسود الدؤلى، ما ذكره ابن النديم فى الفهرست، مما شاهده بعينه فى عرض كلامه عن خزانة كتب أطلعه عليها أحد جماعى الكتب من أنه كان فى جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود: فلجان، وصكاك، وقرطاس مصرى، وورق صينى .. وبينها أربعة أوراق قال: أحسبها من ورق الصين ترجمتها، هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول عن أبى الأسود رحمة الله عليه، بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق، هذا خط علان النحوى، وتحته هذا خط النضر بن شميل، ثم لما مات هذا فقدنا القمطر [٢] .

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٢١ ط منير، إنباه الرواة للقفطى جـ ١ ص ٤ .
(٢) الفهرست ص ٦١، ويحيى بن يعمر ممن أخذ عن أبى الأسود - خلاصة تذهيب الكمال .

وقد صرح بذلك كثير من العلماء .

قال فى خلاصة تذهيب الكمال : إن أبا الأسود « أول من تكلم فى النحو »

وقال ابن قتيبة فى المعارف : « وهو أول من وضع العربية [1] » .

وقال ابن سلام الجمحى : « أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلى » [2] .

تسميته نحوا :

سمى نحوا :

١- لقول على كرم الله وجهه لأبى الأسود : انح هذا النحو .

٢- وقيل : لأن أبا الأسود كان كلما وضع بابا عرضه على على رضى الله عنه فيقول له : ما أحسن هذا النحو الذى قد نحوت .

ترجمة أبى الأسود :

هو ظالم بن عمرو الدؤلى الكنانى كان من سادات التابعين، عاقلا حازما، سكن البصرة فى خلافة عمر رضى الله عنه، وولى إمارتها فى أيام على كرم الله وجهه .شهد صفين مع على وكان متشيعا له، ولقى فى سبيل ذلك عنتا من عمال بنى أمية، وكان رحمه الله فقهياً شاعراً مجيداً، ومن أعلم أهل عصره بكلام العرب، حاضر الجواب، وله أجوبة مسكتة . وهو أول من دون علم النحو، وأول من نقط المصحف، ولعله فعل ذلك تكميلا لما بدأ به من القيام بما يحفظ على المسلمين كتابهم الكريم، ولغتهم .

أخذ عنه العلم كثيرون، منهم : ابناه عطاء، وأبوحرب، ونصر بن عاصم، ويحيى ابن يعمر، وتوفى رحمه الله بالبصرة فى الطاعون الجارف سنة ٦٩ هـ [3] .

---

(١) المعارف ص ١٩٢ طبعة المكتبة الحسينية .

(٢) إنباه الرواة للقفطى جـ ١ ص ١٤ .

(٣) المعارف لابن قتيبة، تهذيب التهذيب للنووى، الأعلام للزركلى، المزهر للسيوطى جـ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ١٠ ، إنباه الرواة للقفطى ص ١٣ .

نشأة علم النحو وتدرجه :

علم النحو ككل كائن ينشأ صغيراً ثم يكبر، وقد وضع بذوره أبو الأسود الدؤلي، ثم أضاف إليه من جاء بعده ما استدركه، وما زاده وابتدعه حتى كمل ونضج.

وهذا العلم لم تطل مدة حضانته، كغيره من بقية العلوم، بل شب واكتمل بخطى واسعة؛ لشعور العرب بالحاجة إليه؛ فلم يستهل العصر العباسي إلا وهو علم يدرس في البصرة والكوفة، « وكمل وأوفى على الغاية في بغداد، ولما ينقض العصر العباسي الأول » .

والبصريون هم الذين تعهدوه بالرعاية قرابة قرن من الزمان، كانت فيه الكوفة منصرفة عنه إلى الأشعار والأخبار، ثم تكانف الفريقان على استكمال قواعده، واستحثهما التنافس الذى اشتد بينهما ردحا من الزمن ينيف على المائة سنة؛ فخرج هذا العلم وقد تمت أصوله، وكملت عناصره، ثم التأم عقد الفريقين في بغداد، وكانت مهمة علمائها الترجيح بين الفريقين، ثم شع نور هذا العلم على سائر الحواضر الإسلامية (١) .

أطـــواره :

أطواره أربعة :

١- طور النشوء والتكوين : وهذا الطور اختصت به البصرة، وهو يبتدئ من عصر واضعه أبي الأسود الدؤلي، إلى عصر الخليل بن أحمد .

٢- طور الترقي والنمو : وقد اشتركت فيه مدرستا البصرة والكوفة، ويبتدئ من عهد الخليل بن أحمد البصرى، وأبي جعفر الرؤاسي الكوفي .

٣- طور النضج والكمال : وقد اشتركت فيه مدرستا البصرة والكوفة، ويبتدئ من عهد أبي عثمان المازني البصرى، ويعقوب بن السكيت الكوفي .

---

(١) نشأة النحو للمرحوم الشيخ محمد الطنطاوى .

٤- طور الترجيح والبسط : وهو من عهد بغداد إلى وقتنا هذا، وقد اشترك فيه البغداديون، والشاميون، والمصريون، والأندلسيون .

مدرسة البصرة

زعيم هذه المدرسة الخليل بن أحمد الذى جاب وادى الحجاز، ونجد، وتهامة مواجها العرب فى صحرائها مستمعا لأحاديثها، ثم عاد إلى البصرة، واستجمع كل ما سمع، وأعانه ذهنه الحاد، وذاكرته القوية على البحث عن جواهر هذا العلم، وساعده وشد من أزره يونس بن حبيب الذى كانت له حلقات علمية، وله فى هذا العلم مذاهب خاصة تفرد بها .

ومن أشهر رجالات مدرسة البصرة ١- أبو الأسود الدؤلى، واضع هذا العلم، ٢- نصر بن عاصم، ٣- يحيى بن يعمر، ٤- عنبسة الفيل، ٥- ابن هرمز الأعرج، ٦- الأخفش الأكبر، ٧- الخليل بن أحمد، ٨- يونس، ٩- سيبويه، ١٠- قطرب، ١١- المازنى، ١٢- الرياشى، ١٣- المبرد وغيرهم .

مدرسة الكوفة :

زعيم هذه المدرسة الرؤاسى، وقد اشترك مع الخليل ويونس فى التلقى عن الطبقة الثانية البصرية، ويمم الكوفة وتزعم مدرستها، وألف كتابه (الفيصل)، وهو أول كتاب تداوله الكوفيون بينهم، وغلبت عليه الناحية الصرفية التى التفت إليها الكوفيون، وسبقوا فيها البصريين، حتى عدهم المؤرخين الواضعين لعلم الصرف .

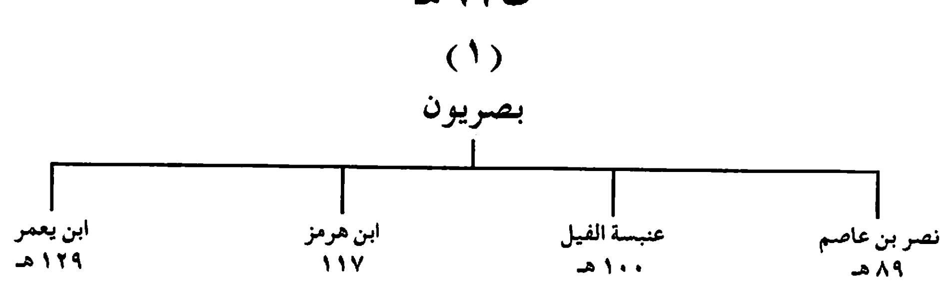
ومن أشهر رجالاتها . الفراء والكسائى الذى لم يأل جهداً حتى أخرج للناس مؤلفات استفادوا منها، وشد أزره إقبال الدنيا عليه بعد اتصاله بالخلفاء والأمراء ببغداد؛ فكون من الكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية، ووقفت منها موقف الند للند، وكان الفراء أستاذ الطبقة الثالثة الكوفية تغمره عطايا الخليفة المأمون، وتحفزه على نشر العلم، وتتيح له أن يدون طوال الكتب التى راجت فى بغداد والكوفة . كل ذلك بفضل المناظرة التى بدأت هادئة أول الأمر بين البلدين، على يد الخليل والرؤاسى، ثم اشتدت على مرور الأيام؛ فكان لها أثر واضح فى الجهد والاجتهاد إلى أن جاء دور النضج والكمال .

ثبت

يبين أهم رواد علم النحو، وطبقاتهم من البصريين والكوفيين

أبو الأسود الدؤلى

ت ٦٩ هـ



(٢)

بصريون

الأخفش الأكبر ١٥٧ هـ — عيسى بن عمر ١٤٩ هـ — أبو عمرو بن العلاء ١٥٤ هـ

(٣)
بصريون

الخليل بن أحمد ١٧٤هـ — يونس بن حبيب ١٨٢ هـ

(٤)

سيبويه ١٨٨ هـ — اليزيدى ٢٠٢ هـ — الأصمعى ٢١٦ هـ — أبو زيد سعيد بن أوس ٢١٥ هـ

(٥)

الأخفش الأوسط ٢٠٨ هـ — قطرب ٢٠٦ هـ

(٦)

المازنى ٢٤٩ هـ — الرياشى ٢٥٧ هـ — أبو حاتم السجستانى ٢٥٥ هـ

(٧)

المبرد ٢٨٥ هـ

(١)
كوفيون

الرؤاسى ١٨٧ هـ — أبو مسلم الهراء ١٨٧ هـ

(٢)

الكسائى ١٨٩ هـ

(٣)

الفراء ٢٠٧ هـ — اللحيانى ٢٢٠ هـ

(٤)

ابن الكسيب ٢٤٣ هـ — ابن سعدان ٢٣١ هـ — أبو عبيد القاسم بن سلام ٢٢٣ هـ

(٥)

ثعلب ٢٩١ هـ

الفصل السادس

مظاهر العمران

● بناء الأمصار :

* البصرة .
* الكوفة .
* الفسطاط .
* بغداد .
* طرز العمارة الإسلامية .
* الطرق التجارية .

● الفنون :

* الشعر .
* الخطابة .
* الموسيقى والغناء .
* الزخرفة والخط .

بناء الأمصار

في عهد عمر رضى الله عنه كثرت الفتوح، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وبعدت على المسلمين الشقة، واحتاج الجند إلى أماكن يستريحون فيها من عناء السفر، حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينتقص قوتهم؛ فكان لابد لهم من منازل يشتون فيها إذا شتوا، ويأوون إليها إذا رجعوا من غزوهم؛ ومن ثم وجدت الدواعى لبناء المدن وتمصير الأمصار .

البصرة [1]

البصرة أقدم المدن الإسلامية، وهى تقع عند ملتقى دجلة والفرات، وهو ما يعرف بشط العرب، وموقعها قريب من الماء والمرعى فى طرف البر إلى الريف، فيه قصباء [2]، ودونه منافع ماء .

وكان السبب فى نزول المسلمين بها، أن سويد بن قطبة الذهلى كان يغير على العجم في ناحية الخريبة من البصرة قبل أن ينزلها المسلمون، ولما بلغ عمر رضى الله عنه خبره وما يصنع بالبصرة، رأى أن يوليها رجلا من قبله، وأن ينزلها المسلمون، ليحولوا بين أهل فارس ومن إليهم، وإمداد إخوانهم من أهل المدائن ونواحيها، فولاها عتبة بن غزوان [3]، وقال له : «إن الحيرة قد فتحت فأت أنت ناحية البصرة، وأشغل من هناك من أهل فارس والأهواز وميسان عن إمداد إخوانهم» ، فسار إليها عتبة فى أكثر من

---

(١) البصرة : الأرض الغليظة . أو حجارة فيها بياض – القاموس، معجم البلدان جـ٢ ص١٩٢ .

(٢) القصب محركة كل نبات ذى أنابيب، والقصباء جماعتها أو منبتها – القاموس .

(٣) وهو من المهاجرين الأولين .

ثلاثمائة رجل، وانضم إليه سويد بن قطبة فيمن معه من بكر بن وائل، وتميم . يقول الطبرى : « فأقبل عتبة فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وضوى إليه قوم من الأعراب وأهل البوادى؛ فقدم البصرة فى خمسمائة، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، فنزلها فى شهر ربيع الأول أو الآخر سنة أربعة عشر » (١) .

تمصير البصرة :

كتب عتبة إلى عمر يستأذنه فى تمصير البصرة وقال له : « إنه لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم » (٢) ، فكتب إليه عمر : « أن ارتد لهم منزلا قريباً من المراعى والماء، واكتب إلىَّ بصفته »، فكتب إليه : « إنى قد وجدت أرضاً كثيرة القضة (٣) ، فى طرف البر إلى الريف، ودونها منافع فيها ماء، وفيها قضباء » .

ولما وصلت الرسالة إلى عمر قال : « هذه أرض بصرة، قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب » ، وكتب إليه أن انزلها، فنزلها وبنى مسجدها من قصب، وبنى دار إمارتها دون المسجد، وبنى الناس سبع دساكر من قصب أيضاً لكثرته هناك، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب، ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو؛ فيعيدوا بناءها كما كان، وهكذا .

ولما مات عتبة ولى عمر عليها أبا موسى الأشعرى واختط الناس، وبنوا المنازل باللبن بعد أن أذن لهم عمر فى ذلك، (لأن القصب كان يحترق)، وبنى أبو موسى المسجد، ودار الإمارة باللبن والطين، وسقفها بالعشب (٤) . وقد « جعلوها خططا لقبائل أهلها؛ فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مربدها (٥) ستين ذراعا، وجعلوا

---

(١) الطبرى جـ٣ ص ٩٠ ، معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٤ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٦ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٤ ، معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٦ ؛ ويكنسون : يستترون .

(٣) القضة : الحجارة المجتمعة المتشققة، وقيل الأرض ذاتت الحصى – معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٦ ، القاموس .

(٤) معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٤ .

(٥) المربد كمنبر فضاء وراء البيوت يرتفق به، ومربد التمر جرينه الذى يوضع فيه بعد الجداد لييبس . والمربد والجرين لأهل الحجاز كالبيدر لأهل العراق – لسان العرب .

عرض ماسواه من الشوارع عشرين ذراعا، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أزرع، وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم، وقبور موتاهم، وتلاصقوا فى المنازل(١) .

ولما استعمل معاوية زيادا على البصرة زاد فى المسجد، وبناه بالآجر والجص، وسقفه بالساج (٢)، وبنى منارته بالحجارة؛ فصار من أحسن الأبنية، حتى قال فيه حارثة بن بدر الغُدَانى :

بنى زياد لذكر الله مصنعة (٣) من الحجارة لم تعمل من الطين

لولا تعاون أيدى الإنس ترفعها إذاً لقلنا من أعمال الشياطين

ولقد بلغ عدد مقاتلتها فى أيام زياد ثمانين ألفا، وعيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل (٤) .

ونظرا لموقعها فرضة (٥) للعراق، ووسطا بين الشام وفارس، أسرع إليها العمران، واتخذها الأمويون مقرا لإمارة العراق؛ فاتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها فى إمارة خالد بن عبد الله القسرى (١٠٦ - ١٢٠ هـ) فرسخين فى فرسخين (٦) أى قريبا مما كانت عليها مساحة القاهرة إلى عهد غير بعيد .

وكانت فى أيام العباسيين ملتقى التجار، وتجارتها كانت تمتد شرقا إلى الهند والصين، وغربا إلى أقصى بلاد المغرب، وجنوبا إلى الحبشة، واشتهر أهلها بالأسفار التجارية إلى كل الجهات، حتى ضرب المثل بهم فى ذلك فقيل: «وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى» (من أهل خوزستان) .

وكانت مياه البصرة مرسى مئات السفن التجارية، التى كانت تحمل أصناف التجارات منها وإليها؛ فتكاثرت ثروتها، وبنى أهلها القصور والحدائق، وأنشأوا البرك والميادين (٧) .

---

(١) الأحكام السلطانية ص٦٠، وبذلك كان المسلمون فى طليعة من عرف تخطيط المدن.

(٢) الساج ضرب من الشجر والهندى من أحسن أنواعه .

(٣) المصنعة والمصانع الحصون - اللسان، وهذا البيت نسبه صاحب اللسان إلى البعيث .

(٤) معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٩ ، فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٨ .

(٥) الفرضة بالضم من النهر ثلمة يستقى منها، ومن البحر محط السفن - القاموس .

(٦) معجم البلدان جـ١ ص ١٩٩ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٤١ .

(٧) راجع تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

الكوفة (١)

السبب فى بنائها :

بعد أن فتح الله على المسلمين مافتح من العراق، كانت رسلهم ترد على عمر رضى الله عنه؛ فيرى فى وجوههم، وألوانهم تغيرا، فسألهم عن سر ذلك فقالوا له : وخومة البلاد؛ فكتب إلى سعد : «أنبئنى ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم»، فكتب إليه : «إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة»، فكتب إليه : «إن العرب لا يوافقها إلا ماوافق إبلها من البلدان، فابعث سلمان وحذيفة – وكانا رائدى الجيش – فيرتادا منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر» (٢) فبعثهما سعد، فسارا مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة، وهو حصباء ورمل، وفيه ديرات ثلاث؛ قد «ارتفعت أرضه عن البقة، وتطأطأت عن السبخة، وتوسطت الريف، وظعنت فى أنف البرية» (٣) فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا، ودعوا الله أن يبارك لهم فى هذه الكوفة، وكتبا إلى سعد بالخبر؛ فأبلغه سعد عمر رضى الله عنهما؛ فأمره أن يسير بالجنود إليها، فارتحل بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧ هـ (٤) .

---

(١) الكوفة .. قرب الحيرة وسميت الكوفة لاستدارتها، أخذا من قول العرب رأيت كوفانا وكوفانا (بضم الكاف وفتحها) للرميلة المستديرة .. وقيل سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل، وقيل الكوفة كل رملة تخالطها حصباء، وقيل غير ذلك – معجم البلدان، القاموس، لسان العرب .

(٢) الطبرى جـ٣ ص ١٤٥ – معجم البلدان جـ٦ ص ٣٧٩ ، جـ٧ ص ٢٩٧ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٧ ط الأميرية .

(٤) الطبرى جـ٣ ص ١٤٧ .

تمصيرها :

كان عمر يريد أن يقيم المسلمون فى خيامهم، لأن ذلك أجد فى حربهم، وأذكى لهم، وأهيب فى عين عدوهم؛ وأدعى إلى إحجامه عن أمريهم به .

ولما استأذنه أهل الكوفة والبصرة فى بنيان القصب لم يحب أن يخالفهم، وأذن لهم فابتنى أهلهما بالقصب، ثم إن الحريق وقع بالكوفة وبالبصرة [1] ؛ فاستأذنوا عمر فى البناء باللبن، فقال : « افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات (حجرات)، ولا تطاولوا فى البنيان »، وكتب إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك، وجعل على تنزيل أهل الكوفة، والإشراف على بنائها أبو الهياج بن مالك الأسدى، وعلى تنزيل أهل البصرة والإشراف على بنائها عاصم بن الدلف أبو الجرداء .

أرسل سعد إلى أبى الهياج فأخبره بكتاب عمر فى الطرق : من « أنه أمر بالمناهج أربعين ذراعا، وما يليها ثلاثين ذراعا، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبعة أذرع، ليس دون ذلك شيء، وفى القطائع ستين ذراعا » [2] .

كان أول شيء خط بالكوفة مسجدها فاختطوه، ثم قام فى وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام، وبنى فى مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان، على أساطين رخام كانت للأكاسرة، سماؤها كأسمية المساجد الرومية، وبنوا لسعد داراً بحياله بينهما طريق منقب مائتى ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال، وبنى ذلك له روربة الفارسى من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة [3] .

وقد اتخذ على كرم الله وجهه الكوفة مقراً لخلافته [4]، وما زال لها شأن عند

---

(١) كان أشدهما حريقا الكوفة، فقد احترق منها ثمانون عريشا – الطبرى جـ٣ ص١٤٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطبرى جـ٣ ص ١٤٨، معجم البلدان لياقوت جـ٧ ص ٢٩٧ .

(٤) لأن بها شيعته وأنصاره، ولخصوبة أرضها، وكثرة خيراتها، ووقوعها فى مكان متوسط بين أقاليم الدولة الإسلامية، ولأنها من وجهة نظره أصلح من غيرها فى حرب معاوية بالشام .

الشيعة إلى وقتنا هذا، وفي ولاية عبيد الله بن زياد، بنى المسجد وأنفق عليه نفقات طائلة، حتى أصبح فريداً بين مساجد زمانه، وأشاد به الشعراء؛ ومن ذلك ما قاله السيد إسماعيل الحميرى :

لعمرك ما من مسجد بعد مسجد ... بمكة ظهراً أو مصلًّى بيثرب

بشرق ولا غرب علمنا مكانه ... من الأرض معمراً ولا متجنب

بأبين فضلا من مصلى مبارك ... بكوفان رحب ذى أراس ومحصب[1]

ثم اتسعت الكوفة وامتد عمرانها حتى بلغت فى أوائل القرن الرابع الهجرى ستة عشر ميلا وثلثى ميل، وبنى فيها خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لليمن[2] .

والتخطيط الذى وضع للكوفة ينبئ عن نظام هندسى جميل فضلا عن كونه يتلاءم مع طبيعة العرب؛ إذ لم يحجب هذا التخطيط هواء البادية عن أهلها الذين نشأوا فى بادية الجزيرة العربية؛ لكثرة المناهج واتساعها؛ فعاد إليهم نشاطهم واستردوا قوتهم .

وكان بين تمصير البصرة والكوفة ستة أشهر، والبصرة وإن نزلها المسلمون فى سنة ١٤ هـ إلا أنها لم تخطط إلا فى السنة التى خططت فيها الكوفة؛ وبذلك يمكن الجمع بين الروايات المختلفة للمؤرخين[3] .

وبتمصير المصرين: البصرة والكوفة، ارتفع شأنهما، وعظم أمرهما، وأصبح لهما شهرة عظيمة فى قيادة الجيوش، وحمل لواء العلم والأدب فى العالم الإسلامى كله .

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٧ ص ٢٩٩ .

(٢) معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٢٤٦ ، الطبرى جـ ٣ ص ٨٩ وما بعدها ، ص ١٤٧ وما بعدها - فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٥٨ ، التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٠٩ وما بعدها .

الفسطاط [١]

الفسطاط أول مدينة اختطها المسلمون فى مصر بعد الفتح الإسلامى سنة ٢١هـ، وهي تقع فى المنطقة التى فيهاجامع عمرو بمصر القديمة .

كان مكانها هو معسكر جيش المسلمين حينما حاصروا حصن بابل المعروف اليوم بدير النصارى، أو دير مارى جرجس .

ولما فتح عمرو هذا الحصن أجمع المسير إلى الإسكندرية لفتحها، فأمر بنزع فسطاطه (خيمته)، فإذا يمامة قد باضت فقال :« لقد تحزمت بجوارنا » أقروا الفسطاط حتى تنقف، وتطير أفراخها؛ فأقر فسطاطة ووكل به من يحفظه ألا يهاج » [٢] .

مضى عمرو إلى الإسكندرية، ولما فتحها كتب إلى عمر يستأذنه فى سكناها، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء » ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل .

فكتب إلى عمرو :« إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت »[٣].

ترك عمرو الإسكندرية ورجع إلى موضع الفسطاط : فسميت البقعة بالفسطاط لذلك [٤] .

---

(١) الفسطاط بيت من شعر، ومجتمع أهل الكورة، حوالى مسجد جماعتهم، وفيه لغات فستاط، فساط، فستات بضم الفاء وكسرها، ويجمع على فساطيط أو فساتيط – القاموس، معجم البلدان، التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣١٠ .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣١١ معجم البلدان جـ٦ ص ٢٧٩، والنقف ثقب البيضة .

(٣) المصدر السابق، الخطط للمقريزى جـ١ ص ٢٩٦ .

(٤) وموضع الفسطاط من أنسب الأماكن للمسلمين؛ فهى فى مكان يسهل منه الاتصال بحاضرة الخلافة، فضلا عن كونه وسطا بين شمالى البلاد وجنوبيها، وقريباً من النيل .

تنافس الناس فى المواضع التى ينزلونها، فولى عمرو على الخطط أربعة من أفاضل المسلمين هم: معاوية بن خديج، وشريك بن سمى، وعمر بنو قحزم، وجبريل بن ناشرة المعافرى، فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بين القبائل [١] .

ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارتها وتعلو؛ فبعد أن كانت الدور تبنى من طابق واحد أصبحت تبنى من أكثر قد تبلغ الخمسة أو تزيد، وبعد أن كانت الدار لا يسكنها إلا نفر قليل، صار يسكنها المائة بل والمائتان [٢] .

وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال، وقد تكلم المؤرخون العرب عن مساجدها، ومسالكها، وحماماتها، وأعداد ذلك بما قد يرتاب فيه بعض الناس [٣] .

وقد أشاد الشعراء بهذه المدينة الإسلامية العظيمة، التى فاقت فى كثير من نواحيها البصرة والكوفة، ومن ذلك قول الشريف العقيلى :

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

فى أبيات .

وقد ظلت الفسطاط قاعدة البلاد المصرية، ومقراً للإمارة فيها، حتى بنيت مدينة العسكر [٤] فى سنة ١٣٣ هـ ، في عهد صالح بن على العباسى، أول ولاة العباسيين، فانتقل إليها أمراء مصر .

ولما قدم صلاح الدين الأيوبى مصر سنة ٥٧٢ هـ . أمر ببناء سور على الفسطاط، والقاهرة، والقلعة التى على جبل المقطم، بلغ سبعة أميال ونصف [٥] .

جامع عمرو :

هو أول جامع أقيم فى مصر، ويعرف بالجامع العتيق، وكان موضعه جبانة، ولما نزل المسلمون فى مكانه حاز موضعه قيسبة بن كلثوم النجيبى ونزله، وحينما رجع

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٤٩ ، ٣٨٠ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) راجع معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٨٤ .

(٤) موضعها الآن زين العابدين والمدبح .

(٥) معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٨٤ .

المسلمون من الإسكندرية إلى هذا المكان، سأل عمرو قيسبة فى منزله هذا أن يجعل مسجداً؛ فتصدق به على المسلمين [١]، فبنى فى سنة ٢١ هـ، وقد وقف على تحرير قبلته جمع كبير من جلة الصحابة [٢] رضوان الله عليهم، منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفارى، وغيرهم رضى الله عنهم، وكان طوله خمسين ذراعاً فى عرض ثلاثين . ثم توالت الزيادات، إلى أن كانت سنة ٢١٢ هـ، إذ أمر عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون بتوسيعه، فزيد فيه مثله، وبذلك بلغت ٥٠ / ١١٢ X ٥٠ / ١٢٠ ، وهى مساحته الحالية .

وكانت تقام فيه حلقات الدروس، بعضها للإرشاد، والآخر لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب، فكان جامعة إسلامية ذاع ذكرها فى الآفاق، وصار يقصدها الطلاب من الأقطار المختلفة .

ولما قدم مصر الإمام الشافعي سنة ١١٩ هـ ألقى دروسه فى هذا الجامع، وصار قطب العلماء فيه، وظلت حلقات الدروس فى ازدياد، حتى إنها بلغت ٣٣ حلقة فى سنة ٣٢٦ هـ ، منها ١٥ حلقة للشافعية، ١٥ للمالكية، ٣ حلقات للأحناف .

وفى النصف الثاني من القرن الرابع بلغت الحلقات ١١٠ حلقة، فإذا قدرنا أن كل حلقة بها ٢٠ مستمعا كان مجموع المستمعين ٢٢٠٠ طالباً يقوم بتثقيفهم وتعليمهم أئمة الفقه والقراء، وأهل الأدب والحكمة .

وكان إلى جانب هذا دار حكم يجلس فيه الحاكم للنظر فى مصالح الناس، كما كان دار قضاء يجلس فيه القاضى للفصل فى الخصومات، وكان به بيت لحفظ مال المسلمين يسمى بيت المال [٣] .

---

(١) الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٢٤٦ معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٨٢ .

(٢) وقال المقريزى: إنهم ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ الخطط جـ٢ ص ٢٤٦ معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٨٢ .

(٣) الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٦ ، معجم البلدان لياقوت جـ ٦ ص ٣٨١ - ٣٨٤ ، تاريخ التمدن الإسلام للأستاذ جورجى زيدان، وتاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب جـ ١ ص ٢٣ - ٣٠ .

بغــــداد (١)

بغداد هى دار السلام، وأزهى مدن الرمان بناها الخليفة المنصور لتكون حاضرة دولته ومعقل جنده، ومأمن أهله وخاصته؛ وذلك لأن الخليفة أبا العباس السفاح كان قد اختط مدينة قريبة من الكوفة وسماها الهاشمية، فلما كان زمن أبى جعفر المنصور ووقعت واقعة الراوندية (٢) فيها كره سكناها لذلك، ولمجاورة أهل الكوفة؛ فإنه كان لا يأمنهم على نفسه، وكانوا قد أفسدوا جنده؛ فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه ويبنى فيه مدينة له ولعياله، ولأهله وجنده، وسار حتى أتى الموصل، ثم أرسل جماعة من الحكماء، وذوى اللب والعقل، وأمرهم بارتياد موضع، فاختاروا له موضع مدينته التى سميت مدينة المنصور، فذهب إلى هناك واعتبر المكان ليلا ونهارا؛ فاستطابه، وبنى به مدينته .

وبغداد فى موقع ممتاز يحقق غرض المنصور من كل الوجوه، وقد نبهه بعض عقلاء النصارى على فضيلة مكانها فقال: «يا أمير المؤمنين تكون على الصراة (نهر) بين دجلة مع الفرات؛ فإذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثم إن الميرة تأتيك فى دجلة من ديار بكر تارة، ومن البحر والهند والصين والبصرة، وفى الفرات من الرقة والشام، وتجيئك أيضاً من خراسان، وبلاد العجم من شط تامرا، وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل إليك عدوك، إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو خربت القنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت متوسط للبصرة، والكوفة، وواسط، والموصل، والسواد، وأنت قريب من البحر والبر والجبل» (٣) ؛ فازداد المنصور جدا وحرصا على بنائها، وكاتب الأطراف بإنفاذ الصناع والفعلة، وأمر باختيار قوم من ذوى العدالة، والعقل، والعلم، والأمانة، والمعرفة بالهندسة، ليتولوا قسمة المدينة وعملها، وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يعد اللبن والآجر، وهو الذى اخترع عده بالقصب .

---

(١) لفظ بغداد فارسى، ومعناه بستان رجل (باغ بستان، وداد اسم رجل) ولها أسماء كثيرة، منها بغذاذ بالذال، ودار السلام – راجع الفخرى ص١١٨، ١١٩، ومعجم البلدان جـ٢ ص٢٣١ .

(٢) هم قوم من أهل خرسان كانوا على رأى أبى مسلم،ويقولون بتناسخ الأرواح . فلما ظهروا أتوا قصر المنصور فطافوا حوله وتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ثم ظفر بهم – الفخرى فى الآدب السلطانية ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٨ .

وضع المنصور بيده أول لبنة وقال: «باسم الله والحمد لله، الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين»، ثم قال: ابنوا، فابتدأ بها فى سنة خمس وأربعين ومائة، وتممها فى سنة ست وأربعين ومائة، وجعلها مدورة، وجعل لها سورا عرضه من أساسه خمسين ذراعاً، ومن أعلاه عشرين ذراعا، وجعل لها أربعة أبواب [١] بين كل باب من أبوابها والباب الآخر ميل، وبجانب كل باب أبنية كبيرة لإقامة الفرق العسكرية، والأبواب الأربعة تفضى جميعاً إلى الساحة الواقعة فى المركز» وجعل قصره وجامعها فى وسطها [٢]، وبنى قبتها الخضراء فوق إيوان [٣] وكان علوها ثمانين ذراعا، وهى تاج بغداد ومأثرة من مآثر بنى العباس، وبلغ الخراج عليها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثين درهما [٤] .

وكانت بغداد جنة الدنيا، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ودار الخلافة، ومجمع الرافدين، وغرة البلاد، ومعدن الظرائف واللطائف، والمحاسن والطيبات، وبها أرباب الغايات فى كل فن، وآحاد الدهر فى كل نوع، هواؤها أغذى من كل هواء، وماؤها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرق من كل نسيم، فلا غرو أن أكثر الشعراء من مدحها والإشادة بها . ومن ذلك ما قاله بعضهم :

بغداد يا دار الملوك ومجتبى ... صنوف المنى يا مستقر المنابر
ويا جنة الدنيا ويا مجتبى الغنى ... ومنبسط الآمال عند المتاجر [٥]

هذا وهناك مدائن أخرى كثيرة بناها المسلمون كالقيروان وواسط، أو زادوا فى عمارتها كدمشق، والمدائن، وغرناطة وطليطلة، والإسكندرية .

* * *

---

(١) باب خراسان، وباب الشام، وباب الكوفة، وباب البصرة، وبنى على كل باب من أبوابها فى الأعلى من طاقة المعقود مجلساً يشرف منه على ما يليه من ذلك الوجه - مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) جعل قصره فى وسطها لئلا يكون أحد أقرب إليه من الآخر .

(٣) الإيوان : الصفة العظيمة كالأزج . والصفة الموضع المظلل - القاموس .

(٤) الفخرى ص ١١٨ .

(٥) معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٢ وما بعدها، مروج الذهب للمسعودى جـ٢ ص٢٣٢، الفخرى في الآداب السلطانية ص ١١٧ وما بعدها - تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ ف.برتولد ص٧٣ .

طرز العمارة الإسلامية

كانت الأبنية فى بلاد العرب الوسطى [١] قبل الإسلام ساذجة؛ ومكة - وهى من أهم المدن العربية - لم يكن بها من الأبنية إلا القليل، وكانت عامة الدور تبنى من طابق واحد، وباللبن، وقليل منها بالحجارة، وكانوا فى الغالب يعتمدون على الفرس والروم فى أبنيتهم .

ولما اتسعت الفتوح، وأقبلت على المسلمين، بنى الكثير منهم كطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام دورا متسعة فخمة من الحجارة والرخام فى المدينة والكوفة وغيرهما، وكلوا أمر بنائها إلى المهرة من الفرس والروم .

وقد هدم عثمان رضى الله عنه مسجد النبى ﷺ وأعاد بناءه بالحجارة والرخام، كما بنى داره الفخمة بالمدينة وشيدها بالحجر والكلسى وجعل أبوابها من الساج والعرعر [٢] .

وهكذا أخذت العمارة عند العرب فى الترقى والفخامة، ولما استولوا على بلاد فارس والشام وغيرهما، واختلطوا بأهل هذه البلاد التى فتحوها، استفادوا من خبرتهم

---

(١) فى العصور الخالية كان فى اليمن، وفى شمالى بلاد العرب، وحوران نماذج معمارية هي آية فى الضخامة والتناسق، مما ينهض دليلا على علو الفن المعمارى وتطوره عندهم؛ فحصن غمدان فى صنعاء بلغ ارتفاعه عشرين طابقاً، وبلغ ارتفاع جدران معبد مأرب تسعة أمتار ونصف. هذا إلى النقوش العظيمة التى يرجع أقدمها إلى القرن العاشر ق . م، وهى نقوش يدهشنا تناسق كتابتها ووضوحها، وقد وصفها الحمدانى الجغرافى العربى بما يأخذ بلب الإنسان إذ يقول: « ترى صوراً من جميع الأشكال منقوشة عليها، من حيوانات وحشية ومفترسة .. ونسور تخفق بأجنحتها، وعقبان تفترس أرنب برية ... وقطعان من الغزال تسرع إلى شباك حتفها، وكلاب مرخية آذانها بعضها مقيد والآخر طليق، ورجل يرفع سوطه يجرى الخيول » راجع الحضارة العربية للأستاذ ى . هل ص ٩ ، ١٠ .

(٢) الكلس مادة يبنى بها من النورة وأخلاطها، والعرعر شجر السرو - القاموس، وراجع مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٣٤ ط عبد الرحمن محمد .

وسبقهم فى فن العمارة، ثم تفوقوا عليهم وبزوهم فى ذلك، واتخذوا لأنفسهم طرازاً للبناء والعمارة خاصا بهم، متميزاً عن الطرز الفارسى والبيزنطى، متلائماً وطبيعتهم وأحوالهم، وظلوا يوالونه بالتهذيب مرة، وبالإبداع أخرى حتى بلغ أسمى درجات الرقى والروعة، وفاق كلا من الطرازين الفارسى والبيزنطى من حيث الإتقان وجمال التنسيق، والافتتان والإبداع (١)، وقد أحدثوا فيه ما لم يكن معروفا من قبل، كالبناء الذى عرف بالحيرى، وهو البناء الذى أحدثه الخليفة المتوكل فى قصورها؛ فجعل تخطيطها على مثال تعبئة الجيوش، تشتمل على رواق فيه الصدر وهو مجلس الملك، وعلى كمَّين وهما الميمنة والميسرة لخواصه وخزائنه (٢)، وتبعه الناس فيه، وكبناء الدور عند أهل العراق التى كشفت عنها حفائر سامرا (٣) وكآيات الصناعة المدهشة الباقية إلى اليوم فى قصر الحمراء بغرناطة، وهوالذى شهد الأفرنج أنفسهم بأنه فى هندسته ونقوشه مبتدع على غير مثال سابق (٤) .

وقد أجمع الباحثون على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة فى فن العمارة، هو طريقة عمل الأقبية التى تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة، وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية فى العمارة، وهى عمل الأسقف، وذلك بالطريقة نفسها التى اتبعت فى العمارة القوطية فى أوربا بعد ذلك بقرنين من الزمان (٥) .

«وقد حفظت لنا التواريخ الكثير الطيب من وصف قصورهم الفخمة، وصروحهم الشاهقة، وما كان لهم فيها من إحكام الوضع وتشييد البناء، وتنميق الزخرف» (٦)، «ومساجد صنعاء تذكرنا بأشهر المبانى التى انتهى إليها فن العمارة الإسلامية» (٧) .

---

(١) راجع الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٠٣ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٠٣ .
(٤) مقدمة كتاب أعلام المهندسين للمرحوم أحمد تيمور .
(٥) من مقال الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى المجتمع العربى .
(٦) مقدمة كتاب أعلام المهندسين للمرحوم أحمد تيمور .
(٧) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٦٥ .

وقد استخدمت أوربا فى العصور الوسطى كثيراً من المعماريين العرب منذ عصر شارلمان، فانتفعت من خبرتهم، وفنهم، ونبوغهم وتفوقهم فى العمارة والبناء .

مظاهر الطرز الإسلامى :

من مظاهر الطرز الإسلامى :

١- اتخاذ الأعمدة والمنحنيات والمشربيات [١] والشرفات والقباب، والمآذن والمدخل الملتوى [٢] وبعض هذه المظاهر مستوحى من بيئاتهم وأحوال معيشتهم [٣].

٢- إن المدن كانت تحاط بأسوار منيعة، ولها أبواب متينة يمكن إغلاقها عن الحاجة كأسور بغداد .

٣- أن تكون فى وسط المدينة ساحة متسعة بها أكبر مساجدها .

٤- إن البيوت كانت تبنى داخل ساحة الدار، وليس لها نوافذ تطل على الشارع .

٥- أن يخصص حى من أحياء المدينة لأهل حرفة يعرف باسمهم، كما أن بغضهم للنظام المركزى جعلهم يتجمعون قبائل منفصلة أينما حلوا، لكل قبيلة حيها ومنازلها، ومسجدها، وسوقها، ومقابرها، وهذا يلائم ما درجوا عليه من الحرية، واعتبر ذلك بالكوفة والفسطاط .

٦- إن اختيار موقع المدينة وتخطيطها يكون قريب الشبه من باديتهم، وأحوال معيشتهم من حيث الموقع، واتساع الخطط، وهم قد برعوا فى تخطيط المدن، وبرزوا غيرهم، كما يتجلى فى كثير من المدن التى بنوها .

---

(١) المشربيات : نوافذ سدت بستائر شبكية من الخشب .

(٢) المدخل الملتوى كان يلاحظ بصفة خاصة فى الحصون حتى يكون من بداخلها مستوراً .

(٣) يقول السيد أمير على : ومما لا شك فيه، أن الطراز المعمارى لأى شعب من الشعوب يستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلى لذلك الشعب وأحوال معيشته البدائية، ولهذا تلاحظ فى رسوم الأقواس والأعمدة، والمنائر والقباب المستعملة فى الفن المعمارى العربى تشابهاً قوى مع نقوش وتقبب أحواض النخيل المحببة إلى قلوب العرب - تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص١٦٩ .

٧- إن زخارفهم كانت مستمدة من المناظر الطبيعية، والأشكال الهندسية والنباتية، وتحاشوا التماثيل والصور المجسمة؛ لأنها محرمة عليهم، حتى لا يتشبهوا بعبدة الأوثان .

٨- إن تخطيط المساجد - بعد أن ارتقى فن العمارة - كان يقوم على أربعة إيوانات مسقوفة، وعقودها محمولة على عمد من الرخام، وأكبرها إيوان المحراب، ويتوسط الإيوانات صحن مكشوف، كثيراً ما تتوسطه قبة تحتها فسقية [١] .

* * *

---

(١) راجع معجم البلدان، فتوح البلدان للبلاذرى، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ٢٠٣ ، تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ بارتولد، ص ٦٢ - ٩٥ ، النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله، تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب .

الطرق التجارية

كان لاهتمام خلفاء المسلمين وأمرائهم بالتجارة أثر واضح فى العناية بالطرق التجارية، وحراستها، وتأمينها؛ فحفروا الآبار، وأقاموا المنائر فى المرافئ والثغور، واهتموا بإنشاء الأساطيل لحماية سواحلهم من المغيرين وقرصان البحر

ومن أهم هذه الطرق :

١- الطريق البرى من بغداد إلى الصين ماراً بسمرقند وتركستان .

٢- الطريق البرى من الإسكندرية إلى بلاد المغرب .

٣- الطريق البرى من شمال أفريقيا عبر الصحراء الكبرى إلى نيجريا، والمنطقة الاستوائية الأفريقية .

٤- الطريق البحرى من البصرة إلى الهند والصين ماراً بالخليج الفارسى وبحر الهند .

٥- الطريق البرى البحرى من بغداد إلى بلاد الروس ماراً بجرجان، وبحر الخزر، ونهر الفلجا .

٦- الطريق البرى البحرى من سواحل الشام إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر ماراً ببحر القلزم [١] .

وسرعان ما أصبح الكثير من المدن والمرافئ البحرية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى، وحسبنا ما ذكره المؤرخون عن البصرة وبغداد والإسكندرية .

* * *

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للاستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣٠٤ .

الفنون

«لم يكن للعرب فى جاهليتهم فنون بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ فيما عدا الشعر والخطابة» ، فلما جاء الإسلام واختلطوا بغيرهم عرفوا فنونهم ونقلوها، وأفادوا منها، لكنهم لم ينقلوها كما هى، بل هذبوها، وأبدعوا فيها، كما هو شأنهم فى كل فن أو علم أخذوه عن غيرهم، حتى أصبح لهم طرز خاص بهم، وطابع متميز عن غيره، ومن أهم هذه الفنون الأصيلة والدخيلة التى أجادوها :

١- الشعر والخطابة .   ٢- الموسيقى والغناء .   ٣- الخط والزخرفة .

* * *

الشعر

يقول ابن خلدون : «وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية، على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة، ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا، يكون كل جزء منها مستقلا بالإفادة، لا ينعطف على الآخر، ويسمونه البيت، فتلائم الطبع بالتجزئة أولا، ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادئ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها؛ فلهجوا به، فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره، لأجل اختصاصه بهذا التناسب، وجعلوه ديوانا لأخبارهم، وحكمهم وشرفهم، ومحكا لقرائحهم فى إصابة المعنى وإجادة الأساليب» (١) .

والشعر عندهم ترجمان الخيال المصور لأشجان النفس وأفراحها ووقارها وطيشها، ورسول القلوب يستلهمها سر الطبيعة وجمالها؛ فتنفثه على عذبات الألسن ترنيمات موسيقية عذبة على مقاطع تتزن فى نغمها،وروى ترتاح إليه النفس، وهو كما قال شوقى .

الشعر دمع ووجدان وعاطفة   يا ليت شعرى هل قلت الذى أجد

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ٩٦٩ .

وهو فطرى فيهم يندر منهم من لا يستطيعه، فطبيعتهم شعرية، لأنهم ذوو نفوس حساسة، وشعور رقيق، وقد أغرموا به – وحق لهم ذلك – لأنه صحيفة مفاخرهم، وسجل مناقبهم، وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصل يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم، به يفتخرون، وبنابغيه يعتزون . لم تخل قبيلة من قبائلهم من شاعر يحمى ذمارها، ويفاخر بأمجادها، ويصور عواطفها، ويعبر عن أحاسيسها .

كانت القبيلة تزهو ويرتفع شأنها، وتهنؤها القبائل الأخرى إذا نبغ منها شاعر ينافح عنها، ويشيد بمفاخرها، وكان للشعر تأثير أى تأثير فى نفوسهم، يدل لذلك أن الشاعر بشعره قد يخفض قبيلة من القبائل أو يرفعها، فقول جرير فى بنى نمير من عامر ابن صعصعة :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

جعل كل نميرى إذا سئل عن نسبه قال : إنه عامرى، وبعكس ذلك قول الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يساوى بأنف الناقة الذنبا

فقد رفع بنى أنف الناقة، وجعلهم يفاخرون بقبيلتهم بعد أن كان الواحد منهم إذا سئل عن نسبه قال: قريعى (من بنى قريع) وهو نسب آخر لهم .

ولقوة تأثير الشعر على نفوسهم كان النبي صلوات الله عليه – وهو الخبير بنفوس العرب – ينصب لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد يقوم عليه ينافح عنه .

وكان كثير من أصحاب النبى ﷺ من الشعراء المجيدين، منهم: كعب بن زهير الذى خلع عليه النبى ﷺ بردته حينما أنشده قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول (١)   متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنهم النابغة الجعدى الذى أنشده قصيدته التى يقول فيها :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

---

(١) التبل الذحل والإسقام، وتبله ذهب بعقله ... والمرأة فؤاد الرجل أصابته بتبل – القاموس .

فقال النبى ﷺ : « أين المظهر يا أبا ليلى » فقال : الجنة يا رسول الله . فقال : « أجل إن شاء الله » .

وهكذا كانت منزلة الشعر، وأثره فى نفوس العرب فى الجاهلية، وصدر الإسلام، وقد أوجد فيه الإسلام الكثير من الأخيلة والأغراض، بما جد من شئون وأحداث لم تكن عند العرب من قبل، وكان من أهم الأغراض تحميس الجند، وحضهم على القتال؛ فكان الشعر يقوم عندهم مقام الموسيقى فى الجيوش الآن .

على أن بلاغة القرآن قد أخذت بلب العرب، وروعة أسلوبه، وسمو أهدافه، ودقة معانيه أثارت إعجابهم؛ فانصرف الكثير منهم عن قول الشعر، وامتنع عن قرضه؛ حتى إن بعضهم كان إذا سئل عن سبب امتناعه عن قول الشعر قال : « أبدلنى الله خيرا منه » وتلا سورة من القرآن .

والعرب وإن انصرفوا عنه فى أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، لكن لما لم ينزل وحى بتحريمه، واستمع إليه البنى ﷺ ، وأثاب عليه، سرعان ما رجعوا إلى ديدنهم فيه حينما ظهر الإسلام، وأطمأنت العرب بالأمصار، وكان الأمويون يُفضلون كثيرا على الشعراء ويجيزونهم، ثم جاء من بعدهم العباسيون فقربوا الشعراء، وأسنوا لهم الجوائز؛ فعلت منزلة الشعر وسمت ، « وانظر ما نقله صاحب العقد فى مسامرة الرشيد للأصمعى فى باب الشعر والشعراء، تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك، والرسوخ فيه، والعناية بانتحاله، والتبصر بجيد الكلام ورديئه، وكثرة محفوظه منه » [١] .

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٤٠ .

الخطابــة

الخطابة هى الشعر المنثور الذى يحرك العواطف، ويوقظ الشعور، ويثير النفوس، وهى كالشعر تحتاج إلى الخيال والبلاغة، فالعبارة البليغة قد تقعد القوم، أو تقيمهم، بما تثيره فى نفوسهم من النخوة والعظمة .ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة، أن الغالب فى الشعراء أن يكونوا خطباء، وفى الخطباء أن يكونوا شعراء؛ فإذا غلب الشعر على أحدهم سموه شاعرا، أو الخطابة سموه خطيبا، والقبائل التى كثر فيها الخطباء هى فى الغالب القبائل التى كثر فيها الشعراء [1] .

وكان الغالب فى الخطباء أن يكونوا رؤساء القبائل وحكماءها، ومن أشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة الإيادى، وسحبان وائل الباهلى، وأكثم بن صيفى التميمى، وعمرو بن كلثوم التغلبى .

وكانت الخطابة فيهم قريحة كالشعر، على أن الشعر كان مقدما على الخطابة فى جاهليتهم، لفرط حاجتهم إليه فى تقييد مآثرهم، وتفخيم شأنهم، وتهويل أمرهم، فلما جاء الإسلام صارت الخطابة مقدمة، لأنه لم يرد فى القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد فى الشعر، ولحاجتهم إليها فى استنهاض الهمم، وإرهاب الأعداء، وجمع الكلمة، ورأب الصدع، وقد زادها الإسلام بلاغة وحكمة؛ بما كان يتوخاه الخطباء من اقتباس الآيات القرآنية، والاستفادة من أسلوب القرآن، وزادت قوة ووقعا فى النفوس، بنهضة المسلمين للحروب وانتصاراتهم الباهرة فيها؛ فازدادوا أنفة، وسمت نفوسهم؛ فسما بها ذوقهم فى البلاغة، وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد والأمم، والألسنة المختلفة؛ وبذلك بلغت مبلغا لم تدانيه فيها أمة سبقتهم، أو لحقتهم، بلاغة

---

(١) راجع تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

وإيقاعا وتأثيرا، وقد كثر الخطباء فى الإسلام، وعلا ذكرهم، ومن أشهرهم: على بن أبى طالب، وزياد ابن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى .

وكانت الخطابة من شأن الخلفاء فى الجمع والأعياد والأحداث، وكان لخطبهم أثرها البالغ فى نفوس الناس، بل وفى مجرى التاريخ، كخطبة أبى بكر عقب وفاة النبى ﷺ ، وخطبته فى سقيفه بنى ساعدة . وكان الأمراء والقواد يخطبون فى الجند قبل الالتحام بالعدو؛ فيذمرونهم على القتال، ويحرصونهم على الثبات، والاستشهاد فى سبيل الله، وكثيرا ما كانت قوة العارضة، وتأثير الخطبة فى نفوس الجند سببا فى النصر، كخطبة خالد بن الوليد فى موقعة اليرموك، والمغيرة بن شعبة فى وقعة القادسية، وطارق بن زياد فى فتح الأندلس .

ويعد من قبيل الخطابة البلاغة فى المكاتبات، وقد كان الخلفاء وخصوصا فى صدر الإسلام إذا كاتبوا أميراً فى أمر تحدوا البلاغة، وأتوا بالمعجز من القول،ومن ذلك ما ينسب إلى على كرم الله وجهه من أنه ولى أميراً فظهر عجزه؛ فعزله وكتب إليه: «ولاك الاختيار، وعزلك الاختبار، فيدك فى الجواب ورجلك فى الركاب» .

* * *

الموسيقى والغناء

« الموسيقى فن رياضى يبحث فيه عن أحوال النغم من حيث الإتقان والتنافر، وأحوال الأزمنة المتخللة بين النقرات من حيث الوزن، وعدمه ليحصل معرفة كيفية تأليف اللحن .. وهو يشتمل على بحثين: البحث الأول عن أحوال النغم، والثانى عن الأزمنة؛ فالأول يسمى علم التأليف، والثانى علم الإيقاع .. والغاية والغرض منه حصول معرفة كيفية تأليف الألحان[١] » ، « والموسيقى كالشعر، هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعانى، وهى تعبر عنه بالأنغام والألحان » [٢] .

« والغناء تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متفاوتة، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات » [٣] .

وقد تغنى الحداة من العرب فى حداء [٤] إبلهم، والفتيان فى خلواتهم؛ طرداً للوحشة عن أنفسهم، ورجعوا الأصوات وترنموا، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء [٥] :

إن غناء الإبل الحداء فغنها وهى لك الفداء

وما زال هذا النوع من الغناء موجوداً فى بلادنا بين من يقوم على الإبل، كذلك

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان ص ٤٩ .

(٣) مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٦٤ .

(٤) الحداء بالضم والمد سوق الإبل والغناء لها ـ لسان العرب .

(٥) الترنم إذا كان بالتهليل أو نوع القراءة كانوا يسمونه تغبير (بالغين المعجمة والباء الموحدة) تذكر بالغابر أى بأحوال الآخرة – مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٦٩ ، والترنم ترجيع الصوت .

كانوا يضربون بالدف، وهو نوع بدائى من الموسيقى، وقد أباحه الإسلام فى الولائم، وكان الحارث بن كلدة الثقفى – الذى كان على عهد النبى ﷺ – يضرب العود [1].

« ولما جاء الإسلام، واستولى المسلمون على ممالك الدنيا، وحازوا سلطان العجم، وغلبوهم عليه، ومالوا إلى الترف، وغلب عليهم الرفه، بما حصل لهم من غنائم الأمم، صارو إلى نضارة العيش، ورقة الحاشية، واستحلاء الفراغ، وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجاز، وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات، فلحنوا عليها أشعارهم" وظهر بالمدينة نشيط الفارسى، وطويس، وسائب جاثر مولى عبيد الله بن جعفر؛ فسمعوا شعر العرب ولحنوه، وأجادوا فيه، وطار لهم ذكر، ثم أخذ عنهم معبد وطبقته، وابن سريح وأنظاره » [2] .

أخذ حب الموسيقى يتطور إلى شغف مفرط فى عهد « الوليد الثانى » ، وأصبحت الأموال الطائلة تنفق من غير حساب على مشاهير المغنين والموسيقيين [3]، وما زالت صناعة الغناء تتدرج وتزداد إتقاناً كلما قربت الدولة من الترف والقصف إلى أن اكتملت، وبلغت الغاية على يد إبراهيم بن المهدى، وإبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق، وابنه حماد فى أيام بنى العباس، وبخاصة فى زمن الرشيد الذى كان أول من وضعها تحت رعايته، فارتقت فى ظله حتى أصبحت مهنة شريفة، وكان الأمراء والأميرات فى العصر العباسى يعملون على رفع شأنها، فكانت الأميرة « علية » وهى معروفة بفضلها، وورعها إحدى شهيرات عصرها فى الموسيقى، ولها ذوق سليم فى وضع الأنغام والألحان، وقد أشاد صاحب كتاب الأغانى بتآليفها، ولم يكن أخوها إبراهيم يقل عنها نبوغاً وحذقاً، كما كان الخليفة الواثق عالماً بالموسيقى مشهوراً بالعزف .

وقد تعددت آلات الموسيقى، وتنوعت وكان منها الدف والطنبور والعود

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٧٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ٣ ص ٩٧٠ .

(٣) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للسيد أمير على ص ١٧٢ .

والرباب والناى والصنج والقيثار والأرغول، وكان من أشهر المغنين نشيط ومعبد، وابن سريح، وإبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق، وابنه حماد، وغيرهم، ومن المغنيات جميلة، وحبابة وسلامة، وعقيلة، وغيرهن [١] .

وقد ازدهرت الموسيقى بالأندلس، وكان بدء ذلك أنه كان للموصليين [٢] غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد؛ فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام أمير الأندلس فبالغ فى تكرمته، وركب للقائه، وأسنى له الجوائز والإقطاعات، وأحله من دولته وندمائه بمكان؛ فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وهو الذى زاد فى العود وتراً خامساً، واخترع مضراب العود من قوادم النسر [٣] .

ولما اشتغل المسلمون بنقل العلوم الدخيلة، وترجمتها كان من بينها كتب الموسيقى اليونانية، والهندية، والفارسية؛ فتناولوها – كعادتهم – بالدرس والتهذيب، والزيادة حتى صارت فنًّا متميزاً خاصًّا بهم، وألفوا فيه المؤلفات المسهبة فضلا عما اخترعوه من الآلات، أو استنبطوه من الألحان التى لم يكن لها مثيل من قبل، كالآلة المعروفة بالقانون التى اخترعها الفارابى، والتى ظلت إلى الآن كما هى .

وكان المغنون من خيرة المثقفين، ومن أحاسن أهل الأدب، وكان للخلفاء – كما ذكرنا – عناية كبرى بالغناء والمغنين؛ يبذلون لهم الجوائز السنية، والأموال الطائلة لتجويد غنائهم وتحسينه، وقد كان راتب الموصلى ١٠,٠٠٠ درهم فى الشهر غير الصلات، وقد رأينا ما كان من حفاوة الحكم بن هشام بزرياب [٤] .

---

(١) يقول ابن خلدون : «وكان الكتاب والفضلاء فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه، فلم يكن انتحاله قادحا فى العدالة والمروءة، وقد ألف القاضى أبو الفرج الأصبهانى – وهو ما هو – كتابه فى الأغانى، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه» . ص ٥٠٥ ، ٧٠٤ ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص٢١٦، ٢٩٢، تاريخ التمدن الإسلامى جـ٣ ص ١٩٧ .

(٢) أسرة إبراهيم الموصلى .

(٣) ابن خلدون جـ٣ ص ٩٧١ ، تاريخ التمدن الإسلامى ص ١٩٩ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامى ص ١٩٨ .

وقد ذكر ابن خلكان أن الفارابى حضر مجلس غناء لسيف الدولة الحمدانى ولم يكن أحد من الحضور يعرفه فعاب المغنين؛ فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء؟ ففتح خريطة، واستخرج تلك الآلة، وركبها، ثم لعب بها؛ فضحك منها كل من كان فى المجلس، ثم فكها، وركبها تركيبا آخر، وضرب عليها؛ فبكى كل من كان فى المجلس، ثم فكها وغير تركيبها، وضرب ضربا آخر؛ فنام كل من فى المجلس حتى البواب؛ فتركهم نياما وخرج (١) .

ومن أشهر من برع فى الموسيقى، وألف فيها الكندى (ت٨٧٣م) ، والفارابى (ت ٩٥٠م)، وعبد المؤمن (ت ١٢٩٤م) ، وقد اكتملت بهم الموسيقى العربية من الناحيتين: العلمية والنظرية، غير أن معظم مؤلفاتهم قد اندثرت، ولم يبق منها إلا القليل، كما أن معظم ما وصلوا إليه من أسرار هذا الفن قد ذهب أيضاً، والقليل الباقى رموز غامضة نجدها فى كتاب الأغانى ونحوه .

* * *

(١) ابن خلكان جـ٣ ص ٧٧ .

الزخرفـة والخـط

لـمحة إلى تاريخ الخط :

« الخط رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما فى النفس [١] » .

وليس لدينا من آثار العرب فى الحجاز ما يدل على أنهم عرفوا الكتابة إلا قبيل الإسلام لغلبة البداوة على طبائعهم، والكتابة من صنائع الحضر « على أن الذين رحلوا منهم إلى العراق أو إلشام قبيل الإسلام تخلقوا بأخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم ..... فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطى، أو العبرانى، أو السريانى؛ فتولد من الأول الخط النسخى (الدارج) ، ومن الثانى الخط الكوفى [٢] .

واختلفوا فى من نقل الخط الكوفى إلى بلاد العرب، والأشهر أنهم أهل الأنبار، وذلك أن بشر بن عبد الملك الكندى أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل تعلم هذا الخط من الأنبار، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة، وعرفت الكتابة بها قبيل ظهور الإسلام، وفى ذلك يمن رجل من أهل دومة الجندل على قريش فيقول :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا

أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو ... من المال ما قد كان شتى مبعثرا

فأجريتم الأقلام عودا وبدأة ... وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا [٣]

وأغنيتمو عن مسند الحى حمير ... وما زبرت فى الصحف أقلام حميرا

---

(١) الخط « ثانى رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة؛ إذ الكتابة من خواص الإنسان التى يميز بها عن الحيوان . وأيضا فهى تطلع على ما فى الضمائر، وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضى الحاجات، وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم » مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٩٤٩ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان .

(٣) المرجعين السابقين، المزهر جـ ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٨ ، قصة الكتابة العربية للدكتور إبراهيم جمعة .

« والخلاصة فى كل حال أن العرب تعلموا الخط النبطى من حوران فى أثناء تجاراتهم إلى الشام، وتعلموا الخط الكوفى من العراق قبيل الإسلام بقليل، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام، والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معا: الكوفى لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية، كما كان سلفه السطر نجيلى (قلم من الخط السريانى) يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية، والنبطى لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية » [1] .

جاء الإسلام والكتابة معروفة فى الحجاز، ولكنها غير شائعة، ولم يكن يعرف الكتابة من قريش إلا بضعة عشر رجلا، أكثرهم من كبار الصحابة، ومن بينهم – كما قدمنا – عمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، وأبو عبيدة بن الجراح، والعلاء بن الحضرمى، وأبو سلمة بن عبد الأشهل، « ثم تعلم غيرهم من الصحابة، ومنهم خرج كُتَّاب الدواوين للخلفاء الراشدين، وكتاب الرسائل وكتاب القرآن، فكتبوا القرآن بالكوفى أيام الخلفاء الراشدين، وأيامهم تفرع الخط المذكور إلى أربعة أقلام، اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتب أهل زمانه، وكان يكتب لبنى أمية المصاحف، ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان فى أوائل الدولة العباسية، فزاد على قطبة، ثم زاد إسحق بن حمادة وغيره فبلغت الأقلام العربية إلى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلما »[2] .

وفى أيام المأمون تنافس الكتاب فى تجويد الخط فحدثت أقلام أخر، وهكذا حتى زادت « الخطوط على عشرين شكلا وكلها تعد من الخط الكوفى » .

« وأما الخط النسخى أو النبطى فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية، حتى نبغ على بن مقلة الوزير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فأدخل فى الخط المذكور تحسينا جعله على ما هو عليه الآن، وأدخله فى كتابة الدواوين، ثم تلاوه فى ذلك على بن هلال الكاتب، الشهير بابن البواب، والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان وراجع مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٤٩ وما بعدها ففيها كلام قيم .

الخط من صورة القلم الكوفى إلى صورة القلم النسخى » (١) ، ويغلب الأستاذ جورجى زيدان « أن ابن مقلة إنما جعل الخط النسخى على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف » .

الزخرفة :

تجنب المسلمون الصور المجسمة والتماثيل، وتحرجوا منها حتى لا يتشبهوا بعبدة الأوثان، وقد دفعهم هذا الحرج إلى أن يتجهوا بميولهم الفنية نحو الزخرفة، التى لم يكن عليهم فيها حرج، ولا جناح، واستعاضوا بها عن ذلك، فأكبوا عليها، وأفتنوا فيها، وأجادوا زخرفة الزجاج، والنسيج، والكتب، والمبانى، وغيرها بالمناظر الطبيعية، والأشكال الهندسية والنباتية، التى تؤلف على نحو يجعلها جميلة تسر الخاطر، بديعة فى عين الناظر .

كذلك وجدوا لميولهم الفنية مجالا فى الخط الكوفى (٢) الذى أصبح بما دخل عليه من تحسين على يد كثير من مشاهير الخطاطين فنًّا زخرفيًّا جميلا يسر الخاطر، وهو بطبيعته صالح للزينة قابل للانسجام الرائع مع النقوش العربية، وبفضل العناية به لأغراض الزخرفة صار نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فنًّا قائما بذاته، واستمر إلى يومنا هذا، وفى دور الكتب والآثار نماذج كثيرة لذلك، فيها من الروعة والإبداع ما لا يقدر قدره، وأكثر العبارات التى استعملها الفنانون العرب فى الزخرفة الخطية مستمدة من القرآن الكريم وبخاصة « البسملة »، وكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » (٣) . ولجمال هذه الزخارف وروعتها أخذها رجال الفن من المسيحيين، واستعملوها فى زخارفهم، وقد أشار الباحثون إلى أمثلة كثيرة لكتابات عربية أعجب الأوربيون بفنها الزخرفى، ونقلوها دون فهم، لتزيين القصور والكنائس؛ ومن ذلك

---

(١) المصدرين السابقين، وراجع كشف الظنون جـ ١ ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٢) كان الخط الكوفى يسمى قبل الإسلام الحيرى نسبة إلى الحيرة وهى إحدى مدن العراق، وقد ابتنى المسلمون الكوفة بجوارها، ونسب الخط إليها، والغالب أنها نسبة تجويد وتحسين لانسبة أصل؛ لأن العرب الذين استوطنوها جودوه وحسنوه .

(٣) لم يستعمل فى الزخرفة حتى القرن التاسع من الميلاد غير الخط الكوفى - راجع حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ص ٥٥٦ .

كتابة عربية حول رأس السيد المسيح المصور فوق الأبواب التى أنشأها البابا أوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧م)فى كنيسة القديس بطرس، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس، والقديس بولس [١]. وهكذا أخذ استعمال الحروف العربية والزخارف الإسلامية يزداد انتشاراً فى صناعات أوربا المسيحية . وزاد الانتشار كثرة اعتماد أوربا - إبان ازدهار الحضارة الإسلامية - على البضائع المزخرفة الواردة من البلاد العربية، كالأقمشة الحريرية، والأوانى الزخرفية، والمصابيح النحاسية مما فتح الطريق أمام الفن العربى لغزو أوربا [٢] .

* * *

(١) المصدر السابق، وراجع كتاب تراث الإسلام طبع لجنة الجامعين لنشر العلم جـ٢ ص١٨ .

(٢) من مقال للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى المجتمع العربى، وراجع الحضارة العربية للدكتور جوستاف لوبون ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

الفصل السابع

الحياة الاجتماعيّة

- تكوين المجتمع العربى .
- الأسرة والمرأة فى الإسلام .
- الـــرق .
- اشتراكية الإسلام .

تكوين المجتمع العربى

كان للمجتمع العربى الإسلامى سمات واضحة، ومميزات أثرت أثرها العظيم فى حياة المسلمين وحضارتهم؛ فقد كان يسودهم الإخاء والتسامح، وكانوا يتسمون بالحلم، والأدب الجم، والوقار، والرضا بما قسم الله من حظوظ الدنيا؛ فكان حقا مجتمعاً سعيداً هانئاً مطمئنا؛ يقول العلامة جوستاف لوبون: « إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين، وتسليمهم بالأمر الواقع الذى ليس له دافع، والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم، وبين ثورات الأوربيين الدائمة،وهرجهم وتنازعهم الاجتماعى، ومن أظهر ما يتصف به الشرقيون أدبهم الجم، وحلمهم الكبير، وتسامحهم العظيم نحو الناس والأموال، ودعتهم ووقارهم وقناعتهم، وقد منحهم إذعانهم لمقتضيات الحياة طمأنينة روحية قريبة من السعادة المنشودة، وقد أورثتنا أمانينا، واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً نفسيًا بعيداً عن بلوغ تلك السعادة » (١) .

وكان المجتمع العربى يتكون من عدة طوائف تختلف باختلاف أحوالها، وأقدارها الاجتماعية . من أهمها :

١- كبار رجال الدولة، وكان منهم الخلفاء والأمراء والقضاة ومن إليهم، وكانوا يلون الوظائف الرئيسية، والمناصب الكبرى .

٢- العلماء والأدباء، وهؤلاء كان لهم فى الدولة نفوذ أدبى عظيم، ويتمتعون بمنزلة شعبية مرموقة، وإلى العلماء كان يرجع الناس فى أمور دينهم .

٣- الجند وكانوا يتميزون بملابسهم وزيهم، ولهم ديوانهم الخاص الذى يدون فيه أوصافهم وأعمالهم وأرزاقهم .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٨٦ .

٤- رجال الأعمال كأصحاب الأملاك والتجار والصناع، وهؤلاء كانوا يختلفون باختلاف أحوالهم وثرائهم، ويتميزون بملابسهم، وطرق معيشتهم .

٥- العامة وسواد الأمة . وهم أهل الفلاحة، وأمثالهم وكانوا فى الأغلب من أهل الذمة، ثم شاع فيهم الإسلام، واستعربوا .

٦- أهل الذمة، وهم اليهود والنصارى، الذين ظلوا على دينهم، ولم يدخلوا فى الإسلام، وكان لهم عقد وذمة فى عنق المسلمين .

٧- الخدم وغالبيتهم من الرقيق المجلوب من الشعوب غير الإسلامية وقد شاع استخدام الرقيق فى عهد الدولة العباسية، وكانت له أسواق من أكبرها سمرقند .

أحوال المجتمع العربى :

١- كانت الحكومة عربية خالصة من بدء الإسلام إلى نهاية عهد الأمويين .

٢- نظر الأمويون إلى غير العرب من أهل البلاد المفتوحة نظرة من يرى أنه أعلى قدراً، وأسمى منزلة - على الرغم من اعتناقهم الإسلام - وأطلقوا عليهم اسم الموالى، وكان لإطلاق هذا الاسم عليهم رغم إسلامهم أثر سيئ فى نفوسهم ظهر فى انضمامهم للعباسيين ضد الأمويين .

٣- تطورت الأحوال، وقامت الدولة العباسية على أيدى الفرس، فعلت منزلة الموالى، وأسند إليهم الكثير من الوظائف الهامة فى الدولة، وأصبح لهم نفوذ واضح لدى الخلفاء العباسيين أثار نقمة العرب عليهم .

٤- فى عهد الخليفة المعتصم دخل العنصر التركى فى الجيش الإسلامى، وصار لهم نفوذ قوى فى المجتمع، وسلطان لا يدافع، إلى حد أنهم كانوا يولون الخلفاء، ويعزلونهم حسب أهوائهم .

٥- وضعت الجزية على أهل الذمة لحمايتهم وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم، على أن ترفع عنهم متى أسلموا، وقد أحسن العرب إليهم وأكرموهم، ولم يضايقوهم فى شىء من أمور دينهم أو دنياهم، قال رسول الله ﷺ : « من قتل معاهداً لَمْ يَرح رائحة الجنة [١] » ، ولم ير الإسلام بأساً فى التزوج منهم؛ وكانت علاقتهم بالمسلمين

---

(١) أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، وأخرجه النسائى فى القود عن عمرو بن العاص أيضا .

تقوم على المبدأ الإسلامى الكريم وهو : «لهم مالنا وعليهم ما علينا»؛ فكانت لهم الحرية التامة فى إقامة أماكن عبادتهم وشعائرهم الدينية، ومزاولة شتى الصنائع والحِرَف وما إليهما من أمور الدنيا .

ولم تخصص لهم أحياء فى المدن للإقامة فيها، ولم يمنع تدينهم بغير الإسلام من وصول بعضهم إلى مناصب عُليا فى الدولة، وبخاصة الوظائف الكتابية، وكان للأطباء النصارى من أهل الذمة شأن عند خلفاء العباسيين، كما كان كثير منهم ذا ثراء ظاهر.

واليهود وإن كانوا أقل عدداً من النصارى لكنهم كانوا أحسن حالا منهم لاشتغالهم بالصرافة، وكانت لهم فى بغداد جالية ذات شأن، كثيرة العدد، وكان لكل من اليهود والنصارى رئيسهم الدينى الذى يشرف على شئونهم الدينية .

* * *

الأسرة والمرأة فى الإسلام

المرأة فى نظر الإسلام :

كانت الأمم الخالية تنظر إلى المرأة نظرة احتقار وازدراء؛ حتى إن أهل أثينا – وأمتهم أعظم الأمم القديمة رقيا – عاملوها معاملة سقط المتاع، تباع وتشترى؛ فليس لها أهلية التصرف، ولا تصلح إلا لخدمة البيت، وتربية الأطفال، وهى بعد دنسة ورجس من عمل الشيطان .

وكل ما تمخض عنه المؤتمر الذى عقد فى الولايات الفرنسية سنة ٥٨٦ م هو : أن المرأة إنسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل .

وهكذا ظلت المرأة مجهولة القدر، مجحودة الفضل، ترزح تحت أعباء ظالمة، وتقاليد جائرة؛ فهى فى الصين حبيسة، وفى الفرس مجهولة القدر،وفى مصر حقيرة، وفى أوربا مملوكة،وفى البلاد العربية متاعا يورث [١] ، حتى إذا ما جاء الإسلام أنصفها وبوأها مكانا ساميا :

أ– أوضح أنها والرجل من أصل واحد، ومن نفس واحدة، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [النساء: ١].

ب – نظر إليها باعتبارها عضوا في المجتمع الإنسانى، كما نظر إلى الرجل، وساوى بينها وبينه فى كل ما فيه صلاح النفوس والأبدان، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ .

---

(١) محمد المثل الكامل للمرحوم الأستاذ محمد جاد المولى .

جـ - كرّمها في أطوار حياتها: كرمها أمًا، وكرمها بنتاً، وكرمها زوجة .

١- كرمها أماً تكريما ليس وراءه تكريم، فقرن الإحسان إليها بعبادة الله وحده؛ فقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[الإسراء: ٢٣]، وقال جل شأنه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك قال؛ ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك» .

٢- كرمها بنتا، فجعل لها نصيبا في الإرث، وعلى أبيها نفقتها حتى تتزوج، ولها الحق في استثمارها عند زواجها، ولها أهليتها في التعاقد، وفي التملك إلى غير ذلك .

٣- كرمها زوجة كما يتبين من الكلام على :

الأسرة في الإسلام :

الأسرة تتكون من الرجل وزوجته وأولاده . وهي أساس المجتمع، أو هي مجتمع صغير؛ لذا عنى الإسلام بأمرها عناية عظيمة . واهتم بشأنها اهتماماً بالغاً؛ فأحاطها بالرعاية والعناية التي تجعل السعادة تظلها دائماً .

ولكي ترفرف السعادة على هذا المجتمع الصغير، وتحوط الهناءة هذه الأسرة بين الإسلام لكل من أفرادها ما له من حقوق وما عليه من واجبات .

أ - فمن حقوق الرجل وواجباته :

١- أنه رب الأسرة، والقائم بشئونها، والإنفاق عليها .

٢- أن له الحق في التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع بالشروط المعروفة في الإسلام؛ من استطاعة النفقة، وعدم الإضرار، وعدم الخوف من الجور، وإلا فواحدة .

٣- أباح له الطلاق ولكن بغضه فيه . قال رسول الله ﷺ : «إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق» ، ولذلك فالمسلم لا يقدم عليه إلا لعذر صحيح، وسبب مشروع .

«وقد كان من حكمة الإسلام، وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية عدم تحريم

الطلاق بتاتاً؛ لأنه ليس شرًّا على الإطلاق، بل هناك ضرورات تقتضيه؛ ولذلك أبيح بشروط، وفى أحوال معينة. تأمل قوله تعالى: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ [البقرة: ٢٢٩] تجد أن الحكمة فى جعل الطلاق مرتين إيجاد فرصة للصلح والتفاهم، والصلح خير. على أن الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق؛ ليتروى كل من الزوجين فيه قبل الإقدام عليه والقطع فيه.

«هل ترى إنصافاً أكثر من أن الشارع الإسلامى، يعلن أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وأن الطلاق مرتان. وأن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق. وأن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك؛ لأن الإقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الأسرة. وله أثر سيء جدًّا فى تربية الأبناء» [١].

٤- أمره أن يعاشر زوجته بالمعروف، وشككه فى وجدانه إن هو أحس من نفسه بكراهة لها. فقال سبحانه: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩]، وأى مسلم لا يتأثر مما ذكره الله من توقع الخير الكثير ممن يكرهها؛ فهو ولا شك يتهم نفسه ووجدانه فى كراهته لزوجته.

ب - ومن حقوق المرأة وواجباتها:

١- أنه جعل لها على زوجها المهر، والنفقة، والمعاشرة بالمعروف، وأعطاها حرية التصرف فى مالها، وجعل أمرها بيدها تطلق نفسها متى شاءت إلى غير ذلك مما يرفع من شأنها، ويحفظ لها كرامتها الإنسانية.

٢- أنه جعل العلاقة بينها وبين زوجها قائمة على معنى إنسانى كريم؛ فزوجها يسكن إليها على أساس من المودة والرحمة. قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١].

٣- جعلها على قدم المساواة مع زوجها في الحقوق والواجبات ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ**

---

(١) محمد المثل الكامل الأستاذ محمد جاد المولى ص ١٨٨.

﴿الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذه الدرجة ضرورية لنظام البيت؛ إذ إن كل مجتمع مهما كان صغيرا لابد له من مشرف حتى يصلح حاله، ويستقيم نظامه، والرجل فى هذا أقدر من المرأة كما هو رأى عامة الحكماء، وعلماء الاجتماع .

٤- لم يكلفها الشارع بإزاء ذلك عمل شيء حتى إرضاع ولدها؛ فإنه كلف به الزوج .

٥- عليها أن تحفظ زوجها فى عرضه وماله، وأن تعمل ما فى وسعها لسعادته وهناءته؛ ففى سعادته سعادتها، وفى هناءته هناءتها، وعامة ما وجب عليها للزوج ليس فيه عمل إيجابى، ولكنه ترك ليس فيه عناء عليها، ولا مشقة، بل فيه صون شرفها، ورفعة منزلتها .

والأولاد هم ثمرة الزواج وغايته، وزينة الحياة الدنيا وبهجتها .

جـ- ومن حقوقهم وواجباتهم :

١- أن يقوم الوالدان بتربيتهم، وتنشئتهم تنشئة صالحة، حتى ينفعوا أنفسهم ووطنهم .

٢- وعليهم أن يعرفوا حق الوالدين عليهم وأن يبروهما، وقد عنى الإسلام ببر الوالدين والإحسان إليهما عناية بالغة حتى إنه قرن الإحسان إليهما بعبادته فى أكثر من آية من كتابه الحكيم فقال جل شأنه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

* * *

الــــرق

الرق فى اللغة الضعف ومنه رقة القلب، وعند فقهاء المسلمين ضعف معنوى، وعجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر [1] أما عند الفرنجة فهو « حرمان الشخص حريته الطبيعية وصيرورته ملكا لغيره » .

وسببه أن الناس قد ضروا على التنازع، والشقاق، والتنافس، وذلك بطبيعته مفض إلى القتال، واستئصال الغالب شأفه المغلوب، واحتوائه على ما فى حوزته من ناطق وصامت، وماله من نساء وأموال [2] .

والرق معروف منذ أقدم عصور التاريخ؛ فقد كانت شعوب العالم حتى شعوب الحضارة القديمة : من المصريين، والبابليين، والفرس، والهنود، واليونان، والرومان، والعرب وغيرها تتخذ الرقيق، وتستخدمه فى أشق الأعمال، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم .

كذلك أجازته كل الديانات القديمة؛ فقد ورد فى التوراة الإصحاح (٩) تكوين : أن نوحا عليه السلام دعا على ابنه كنعان بأن يكون عبداً؛ فقال : « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته (٢٥) مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم » (٢٦) .

وقد كان إبراهيم عليه السلام صاحب عبيد وإماء، وكانت هاجر أمة لزوجته سارا، وفى التوراة الإصحاح (١٤) تكوين « (١٤) فلما سمع إبرام أن أخاه سبى غلمانة المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر، وتبعهم إلى دان (١٥) وانقسم عليهم ليلا هو وعبيدة فكسرهم وتبعهم إلى خوبة التى عن شمال دمشق » .

---

(١) أما إنه عجز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحر . التعريفات للجرجانى، الاختبار لابن مودود الموصلى، محمد المثل الكامل للأستاذ محمد جاد المولى .

(٢) تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

وقد كان فى الشرائع القديمة المعمول بها المعروفة عند المصريين، وأهل سورية أن المرء إذا عمل ذنبا جوزى بالاستبعاد؛ فقد جاء الإصحاح (٤٤) تكوين فى شأن اتهام إخوة يوسف بسرقة طاس الملك أن قال القائل لإخوة يوسف: « (١٠) فقال نعم الآن بحسب كلامكم هكذا يكون الذى يوجد معه يكون لى عبدا »، وفى الإصحاح المذكور (١٧) « فقال: حاشا أن أفعل هذا الرجل الذى وجد الطاس فى يده هو يكون لى عبدا » [١] .

وقد أجازت الشريعة الموسوية الرق، ولم تضع نظاماً للتخلص منه، أو أى شيء يعين على ذلك إلا إذا كان العبد عبرانيًا فى يد عبرانى، أو فى يد غريب مستوطن بينهم، وقد فصل ذلك فى الإصحاح (٢١) من سفر الخروج، والإصحاح (١٥) تثنية، والإصحاح (٢٥) لاويين .

والمسيح عليه السلام لم يتعرض للأرقاء بكلمة، ولم يبين حكما من أحكام تحرير الأرقاء، أو شيئاً مما ينحو نحو ذلك، ولما جاء زمن الرسل قال بولس الرسول فى رسالته إلى أهل أقسس [٢] إصحاح (٦) : « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح » [٣] .

جاء الإسلام والرق معروف منتشر فى كل الأمم [٤] « والظروف الاجتماعية

---

(١) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

(٢) أقسس مدينة قديمة فى آسيا الصغرى وهى شهيرة بهيكل ديانا الذى يعد من عجائب الدنيا السبع .

(٣) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

(٤) ظل منتشرا حتى بعد أن صدر فى مارس سنة ١٦٨٥ مرسوم بتنظيم أحوال الأرقاء والعتقى فى المستعمرات الفرنسية؛ فإن هذا المرسوم قد صادفته معارضات قوية عند التطبيق أضاعت خيره، وأبقت شره، وقضى على الرقيق بأنه لا نفس له ولا روح ولا إرادة . هكذا كان حال الاسترقاق فى العالم إلى أواخر القرن الثامن عشر حيث حررت أمريكا رقيقها، وتلتها انكلترا باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر . ولم يكن ذلك من هاتين الدولتين عملا خالصا لمصلحة البشر عامة . ولا جنوحا للمساواة بين الناس جميعا؛ فإن لهما فى ذلك مصالح خاصة؛ لأن التفرقة العنصرية والمعاملة السيئة للزنوج فى أمريكا ما زالت إلى يومنا هذا تخجل جبين كل أمريكى يتغنى بالحرية والمساواة . وما زال الإنجليز فى جنوبى أفريقيا يدينون بالتفرقة الظالمة بين البيض، وأهل البلاد الأصليين على الرغم من استنكار العالم كله بذلك . وغيرهما من الأوربيين المستعمرين شر منهما ظلما وقسوة واحتقارا لغيرهم من أهل البلاد المغلوبة على أمرها. راجع كتاب محمد المثل الكامل للمرحوم الأستاذ محمد جاد المولى ص ٢٠٨ وبعدها.

والاقتصادية التى كانت تكتنف العالم فى العصر الذى ظهر فيه الإسلام كانت تحتم على كل شارع حكيم أن يقر الرق فى صورة ما، وتجعل كل محاولة لإلغائه إلغاء سريعاً مقضيًّا عليها بالفشل والإخفاق»[١] . فلم يكن من الحكمة، ولا من الإصلاح للمجتمع إلغاؤه طفرة، ومفاجأة العالم بإبطاله دفعة واحدة . لأنه كما ذكرنا أمر تأصل بتقرير الشرائع السماوية والأرضية، وتمسك الناس به أحقاباً وقروناً، واتخذوه أصلا من أصول مدنياتهم، ولو فاجأهم الشرع الإسلامى بذلك لأحرج صدورهم، وألجأهم إلى الاحتجاج بقواعد الشرائع السابقة الإلهية، والوضعية، ووقوفهم موقف المدافع المعاند[٢] .

وماذا عسى يكون موقف الإسلام لو أبطله طفرة واحدة وخصومه يسترقون ما يقع فى أيديهم من المسلمين ؟ وكيف نطلق أسراهم فى الوقت الذى يسترقون فيه أسرانا ؟ مع أننا نعامل الأسرى معاملة كريمة رحيمة . حقًّا إن المنطق السليم لا يقر ذلك؛ لأن التوازن والتكافؤ بين الإسلام وخصومه ينعدم بتاتاً، ويكون الدخول فى الإسلام معناه الرضا بالرق والذل والهوان، ويكون المحارب للمسلمين آمنا على نفسه وأولاده؛ لأن المسلمين لا يسبونهم إذا تمكنوا من سبيهم، ولا يضربون عليهم الرق، وهذه حال لا يقبلها إلا من سفه نفسه .

وكيف يفادى المسلمون أسراهم ومن أين ؟ وكثيراً ما كان يحصل بين المسلمين والروم فداء الأسرى بمثلهم، وبخاصة فى أيام الخليفة المتوكل، ومَن بعده من خلفاء بنى العباس[٣] .

لهذا كانت الحكمة تقضى بوضع أحكام تمهد لزواله بالتدريج، لا لإلغائه دفعة واحدة، وهذا ما جاء به الإسلام؛ فإنه لم يقر الرق إلا فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج، بدون أن يحدث ذلك أى شىء فى نظام المجتمع الإنسانى، بل بدون أن يشعر أحد بتغيير فى مجرى الحياة[٤] .

---

(١) الإسلام والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافى .
(٢) محمد المثل الكامل للأستاذ محمد جاد المولى .
(٣) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .
(٤) الأسرة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافى .

معاملة الرقيق والإحسان إليه :

نظر الإسلام إلى الرقيق نظرة كريمة، وعامله معاملة رحيمة، وحث على الإحسان إليه حتى قرن ذلك بعبادته وبالإحسان إلى الوالدين، فقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال ﷺ : « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » ، وقال ﷺ : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم »، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تحث على رعايته والإحسان إليه .

سبل التحرير والترغيب فيه :

ظهر الإسلام فكان مما أصلحه من فساد رفع الظلم عن الرقيق، والإحسان إليه، وسن الأحكام وتبين السبل التى تمهد لزوال الرق بالتدريج، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً فى نظام الاجتماع البشرى؛ فالولايات المتحدة لما حررت رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر كان بعضهم يضرب فى الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجد ما يحسنه، أو يقدر عليه؛ فيعود إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان، وكذلك كان الأمر فى السودان بعد افتتاحه والقضاء على دولة التعايشى فى سنة ١٨٩٩ ، فإن القواد والحكام الإنجليز أسرعوا إلى إعلان الحرية للأرقاء؛ فلم يمض على ذلك أسبوع حتى رأوا أنفسهم أمام مشكلة اجتماعية واقتصادية، واضطروا إلى الإذن لهم بالرجوع إلى سادتهم، على ألا يسمح لهم ببيعهم والاتجار بهم .

هذه دلائل حسية على أن إبطال الرقيق – الذى كان عاما فى البشر – دفعة واحدة بتشريع دينى لم يكن من الحكمة، ولا من مصلحة البشر الممكن تنفيذها، والإسلام تشريع عملى، فما شرعه فى الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة الجامع بين المصلحة العامة والرحمة؛ فقد رغب المسلمين ترغيباً شديداً فى تحريرالرقاب، وإزالة الرق عنها [١] وإليك بعض وسائله فى ذلك :

---

(١) راجع الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا، تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

١- جعله من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمائه: فقال في سورة البلد المكية ممتنا عليه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ٧-١٨]؛ فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي يقوم بها الإنسان لشكر نعم الله المتتالية عليه، وجعل من يفكها من أصحاب الميمنة.

٢- لما بين مصارف الزكاة جعل لفك الرقاب سهما من ثمانية فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ فقد نصت الآية على أن مصارف الزكاة ثمانية أحدها فك الرقاب.

٣- جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة لذنوب ترتكب؛ فقال في كفارة القتل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وقال في كفارة الظهار: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٥].

وقال في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

٤- وألزم من نذر تحرير رقبة - إن نال ما يرجوه، أو سلم مما يخشاه - بالوفاء بما نذر متى تم له مراده.

٥- رغب في الكتابة؛ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

٦- وجعل عتق البعض يسرى إلى الكل، فمن أعتق بعض عبده سرى العتق إلى باقيه.

٧- جعل العبد المدبر يعتق بموت السيد .

٨- جعل أمهات الأولاد كذلك يعتقن بموت سادتهن، ولا يجوز بيعهن ولا إرثهن فى حياتهم .

٩- وجعل من ملك ذا رحم محرم يعتق عليه، قال ﷺ : «من ملك ذا رحم محرم منه فهو حر» (١) .

١٠- وجعل العتق لازما لمن تلفظ بصيغة العتق جاداً أم هازلا لقوله ﷺ : «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد : النكاح والطلاق والعتاق» .

١١- وجعل دفع القيمة فى الإعتاق غير جائز .

ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير فى تحرير الرقاب، والوصايا المتكررة برحمة الأرقاء .

ومن هذا يتضح أن الإسلام قدر الإنسان قدره، ورفع مستواه وكرمه، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وعنى بالحرية عناية لم تصل إليها أمة من الأمم، ولا دين من الأديان السماوية، وسلك فى سبيل ذلك أحكم الوسائل، وأبلغها أثراً، وأصدقها نتيجة، فضيق روافد الرق التى تمده، وتكفل له البقاء، وأكثر منافذ الخلاص منه، ووسائل القضاء عليه .

* * *

(١) رواه أبو داود .

اشتراكية الإسلام

الكلام على اشتراكية الإسلام يدعونا إلى أن نلم إلمامة خفيفة بالنظام الاشتراكى، وبعض النظم الأخرى السائدة فى العالم اليوم .

نشأة الفكرة الاشتراكية.

« إن الفكرة الاشتراكية التى نشأت منذ ألوف من السنين إنما نشأت صيحة ألم لما بين الناس من التفاوت فى حظهم المادى من الحياة » [١]، وتنفيسا عما يشعر به المحرومون من ألم الحرمان، وهذه الفكرة « كانت ترمى دائما إلى محو هذا التفاوت حتى تقضى على نتائجه الاجتماعية، وفى طليعتها التباغض، والحسد، والنضال المستتر حينا، الواضح حينا آخر، وحتى تزيل ما يشعر به المحرومون من ألم الحرمان » .

« وطالما تحدث العلماء والكتاب الاشتراكيون عن هذا التفاوت فى حظوظ الناس، ونسبوه إلى فساد النظم التى تقوم الجماعات الإنسانية عليها، وليس يحدثنا التاريخ الذى نعرفه عما كان قبل أفلاطون (٤٠٠ ق.م) من صور الاشتراكية؛ ولذلك ألف كثيرون أن ينعتوا أفلاطون « أبا الاشتراكية »، ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر لم يفتأ الاشتراكيون يتحدثون فى هذا التفاوت وفى وسائل إزالته، ويقيمون من المذاهب، ويقترحون من النظم ما يرونه كفيلا بتحقيق الغاية التي يرمون إليها » [٢] .

« ولقد أثبت تعاقب القرون أن إزالة هذا التفاوت أمر غير مستطاع، وأن إقامة الاشتراكية على أساس من المساواة بين الناس فى حظوظهم المادية لا يزيل الظلم الذى يذكرونه » ؛ إذ إن ميول الناس، ونظرتهم إلى الحياة تتفاوت، واستعدادهم وقدرتهم على العمل تتفاوت، ومتاعهم بنعم الحياة يتفاوت؛ ففيهم القوى والضعيف وفيهم الصحيح والمريض، وفيهم المتهالك على لذائذ الحياة ومتعها، ومن يرى الزهد لذة

(١ ، ٢) الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة للمرحوم محمد حسين هيكل ص٥٥،٥٦ .

تفوق كل لذة فى هذه الحياة، ولا سبيل إلى التسوية بين هؤلاء جميعاً، وعلى أساس يرضى الجميع عنه [١] .

تعدد النظم الاشتراكية .

والاشتراكية متعددة النظم والصور، فمنها الاشتراكية المعتدلة، ومنها الاشتراكية المتطرفة إلى اليسار التى تمعن فى إضعاف رأس المال الفردى، وهذه إذا زادت فى الإمعان واشتطت فى التطرف آلت إلى الشيوعية، ومنها الاشتراكية المتطرفة إلى اليمين التى تجنح إلى تخفيف الرقابة عن الملكية الفردية ورأس المال الفردى، وهذه إذا تغالت، وتجاوزت المدى فى تطرفها آلت إلى الرأسمالية .

الشيوعية :

فالشيوعية «صورة من صور الاشتراكية الكثيرة المتباينة، وهى أكثر صورها تطرفاً، وأشدها إمعاناً فى إنكار الملكية الفردية؛ وهى بذلك تكون فى الطرف المقابل للرأسمالية، لأنها ترى :

١- إلغاء الملكية الشخصية [٢] وأن تكون الثروة ملكا للدولة؛ فهى التى تملك جميع رءوس الأموال من زراعية وصناعية ومعدنية وغير ذلك، وبصفة عامة تملك كل ما يملك إلا ما يستعمله الفرد لاستهلاكه الشخصى .

٢- على كل فرد أن يعمل؛ فمن لا يعمل لا يأكل، والدولة هى التى توفر لوازم العيش من مأكل ومسكن وغير ذلك .

٣- قيام الدولة بجنى ثمرات العمل، وتوزيعها على الجميع؛ وبذلك تحل الدولة محل الأفراد فى الملكية والإنتاج والتوزيع .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٢) إن اعتراف الشيوعية - التطبيقية - أخيراً بالملكية الشخصية ولو في حدودها الضيقة تأكيد لبطلان زعمها النظرى، وذلك كما جاء فى الدستور السوفيتى المعدل . المواد ٧، ٩، ١٠ هذا فضلا عما تشعر به العقول بداهة من بطلان هذا الزعم - راجع كتاب اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعى .

٤- تضبيق نظام الأجور الذى وضعه لينين: (من كل حسب قدرته إلى حسب حاجته) [١] .

٥- وأخيراً لاإله، والحياة مادة .

الرأسمالية :

الرأسمالية صورة أيضا من صور الاشتراكية التى تغالت فى تطرفها :

١- وهى كمذهب اقتصادى تعطى الفرد حق التملك [٢] ، وتطلق العنان لرءوس الأموال .

٢- تفسح المجال للتنافس [٣] فى ميدان الإنتاج .

٣- وهى كواقع سياسى ملوثة بدماء الشعوب، وهى الباعث الأول للاستعمار، تنبعث منها روائح الاستعباد، واللصوصية، واستغلال ثروات الشعوب المستعبدة، وامتصاص خيراتها [٤] .

النظام الاشتراكى الديمقراطى التعاونى :

وهذا النظام من أوفق النظم الاشتراكية وأعدلها، وهو النظام الذى اختارت الجمهورية العربية المتحدة أن تسير عليه وتعمل به، ومن أسسه :

١- أنه يحفظ للدين حرمته وقدسيته .

٢- أنه يحفظ للأسرة كيانها .

---

(١) تراجعت الشيوعية عن هذا المبدأ الأصيل فيها، وعدلته، فى الدستور الجديد (من كل حسب قدرته إلى كل حسب عمله) .

(٢) حق التملك فى النظام الرأسمالى يخضع الجماعة لمصلحة رأس المال بخلافه فى الإسلام؛ فإنه يخضع حق التملك لمصلحة الجماعة .

(٣) تنافس الرأسمالية من شأنه أن يشيع العداء والخلاف والاضطراب فى المجتمع بخلاف التنافس فى الإسلام؛ فإن من شأنه أن يشيع الحب والتعاون والهناء فى المجتمع - راجع اشتراكية الإسلام للدكتور السباعى .

(٤) راجع مقال الدكتور على عبد الواحد وافى منبر الإسلام العدد ٦ من السنة ١٩ ، اشتراكية الإسلام للدكتور السباعى ص ١٦٥ ، الشيوعية فى الميزان للسيد / مصطفى البساطى .

٣- أنه يحفظ للملكية الفردية أصلها ووسائلها وضماناتها .

٤- أنه يحفظ لرءوس الأموال استثماراتها .

٥- أنه لا يرى بأساً من تدخل الدولة فى شئون الأفراد بغية الوصول إلى إصلاحات اجتماعية واقتصادية يستلزمها الصالح العام (١) .

ومن هذا يتضح أن الاشتراكية العربية من الاشتراكات المعتدلة، ومن أوفقها للشعوب، وأن الفرق كبير بينها وبين كثير من النظم السائدة فى العالم ولا سيما الماركسية اللينينية، وقد أوضح السيد / الرئيس جمال عبد الناصر الفرق بين الإشتراكية العربية، والشيوعية (٢) فقال : إن الفروق الأساسية هى :

١- إن اشتراكيتنا تؤمن بالله ورسله والكتب السماوية، والماركسية بعكس ذلك لا تؤمن بالله، وتعتبر الدين أفيون الشعوب .

٢- اشتراكيتنا تدعو إلى الانتقال من دكتاتورية الرجعية إلى ديمقراطية الشعب، والماركسية بالعكس تقول : بالانتقال من ديكتاتورية الرجعية إلى ديكتاتورية البروليتاريا (٣) .

٣- اشتراكيتنا تفرق بين الملكية الخاصة المستغلة؛ والملكية الخاصة التى لا تستغل؛ فغير المستغلة نؤمن بها ونصونها، بخلاف الماركسية التى لا تؤمن بالملكية الخاصة حتى غير المستغلة؛ فليس فى اشتراكيتنا كل من يملك ضد المجتمع، وضد الشعب كما يرى المذهب الماركسى .

٤- اشتراكيتنا تجرد الرجعية من أسلحتها بالطرق السلمية، وتترك للأفراد فرصة العيش الكريم؛ وبهذه الوسائل السلمية أيضاً تحل التصادم والتناقض فى المجتمع، أما الماركسية فتنادى باستخدام العنف، وإراقة الدماء فى سحق هذه الطبقة .

---

(١) العدالة الاجتماعية للأستاذ عبد الرحمن نصير وكيل مجلس الدولة .

(٢) كان ذلك فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية المنعقد بالقاهرة فى ١٩٦٢/٥/٣٠ صحيفة الجمهورية عدد رقم ٣٨٠٣ الخميس ٦٢/٥/٣١ ، والأهرام عدد رقم ٢٧٥٦٤ الخميس ١٩٦٢/٥/٣١ .

(٣) (الطبقة العاملة والفقراء الذين لا يملكون شيئا) .

٥- اشتراكيتنا تؤمن بالملكية فى الأرض فى إطار من التعاون، والماركسية تنص على تأميم الأرض، ولا تتصور ملكيتها .

والنظم الاشتراكية في عمومها نظم وسطى بين الشيوعية والرأسمالية تأخذ ما فيهما من محاسن، وتبرأ مما ينطويان عليه من مثالب؛ فهى نظم إصلاحية تعالج ما بالمجتمع من عيوب، وهدف لإصلاح الفرد وتحريره .

ومهما يكن من كثرتها وتعددها فالذى لا شك فيه أن هناك روحا عامة لهذه النظم يمكن تلخيصها فى ثلاث نقط :

الأولى : تحقيق استخدام الموارد الاقتصادية استخداما يزيد الإنتاج حتى تكون زيادة الإنتاج فى ذاتها من عوامل زيادة الإشباع الذى يحصل عليه المجتمع فى مجموعه .

الثانية : تحقيق درجة من العدالة فى توزيع الثروة والدخل بين الناس، وهى درجة تختلف قوتها، ومداها بحسب نظرة كل مفكر، أو كل مصلح أو كل سياسة اشتراكية .

الثالثة : التخلص من تحكم فئة،أو طبقة فى فئة أو طبقة أخرى .

ومن الواضح أن هذه النقطة الأخيرة نتيجة طبيعية للنقطتين الأوليين .

هذه هى السمات العامة للاشتراكية فأين يأتى الإسلام بينها ؟

الواقع أن الإسلام كنظام اجتماعى، واقتصادى يحتوى على جانب اشتراكى كبير، وذلك بالنسبة للنقط الثلاث التى أشرنا إليها .

ويمكن القول بصفة عامة فى هذا الصدد بأن فلسفة الإسلام كلها تقوم على تحقيق توازن سليم بين الفرد والمجتمع؛ فالإسلام يعترف بالفرد كوحدة اجتماعية، ويعترف به على أنه صاحب إرادة سياسية تشكل الوضع السياسى فى المجتمع فى حدود المبادئ الأساسية التى وضعها الدين، وهى : يعطى للفرد أيضا حق الملكية، وحق التمتع بثمرات ملكيته، ولكنه فى كل ذلك يضع حدودا وقيودا على إرادة الفرد، وعلى مباشرته لملكيته بحيث يتحقق توازن سليم بين الفرد وحقوقه، وبين وجود

المجتمع ومستلزماته . وفي هذا النطاق تأتى المظاهر الاشتراكية فى الإسلام [١] » وأوضح ما تكون هذه المظاهر فى النواحى الاقتصادية، ولا عجب فى ذلك، والنظام الاجتماعى فى عهدنا الحديث بنوع خاص يقوم على أساس اقتصادى صرف، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقات الأمم بعضها ببعض تخضع خضوعا تاما لما بينها من صلات اقتصادية . وقد أقام كثير من الفلاسفة قواعد الخلق على أساس اقتصادى، وقد نادى كثيرون بأن تاريخ الإنسانية لا تفسير له إلا فى نظمها الاقتصادية، وأن حضارات العالم فى الأزمان المختلفة إنما تكيفت بتطور نظم العالم الاقتصادية » [٢] .

ومن المظاهر الاشتراكية فى الإسلام :

١- أنه أقر الملكية الفردية، وأباحها لاتفاقها مع غريزة التملك الطبيعية فى الإنسان، إلا أنه لم يبحها فى جميع الأشياء، بل أخرج من نطاقها الأشياء الضرورية لجميع الناس، وأوجب أن تكون ملكيتها جماعية، حتى لا يستبد بها فرد، أو أفراد، فيضار المجتمع من جراء ذلك .

وقد عدد النبى ﷺ من هذا النوع أربعة أشياء : الماء والكلأ والنار والملح، قال ﷺ : « المسلمون شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلأ والنار » [٣] وفى رواية لأبى داود : والملح . وخصت هذه الأنواع الأربعة لأنها كانت من ضروريات الحياة الاجتماعية، وقاس عليها العلماء ما يشبهها مما يكون نفعه عاما، ويكون من ضروريات الحياة للناس جميعا كالمعادن التى يعثر عليها فى باطن الأرض [٤] .

كما أجاز الإسلام لولى الأمر نزع الملكية الفردية، وجعلها ملكية جماعية إذا اقتضى ذلك صالح الجماعة .

وقد هدم عمر رضى الله عنه دوراً كانت حول المسجد الحرام لتوسعته حينما رأى مصلحة المسلمين فى ذلك .

---

(١) من مقال للدكتور محمد شعير فى منبر الإسلام العدد ١ من السنة ١٩ .
(٢) الإمبراطورية الإسلامية للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٦ .
(٣) رواه ابن ماجه فى الأحكام عن ابن عباس، ورواية إحلال : الناس بدل المسلمين . وراجع الخراج لأبى يوسف ص ٥٥ ط الأميرية .
(٤) راجع المغنى لابن قدامة جـ ٥ ص ٥٢٠ وبعدها .

وإذ كانت مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد قامت الجمهورية العربية بتأميم المصارف، وبعض الشركات الصناعية والتجارية بعد أن تبين أن تركها للملكيات الخاصة، وأهواء أصحابها يؤدى إلى أضرار بليغة بالصالح العام، ،ذكر السيد الرئيس فى الخطاب الذى ألقاه فى العيد التاسع للثورة أن هذه الإجراءات تتسق مع روح الإسلام وتشايعه، مستدلا بما قرره النبى ﷺ فى صدد الماء والكلأ والنار والملح؛ إذ جعل ملكية هذه المواد ملكية جماعية؛ لحاجة جميع الناس إليها فى المجتمع العربى .

٢- أنه حرم جميع طرائق الكسب التى تقوم على الرشوة، أو استغلال النفوذ، أو الغش، أو أكل أموال الناس بالباطل، أو ما إلى ذلك؛ إذ إن الملاحظ أن الأرباح الفاحشة، والثروات الضخمة إنما تكون فى الغالب نتيجة للكسب غير المشروع؛ وبتحريم مثل هذه الطرائق حقق الإسلام عدة أغراض إنسانية، واجتماعية هامة منها :

أنه أجاز لولى الأمر مصادرة المال الذى جاء عن طريق استغلال النفوذ، وإنفاقه فى المصالح العامة للمسلمين؛ وبذلك كان الإسلام أول من سن قانون « الكسب غير المشروع » ، أو قانون « من أين لك هذا ؟ » [1] .

ومنها أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين الناس على دعائم من التكافل والتعاون، والتراحم والتعاطف .

ومنها حمل الناس على العمل والكد لكسب المال وتنميته بالطرق المشروعة . والحث على العمل استأثر بكثير من الآيات الكريمة والأحاديث والآثار، واعتبر نوعا من العبادة فى بعض الحالات، ولمثل هذه الاعتبارات الطيبة حرم الإسلام الربا تحريما قاطعاً وجعله من أكبر الكبائر، وآذن آكله بحرب من الله ورسوله، فقال سبحانه : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٧٩] . ورغبة فى التعاطف والتراحم حث الدائنين على حسن الاقتضاء فقال جل شأنه : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ**

---

(١) وقد كتبنا فى ذلك مقالا فى صحيفة الأهرام فى سنة ١٩٥٠ ، كما أشرنا إليه فى المحاضرة التى ألقيناها فى قاعة الإمام محمد عبده فى ٢٨ من شوال سنة ١٣٨١ وراجع ما تقدم فى ص ٤٨ .

مَيْسَرَةٍ ﴾[البقرة: ٢٨٠] بل ورغب فيما هو أسمى وأفضل من ذلك فحبب إلى الدائنين أن يتنازلوا عن دينهم، أو عن جزء منه؛ فقال عز من قائل: ﴿ **وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨٠] .

ولما للمعاملات الربوية من آثار بالغة الخطورة فى حياة الجماعة أخذت الجمهورية العربية تعمل على إزالة هذه الآثار السيئة من مجتمعنا العربى الإسلامى وقال السيد الرئيس فى الخطاب الذى ألقاه فى الذكرى التاسعة للثورة: «لقد أخذنا على أنفسنا أن نقيم مجتمعاً تعاونيًّا نظيفاً، ولا يمكننا أن نقيم هذا المجتمع التعاونى النظيف ما دامت معاملاتنا تقوم على الربا . وسنعمل على القضاء على الربا فنجرب إلغاءه فى بنك التسليف؛ فنقرض الفلاحين بدون فائدة» ؛ فقد قصد السيد الرئيس إلى جانب رعايته الرحيمة للفلاحين، وتخفيف الأعباء أن يكون خطوة إيجابية فى سبيل الرجوع بمعاملاتنا إلى أوضاعها الشرعية السليمة، وتخليصاً مما انتقل إلينا فى عهود الاستعمار من مناهج الغرب الاقتصادية الفاسدة .

٣- أنه جعل للأسرة - وهى مجتمع صغير - نظاما حكيما يقوم على المودة والرحمة ورعاية الواجب؛ فسعدت الأسرة الإسلامية وهنئت كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم عند كلامنا عن الأسرة فى الإسلام .

٤- أنه شرع للميراث نظاما فريداً حكيما يضمن تقسيم تركة المتوفى بين عديد من ذوى قرابته؛ وبذلك لا تتضخم الثروات، وتتجمع فى أيد قليلة، فأين هذا النظام الإسلامى الحكيم من تلك النظم التى ينقل بعضها جميع ثروة المتوفى إلى البكر من أولاده .

٥- أنه حرم على المالك كل تصرف فى ملكه يؤدى إلى ضرر بالغير، أو ينطوى على اعتداء على حقوق الآخرين، وأجاز نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استعمال حقه فيها، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك، وقد قدمنا فى باب القضاء أن لقاضي الحسبة منع الحمالين، وأهل السفن من الإكثار فى الحمل، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة . فلا ضرر ولا ضرار فى الإسلام، فيجب ألا يترتب على استعمال المالك لملكه ضرر لغيره، وعلى

هذه القاعدة بنى نظام الشفعة فى الإسلام، وهو تقييد لحرية المالك فى بيع عقاره لمن يشاء حماية للشريك، أو الجار من الضرر .

وقد طبق النبى عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ تطبيقاً عمليًّا؛ فعن سمرة بن جندب «أنه كانت له عضُد من نخل فى حائط (بستان) رجل من الأنصار قال: ومع الرجل أهله، قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به، ويشق عليه، فطلب إليه أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله (يبادله) فأبى؛ فأتى النبى ﷺ ؛ فذكر ذلك له؛ فطلب إليه النبى ﷺ أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: فهبه له ولك كذا وكذا - أمراً رغبه فيه - فأبى ؛ فقال: أنت مضار، فقال رسول الله ﷺ للأنصارى: اذهب فاقلع نخله» [1] .

وكذلك فعل خليفته عمر رضى الله عنه مع محمد بن مسلمة الذى أبى أن يمر الماء بأرضه ليمكن أن يصل إلى أرض جاره . فقال له عمر: أعليك فيه ضرر ؟ قال: لا . فقال له: «والله لو لم أجد له ممراً إلا على بطنك لأمررته» [2]؛ فنظرية «عدم التعسف فى استعمال الحق» التى يتمشدق بها رجال القانون الوضعى فى العالم الآن عرفها الإسلام منذ فجر ظهوره .

٦- أتى بأحكام تحرك الإنسان عن طريق عقيدته لمساعدة الفقراء والمعوزين، وتجعل فى أموال الأغنياء حقًّا معلوماً للسائل والمحروم مما يجعل التعاون والمحبة، والتعاطف والتراحم تسود بين أفراد المجتمع الإسلامى؛ وبذلك لا تجد النظم المتطرفة كالشيوعية مثلا طريقاً إلى مجتمعنا .

٧- كذلك جاءهم بأحكام تجعلهم يشعرون بشعور واحد، وتصورهم مرة بالبنيان الذى يشد بعضه بعضا، وأخرى بالجسد الذى يتداعى بالسهر والحمى إذا اشتكى عضو منه، بل إنه ارتقى فى ذلك إلى حد الإيثار . قال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة: ٢]، وقال سبحانه:

---

(١) سنن أبى داود جـ ٥ ص ٢٣٩ من كتاب الأقضية .

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ص ١١٠ - ١١٢ .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال جل شأنه: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وقال عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، وقال صلوات الله عليه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته»، وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «إن الأشعريين إذا أرملوا [١] فى الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية؛ فهم منى وأنا منهم» [٢] ومن هذه الآيات والأحاديث وغيرها يوجد ويتجلى التكافل الاجتماعى بأوسع معانيه.

٨- وأخيراً جعل التقوى ميزان التفاضل بين الناس، فليس المال والنسب، واللون والجاه والحسب، وما إلى ذلك مما يعتد به أهل هذه الحياة الدنيا يصلح أن يكون مقياساً للتفاضل. قال جل شأنه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»؛ فالناس جميعاً من أصل واحد، ومن نفس واحدة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. [النساء: ١] والتقوى ميزان دقيق يزن بالقسطاس المستقيم، ويضبط علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بغيره، في بيته، وفى مجتمعه، وفى أمته؛ فهل بعد هذا يُدل إنسان على إنسان، أو يسيطر إنسان على إنسان؛ لما له من مال، أو جاه، أو يفاخر بحسبه أو نسبه ! اللهم إنه الإسلام دين المساواة والعدالة، والتراحم والتعاطف، والمحبة والإيثار.

---

(١) أرملوا فرغ زادهم، أو قارب الفراغ.
(٢) رواه البخارى فى كتاب المظالم.

ومن السهل بعد هذا أن ندرك ما بين اشتراكية الإسلام، وكل من الشيوعية والرأسمالية من فروق هائلة، بل من تقابل وتضاد أحياناً كثيرة .

وهكذا يتضح أن اشتراكية الإسلام نظام نسيج وحده لا يدانيه نظام آخر فى دقته وسموه، ومبلغ تحقيقه لخير الأفراد والجماعات، له مقوماته، وله مثاليته الخاصة به، وهو أخيراً تنزيل من حكيم خبير؛ ومن ثم فمهما أطلنا عن هذه الاشتراكية، وضربنا لذلك المثل فلن نصل إلى الغاية، ولن نبلغ النهاية؛ ولذا فإنا نكتفى بما ذكرنا [1] .

* * *

(٣) راجع ما كتبه الدكتور محمد لبيب شقير فى مجلة منبر الإسلام العدد ١ . من السنة ١٩ وما كتبه الدكتور على عبد الواحد وافى فى هذه المجلة أيضاً العدد ٦ من السنة ١٩ ، والمحاضرة اللتى ألقيناها فى قاعة الإمام محمد عبده فى العدالة الاجتماعية بتاريخ ٢٨ من شوال سنة١٣٨١ .

الفصل الثامن

الحياة الاقتصاديّة

- الزراعة.
- الصناعة.
- التجارة.
- النظام المالى.

الحياة الاقتصاديّة

الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة كانت مزدهرة ازدهاراً عظيما فى الدولة الإسلامية .

الزراعـــة

كانت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تضم كثيراً من الأقاليم التى تعد من أخصب بقاع العالم، كمصر، والشام، والعراق، وخراسان، وما وراء النهر، وسجستان، وبعض مناطق من شمال إفريقية .

وقد ساءت الأحوال الاقتصادية فى هذه الأقاليم قبل الإسلام بسبب الحروب المتوالية بين الدولتين الكبيرتين: الرومانية والفارسية . وقد ترتب على تلك الحروب .

١- قلة الأيدى العاملة فى الزراعة، وإهمال شئون الرى، مما أدى إلى قلة المحاصيل الزراعية .

٢- كثرة الضرائب والقسوة فى جبايتها، لتغطية نفقات هذه الحروب المتلاحقة الطاحنة .

ولما فتح العرب هذه البلاد اتجهوا إلى تحسين أحوالها الاقتصادية، وكان مظهر هذا الاتجاه بالإضافة إلى كثرة الأيدى العاملة هو :

١- إصلاح وسائل الرى وتنظيمها؛ فبنوا السدود، وشقوا القنوات والأنهار، وأقاموا عليها الجسور والقناطر، وبذلوا فى سبيل ذلك أموالا طائلة، واستخدموا لها عدداً كبيراً من العمال، حتى إن عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠٫٠٠٠ عامل فى إصلاح طرق الرى فى مصر صيفاً وشتاء، وقد زاد اهتمام العباسيين بذلك؛ ففى صدر دولتهم جددوا حفر القنوات القديمة، واستحدثوا قنوات جديدة، وخصوصاً فى

العراق، حتى أصبح ما بين النهرين: دجلة والفرات أشبه بشبكة من القنوات والأنهار، وأطلقوا عليها اسم «النواظم» لأنها نظمت توزيع المياه .

« وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شهرته القديمة في الخصب والنماء، ولا سيما الجزء الجنوبي المعروف بالسواد». وكان للري تشريعات دقيقة معقدة، استفاد منها الأوربيون فيما بعد، حتى إن الجزء الأكبر من تشريعهم الخاص بالماء مقتبس منه، وكان من واجبات الدولة في العراق أن تسهر على صيانة السدود والمسنيات، والبثوق، وكان ثم لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون المهندسين، وكان في مرو ديوان يسمى « ديوان الماء» وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل، وكان منصبه من أرقى المناصب في تلك المدينة . وكان الماء يقاس بمقياس مصطلح عليه يسمى (البست) . . . وكان مقياس ارتفاع النهر عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوق شقًّا طوليًّا تتحرك عليه شعيرة» (١) .

٣- زرعوا كل نوع من النبات في التربة الصالحة له بعد أن درسوا صلاحية كل تربة لأنواع النباتات، وبذلك أمكن استغلال الأراضي الزراعية أحسن استغلال .

٣- اعتنوا بتسميد الأرض عناية كبيرة بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من النباتات؛ فزاد محصول الأرض تبعاً لذلك زيادة واضحة .

٤- عرفوا التلقيح، فكان أهل فلسطين يلقحون كرومهم وأهل المغرب يلقحون تينهم كما يلقح النخيل بالطلع الذكر، كذلك عرفوا تطعيم بعض الأشجار من بعض، واستخرجوا أصنافاً جديدة .

٥- جلبوا إلى بلادهم أنواعاً كثيرة من الأشجار، وبرعوا في تنسيق الحدائق، وعنوا عناية عظيمة بالأزهار، فزرعوها في مزارع واسعة؛ لتصدير عطورها وأدهانها ومياهها، وراجت من أجل ذلك في شيراز، ودمشق، وغيرهما صناعة استخراج الأدهان العطرية من الورد والنيلوفر والبنفسج وغيرها .

٦- أدخلوا إلى أوربا نباتات لم تكن معروفة لهم من قبل، كالأرز، وقصب السكر، والزيتون، والمشمش .

٧- زرع الفرس قصب السكر، وصنعوا منه السكر، ثم انتقل منها إلى مصر،

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

وسواحل الشام حيث عرفه الصليبيون فيما بعد، ونقلوه وصناعة السكر إلى أوربا[1].

الحاصلات الزراعية :

كانت الحاصلات الزراعية كثيرة متنوعة، منها:

١- الحنطة: وكانت تزرع فى كافة البلاد التى يكون فيها الماء موفوراً . وهى أكثر ما يزرع فى العراق، ولها المكان الأول فى بلاد خوزستان .

٢- الذرة : وكانت تزرع فى الأجزاء الجافة فى جنوب الدولة كجنوب جزيرة العرب، وبلاد النوبة، وكرمان، وجنوبى مصر .

٣- السمسم: وهو يزرع فى كثير من البلد التى تزرع فيها الذرة .

٤- الأرز : وهو يزرع حيث يكثر الماء؛ فكان يزرع فى خوزستان ومازندران، وغيرهما، وكان خبز الأرز غالباً فى طعام أهل مازندران، وهى بلاد تحيط بها المستنقات .

٥- الكرم: وهو أكثر ما يزرع من الفواكه، وكان منتشراً فى جميع البلاد، وله فى العراق المقام الأول، كما أنه يكثر فى أرمنية وأزربيجان، وأكبر ما تكون أشجاره فى اليمن، وكانت أصنافه كثيرة متنوعة .

٦- البطيخ: وكان أكثر ما يباع من الفاكهة فى الأسواق، لذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار البطيخ، واشتهر شمالى فارس بنوع خاص بصحة الفاكهة، وجودة البطيخ، وبلغ من جودته، وصحته أنه كان يقدد ويحمل إلى العراق، ولم يعلم أن ذلك ممكن فى غير تلك البلاد، ويؤيد الرحالة ماركوبولو ذلك بقوله: «إن بطيخ مدينة شبرقان «بين مرو وبلخ» كان يقطع حلقات رقيقة كما يفعل الأوربيون بقاوون الشهد، وبعد أن تقدد وتجفف فى الشمس ترسل بكميات كبيرة لتباع فى البلاد المجاورة» .

وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخلفاء ببغداد طازجاً؛ فكان يحمل إلى المأمون أولا، ثم إلى الواثق فى قواليب الرصاص معبأة بالثلج، وكانت تقوم الواحدة منه إذا سلمت، ووصلت بسبعمائة درهم .

---

(١) راجع الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٢٩٩ ، ٣٣٨ وما بعدها .

٧- التفاح: وكان أحسن أنواعه تفاح الشام، حتى ضرب المثل به فى الحسن، وجودة الطعم .

٨- الرمان: وكان ذا أهمية، حتى إن سفنا كثيرة كانت تسير فى الفرات محملة إلى بغداد .

٩- التمر: كانت العراق، وكرمان، وشمال أفريقية، وبخاصة مدينة سجلماسة فى جنوبى مراكش أكبر المراكز لإنتاج التمور، والعراقى أجود أنواعه، وكان من الكثرة فى كرمان إلى حد أنهم كانوا لا يرفعون ما تساقط من النخل، وربما بيع فى بعض بلادها مائة مَنٍّ بدرهم، وكان رسم الحمالين أنهم كانوا يحملونه إلى خراسان مناصفة .

١٠- الزيتون: هو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط، وكانت الشام، وشمال أفريقية تمدان المملكة الإسلامية كلها بالزيت، وأحسنه ما كان يأتى من الشام ولا سيما مدينة نابلس، وكان بمدينة سفاقس فى القرن الرابع الهجرى من الزيتون ما ليس بغيرها، حتى ربما كان يباع ستون أو سبعون قفيزا بدينار، ولا تزال شجرة الزيتون تلقى من العناية فى هذا الإقليم ما لا تلقاه فى أى بلد آخر من بلدان البحر الأبيض المتوسط .

١١- قصب السكر : وكان يزرع فى جميع البلاد التى يمكن زراعته بها فكان يزرع فى كابل، وصور، وخوزستان، والأندلس، ومصر التى صار من أهم مزروعاتها فى القرن الخامس وما بعده .

١٢- النيل: وهو مادة أساسية فى الصباغة باللون الأزرق، ومن ثم كان عظيم القيمة، وبسبب هذه القيمة كان يزرع فى كل قطعة تصلح لزراعته؛ فزرع فى صعيد مصر، والواحات، وفلسطين، وكرمان، وكابل وكان له فيها شأن؛ حتى إنه كان يباع فيها، وفيما حولها فقط، كل سنة ما تبلغ قيمته ألف دينار، وكان شجره بمصر يحصد فى كل مائة يوم، ويبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين .

١٣- الزعفران [١] : وكان يستعمل للتلوين باللون الأصفر، ولعظم قيمته كان يزرع فى كثير من البلاد كالشام، وجنوبى فارس، والمغرب، وكانت طليطلة «من بلاد المغرب» تصدر منه مقادير كثيرة إلى كثير من الجهات .

١٤- الكتان: وكان يزرع بكثرة فى مصر، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته .

١٥- القطن: وكان يزرع فى فارس، وفيما بين النهرين، وبلاد ما وراء النهر التى كانت تنتج منه كميات كبيرة، ثم انتشر فى القرن الرابع فى شمال أفريقية والأندلس .

---

(١) العربى يسمى الورس، وهو يشبه السمسم ويكون فى اليمن .

الصناعــة

أحسن المسلمون الاستفادة من ثرواتهم المعدنية، والطبيعية المختلفة، وأتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها، ومن ذلك :

١- الحديد : ويوجد في كرمان، وكابل، وفارس، وإفريقية، وكانت الوطن الأول له[١] وصقلية، وفرغانة التي برع أهلها في صناعته وتفتقت لهم الخواطر بغرائب اتخذوها منه، وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد وصناعته .

٢- النحاس الأصفر: وكان معدنه في أصفهان وبخارى، ونحاس بخارى كان يستعمل في طلاء أعلى المنائر .

٣- الذهب والفضة . كانت أجزاء المملكة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً من هذين المعدنين النفيسين على نحو جميل، فكان المشرق يهيئ الفضة والمغرب يأتي بالذهب، وكانت معادن التبر[٢] في شرقي النيل بين أسوان وعيذاب، وكان أكبر معدنين للذهب في العلاقي على مسيرة خمسة عشر مرحلة من أسوان[٣] ، وكان المعدن الثاني في السودان، وأكبر معدن للفضة كان في الشرق بمدينة بنجهير[٤] في بلاد هند كوش[٥] .

---

(١) وبخاصة المنطقة التي تعرف الآن باسم «بندوف» فيها أغنى مناجم الحديد في العالم كما أفصحت عن ذلك الصحف حينما وقع الاشتباك بين المغرب والجزائر .

(٢) التبر بالكسر الذهب والفضة أو فتاتهما قبل أن يصاغا .. القاموس .

(٣) كانوا يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر، ويعلمون على المواضع التي يرون فيها شيئا مضيئا؛ فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التي عليها . ومضوا بها إلى آبار هناك، فغسلوها بالماء ، واستخرجوا التبر – الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٤) كانوا يتتبعون عروقا يجدونها تدلهم على الجوهر، وكان جبل المدينة وسوقها كالغربال من كثرة الحفر – المصدر السابق ص ٣١٦ .

(٥) قال ياقوت في معجمه: بنجهير مدينة بنواحي بلخ بها جبل الفضة، وهو يشرف على المدينة .

٤- السكر: كانت صناعته قائمة فى خوزستان، وإقليم البصرة، والأندلس، وكان أكبر مركز لصناعته إقليم خوزستان، وخصوصاً مدينة جنديسابور، حتى قيل إن عامة سكر خراسان منها، كما أن إقليم البصرة أشهر مكان لصناعته فى العراق (٤) .

٥- الحرير كان يوجد فى خوزستان، وطبرستان، وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز تصنع فى إقليم خوزستان التى كان بها أكبر مصانع لنسج الحرير، أما صناعة الإبريسيم فكانت متركزة بمدينة مرو «من إقليم طبرستان» ، ومنها كانت تصدر إلى جميع الآفاق .

٦- القطن: كان يزرع فى فارس، وفيما بين النهرين، وكرمان .

وكانت المراكز الكبرى لصناعة القطن فى مرو، ونيسابور، (شرقى فارس)، «وبم» (شرقى كرمان) .

وكانت كابل تصدر ثيابا من القطن مشهورة بحسنها إلى الصين، وخراسان، وكان يصنع فى مرو القطن الذى يبلغ الغاية فى اللين كما عرفت «بم» بالثياب القطنية الفاخرة، وكان من طرائف ما يصنع بها الطيالسة .

٧- الكتان: الكتان هو النسيج الذى اختصت به مصر، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته، وكان يصدر إلى كثير من النواحى، وربما وصل إلى فارس، وكانت الأجساد المحنطة تلف دائما بنسيج من الكتان .

وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما: الفيوم، وبحيرة تنيس بنواحيها، وهى: مدينة تنيس، ودمياط، وشطا، ودبيق، التى كانت أكبر المدن التى تصنع النسيج، وإليها كان ينسب أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى .

ونبغ أهل تنيس فى صناعة ثياب فخمة تسمى البدنة، وكانت تصنع للخليفة ولا يدخل فيها من الغزل - سدى ولحمة - غير أوقيتين، وباقيها بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمة الثوب ألف دينار، كما كانت

---

(١) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز جـ ٢ ص ٣٠٥ .

تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما قيمته عشرين أو ثلاثين ألفا، وكان يصنع بالفيوم الستور الثمينة التى يبلغ طول الستر منها ٣٠ ذراعا، أو أكثر، وقيمة الزوج منها ٣٠٠ دينار .

وكان فى الإسكندرية نوع من ثياب الكتان يسمى الشرب يباع كل وزن درهم منه بدرهم من الفضة .

وبالجملة فقد ارتقت صناعة النسيج، حتى أمكن صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضا، فكانت تصنع بمدينة طحا بشمالى الصعيد ثياب الصوف الرفيعة .

٨- العطور : قامت صناعة العطور بفارس والعراق، وقد ازدهرت بأقليم سابور من أعمال فارس، وصار هذا الإقليم يشبه الريفييرا الفرنسية وكانت الزيوت العطرة تتخذ فى ذلك الوقت من البنفسج، والنيلوفر، والنرجس، والكاردة، والسوسن، والزنبق، والمرسين، والمرزنجوش والبادرنك والنارنج .

كذلك اشتهرت مدينة « جور » فى جنوب فارس بصناعة العطور، ولكن كانت تتخذها من زهور غير الزهور المتقدمة مثل الورد، والطلع، والقيسوم، والزعفران، والخلاف، وكان ماء الورد ينقل من « جور » إلى سائر البلدان؛ فكان يحمل إلى الغرب، والأندلس، ومصر، واليمن، والهند، والصين .

واستحدثت الكوفة دهان الخيرى، وكانت تفوق سابور فى الخيرى والبنفسج .

٩- معقدات الفاكهة (المربى) : كان لأهل اليمن افتنان فى صناعة معقدات الفاكهة من إترج، وجزر ، وقرع، وخوخ، ونحوها، مما إذا شرع الجاهل فى أكله قضم بعض أنامله، كما كان لهم الشهد الجامد الذى يقطع بالسكاكين، وكان يهدى إلى العراق، ومكة، وغيرهما، ولهم فى عمله طريقة خاصة .

١٠- الورق : حدث انقلاب عظيم فى صناعة الورق فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، وعطلت كواغيد سمرقند قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها؛ لأنها أحسن وأنعم وأوفق .

وأول من أشار بصنعه الفضل بن يحيى حينما طما بحر التأليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان، وصكوكه، وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت [١] .

وقد نقلت صناعة الكاغد عن الصين، وهو أجود أنواع الورق فى ذلك العهد، وقد ناله على أيدى المسلمين تغيير هام يعتبر حادثاً فى تاريخ العالم؛ فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل فى صناعته من ورق التوب، ومن الغاب الهندى . وكان فى القرن الثالث الهجرى يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط، أما فى القرن الرابع، فقد انتشرت صناعته، وصارت له مصانع فى دمشق، وطبرية، وطرابلس الشام، ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته .

١١- الآلات الرياضية : اشتهرت مدينة حران [٢] - لمركزها الدينى باعتبارها آخر مأوى لعبادة الكواكب - بصنع آلات القياس مثل الاسطرلابات، وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة، وكانت موازين حران مضرب الأمثال فى الدقة .

١٢- تجفيف السمك : كان يصاد من بحيرة «وان» (شمالى فارس) سمك صغير يعرف بالطربخ يملح، ويحمل إلى الجزيرة، والموصل، وحلب، وبلخ، وسائر الثغور .

أما فى المغرب، فكان يقوم مقامه السمك المسمى بالبن ويصاد من شواطئ الأندلس، وأفريقية، خصوصا سبتة .

١٣- طحن الحبوب : كانت الحبوب تطحن فى مطاحن مائية، أو هوائية، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة فى تكريت، والحديثة، وعكبرا،والبردان، وبغداد، والموصل، وكانت تصنع من الخشب والحديد، وتسمى عربة، وبكل عربة حجران أو أكثر يطحن كل حجر منها خمسين وقراً فى كل يوم، وكانت رحى البطريق فى بغداد أكبر رحى؛ فقد كانت مائة حجر تغل فى كل سنة مائة ألف ألف درهم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٩٦٢ .

(٢) حران قصبة ديار مضر وهى مدينة عظيمة على طريق الموصل قريبة من الرها والرقة، وكانت منازل الصائبة - معجم البلدان لياقوت .

والأرحاء الهوائية كانت تسير بالهواء، ولها ثمانية أجنحة، وتكون بين عمودين بنفذ بينهما الهواء كالسهم، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودى أيضاً طرفه الأسفل يحرك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر، وكان من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تغلق، وتفتح حسب الحاجة .

١٤ - الأخشاب : كانت الأخشاب كثيرة، وصناعاتها متنوعة؛ ففى خراسان خشب العرعر، وهو نوع جيد من الأخشاب استعمله أغنياء المسلمين فى بناء بيوتهم فى صدر الإسلام، وخشب الساج الهندى وهو أحسن ما يستعمل فى بناء البيوت فى المشرق كله، وكانت تصنع منه أدوات البيوت للسادة والكبراء .

وكانت أثاثات المنازل تصنع من خشب الخلنج، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة، وكانت مدينة « قم » (بين أصبهان وسادة) تصدر الكراسى الجيدة .

١٥- البسط والسجاجيد : كان جمال المسكن فى الماضى يتلخص فى أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستور الجميلة، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط .

ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة فى جميع البلاد .

واشتهرت فارس، وبخارى، وأرمينية بالفرش الصوفية، وكانت البسط الأرمينية مقدمة على غيرها، ومنها انتقلت إلى أزمير التى اشتهرت بصنع البسط فيما بعد .

وقد قال ماركو بولو : إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة .

وكانت تصنع فى أسيوط - بصعيد مصر - فرش قرمزية تشبه الأرمينى .

* * *

التجـــارة

كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالتجارة، وخبرة بها؛ ولها عندهم منزلة مرموقة، ولما جاء الإسلام، واتسعت الفتوحات، وارتقت الزراعة، والصناعة نشطت التجارة، واتسعت حتى أصبح للمسلمين صلات تجارية، مع معظم بلاد العالم، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفليبين والصين، وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة، وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا، والحبشة، وسواحل أفريقيا، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس التى ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية، هى الطريق بين شمالى أوربا والشرق .

وسرعان ما أصبح كثير من المدن الإسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى البرى والبحرى، ومن أهم هذه المدن، بغداد، والبصرة والقاهرة، والإسكندرية، وسيراف، وأصفهان [١] . ومرافئ الشام كطرابلس، وصيدا، وبيروت .

وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر فى البضائع الكمالية على الأقل [٢] .

ومما ساعد العرب فى رحلاتهم البحرية مهارتهم فى ركوب البحر، ومعرفتهم بالبوصلة، والانتفاع بها فتمكنوا « من ارتياد البحار فى جرأة ومهارة فائقة حتى ملكوا فى أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب » [٣] ، حملت سفنهم، وقوافلهم المنسوجات والأطياب والبخور، والسكر والقطن وآنية الزجاج إلى أقاصى آسيا وإفريقية، وعادت منها محملة بالتوابل، والكافور، والحرير، من أقاصى القارة الأسيوية، والعاج، والأبنوس، والرقيق الأسود من القارة الإفريقية .

---

(١) بلغ من ازدهار المبادلات المالية والتجارية بها أنه كان بها مائتا صراف يجلسون جميعاً فى سوق يسمى الصرافين – آدم متز جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥

(٣) المجتمع العربى (نصيب العرب فى تقدم العلم والحضارة) ص ٤٧٤ للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

أثر التجارة :

أدى نشاط المسلمين التجارى إلى ابتكار بعض النظم المالية والتجارية التى عرفتها أوربا عنهم، وقد أثبت العالم جرسهوب أن أول من عرف نظام الحوالات المالية هم العرب، وعنهم أخذتها أوربا فى القرن العاشر عن طريق أسبانيا وإيطاليا (١) . وقال المستر كراندال : « وفى التجارة كان الإسلام رائد العالم الحديث فى إنشاء الاتحادات التجارية، واستعمال الشيكات، وخطابات الاعتماد، والإيصالات ووثائق الشحن »(٢).

وفى العصر الذهبى للدولة العباسية « أنشأ التجار لأول مرة نقابة مسئولة عن مراقبة المعاملات التجارية، ومنع التدليس، وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى « رئيس التجار » ، كما كان يسمى أعضاء النقابة « الأمناء » (٣) .

وقد استفاد المسلمون من تجارتهم - فضلا عن الغنى والثروة المالية - خبرة بشئون الحياة، ومعرفة بأخلاق الناس؛ وأصبحت التجارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام وحضارته، ولها السيادة فى البلاد، وغدت سفن المسلمين، وقوافلهم تجوب كل البحار، واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية (٤) .

وبذلك اضمحلت المكانة العالمية للتجارة اليهودية، وقد كانت تستأثر بأهم ما كانت تصدره أوربا، وخصوصا الغلمان والجوارى .

ونشأ عن هذا التقدم التجارى ازدهار الجاليات الإسلامية فى كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين، فكان يرأسهم مسلم، ولا يقبلون تحكم غير المسلمين فيهم .... ومن هذه الجاليات ما كان فى بلاد الخزر، والسرير، واللان، وغانة، وكوغة، والهند، والصين . بل وكوريا أيضاً (٥) .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٥ .
(٢) راجع أثر الإسلام فى المسيحية نشرة أصدقاء الشرق الأوسط الأميريكية بنيويورك .
(٣) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للسيد أمير على ص ٣٦١ .
(٤) آدم متز جـ ٢ ص ٣٦٥ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٦٨ .

يقول السيد أمير علي: «اخترع العرب البوصلة البحرية التي ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم، طلبا للعلم أو الاتجار، فأسسوا المستعمرات من شاطئ إفريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندي، وعلى سواحل الهند، وجزيرة مالايا، وتوغلوا في بلاد الصين؛ وغدت البصرة ثغراً تجاريا هاما تتجر مع الهند، وكاتاي، واخترقت قوافلهم شمالي إفريقيا، وصحراءها عن طريق المغرب، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى أسبانيا، وصقلية، وإيطاليا، وفرنسا، وأصبحت طرابزون حلقة التجارة مع الدولة البيزنطية، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا، وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسي، وامتدت تجارتهم إلى بحر قزوين، والبحر الأسود، وتغلغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطئ البلطيق وداخل السويد [١] .

* * *

(١) مختصر تاريخ العرب التمدن الإسلامي من / ٣٩٤ .

النظام المالى

تتطلب مصلحة كل دولة أن يكون لها نظام مالى تسير عليه، وقد راعت الدولة الإسلامية ذلك فأنشأت بيتا للمال يقوم على رعاية مصالحها، وهو يشبه وزارة المالية فى وقتنا الحاضر، والقائم عليه يشبه وزير المالية .

ولبيت المال حقوق وعليه واجبات، فكل ما يستحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم؛ فهو حق من حقوق بيت المال، وكل ما وجب صرفه فى مصالح المسلمين فهو حق على بيت المال . ولبيت المال موارد هى: الصدقة والغنيمة والفىء [1] .

وهذه الموارد قسمان: موارد دورية تجبى فى أوقات معينة من كل عام كالزكاة والجزية، وموارد غير دورية كخمس الغنائم والركاز .

الصدقة :

الصدقة أو الزكاة ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ليرد على فقرائهم، وقد بينا فيما سبق بعض مالها من آثار جليلة للمجتمع، وأن من مظاهرها التكافل الاجتماعى، والأخوة الإنسانية . ومصادرها : السوائم (الإبل، والبقر، والغنم) والفضة والذهب، وعروض التجارة، والزروع والثمار، وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابا معينا لا تجب الزكاة فيما دونه، وقدرا معيناً لا يؤخذ فوقه، ومصرفها ما ذكر فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ**

---

(١) قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ﴾ الأموال التى للأئمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب :

١- ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم، كالصدقات والزكوات .

٢- والثانى الغنائم وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكفار بالحرب والقهر والغلبة.

٣- والثالث الفىء؛ وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفواً من غير قتال ولا إيجاف كالصلح، والجزية، والخراج، والعشور المأخوذ من تجار الكفار ... جـ١٨ ص ١١٤ ، الأحكام السلطانية ص ١٨٧ .

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] .

ولعل فى وصية النبى ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن جماع القول لخصائص الزكاة .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتى قوما أهل كتاب؛ فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم؛ فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ...» (١) .

ويؤخذ من هذه الوصية أن الزكاة :

١- تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء .

٢- أنها تؤخذ فى إنصاف؛ فلا تؤخذ كرائم الأموال وخيارها .

الغنيمة :

الغنيمة ما يغنمه المسلمون ويأخذونه من أموال الكفار بالقتال والجهاد فى سبيل الله (٢) وهى أنواع أسرى، وسبى، وأموال منقولة، وأرضين على خلاف (٣) فيها، فالأسرى هم المقاتلون الذين يقعون فى الأسر، والسبى هم النساء الأطفال الذين يقعون فى أيدى المسلمين، ولا يجوز أن يقتلوا، ويكونون سبياً مسترقاً يقسمون مع الغنائم، ويجوز قبول الفدية منهم، والأموال المنقولة هى ما يمكن نقله كالنقود، والماشية .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة فى غير موضع .

(٢) ذكرها الله فى سورة الأنفال التى أنزلها فى غزوة بدر، وسماها أنفالا لأنها زيادة فى أموال المسلمين - السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٣١ ، القرطبى ج ١٨ ص ١٤ ، كتاب الاختيار فى مذهب الأحناف جـ٣ ص ٨١ .

(٣) اختلف الأئمة فى الأرض التى ملكها المسلمون من المشركين عنوة وقهراً؛ فقال الشافعى: إنها غنيمة تقسم بين الغانمين، وتكون أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج، وقال مالك: هى وقف على المسلمين بخراج يوضع عليها، وقال أبو حنيفة: يخير الإمام بين الأمرين، وراجع الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٢٢ ، ١٣١ .

والواجب في المغنم تخميسه وصرف الخمس إلى من ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال : ٤١]، وقسمة الأربعة الأخماس الباقية بين الغانمين.

الفيء : (١)

الفيء هو « كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال، ولا بإيجاف خيل ولا ركاب » ويدخل فيه الجزية والخراج والأعشار وغيرها .

الجزية : (٢)

ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة . وهى تؤخذ من الرجال القادرين لا ممن يتصدق عليهم، ولا ممن لا قدرة له على العمل، وكانوا يقدرونها حسب أحوال أهل الذمة غنى وفقراً، لكن لا تزيد على ثمانية وأربعين درهماً . ولا تنقص عن اثنى عشر درهماً فى السنة، وكانت تؤدى منجمة، وتسقط بالإسلام .

وتقبل من غير المسلمين أيًّا كانوا إلا إذا كانوا من العرب عبدة الأوثان، أو من المرتدين فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، أما غيرهم من النصارى، واليهود، والمجوس،وعباد الأوثان من العجم، فيقبل منهم الإسلام، أو الجزية، أو السيف . والجزية بدل عن القتل أو القتال فدافعها لا يقتل، ولا يدعى إلى قتال، وهو آمن على نفسه وماله.

---

(١) سمى فيئاً لأن الله أفاءه على المسلمين أى رده عليهم من الكفار – السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٤٠ .

(٢) «الجزية والخراج حقان أوصل الله سبحانه وتعالى المسلمين إليهما من المشركين يجتمعان من ثلاثة أوجه ويفترقان من ثلاثة أوجه، ثم تتفرع أحكامهما؛ فأما الأوجه التى يجتمعان فيها فأحدها أن كل واحد منهما مأخوذ عن مشرك صغاراً له وذلة، والثانى أنهما مالا فيء يصرفان فى أهل الفيء، والثالث أنهما يجبيان بحلول الحول ولا يستحقان قبله . وأما الأوجه التى يفترقان فيها فأحدها أن الجزية نص وأن الخراج اجتهاد، والثانى أن أقل الجزية مقدر بالشرع، وأكثرها مقدر بالاجتهاد، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد، والثالث أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكفر والإسلام» – الأحكام السلطانية ١٢٦ .

الخراج: وهو ما كان يوضع على الأراضى التى فتحت عنوة، ثم تركت بأيدى أصحابها على أن يؤدوا عنها الخراج [1] :

ومما يدخل تحت الخراج ويعتبر من موارد بيت المال فى الإسلام أعشار التجارة [2] وأخماس المعادن، والمراعى والضياع، وأثمان المياه، وما يوضع على الملاحات والآجام وغيرها مما يعد من قبيل الخراج .

مصاريف بيت المال :

كان من موارد بيت المال ما ينفق فى مصالح المسلمين ومرافقهم العامة ومن أهم هذه المصالح :

١- أرزاق القضاة، والولاة، والعمال ومن إليهم .

٢- أعطيات الجند، وما يحتاجون إليه من وسائل الحرب .

٣- المنافع العامة، ككرى الأنهار، وحفر الآبار، وإصلاح الطرق .

٤- نفقة المسجونين، وأسرى المشركين .

٥- العطايا، والمنح للأدباء والعلماء .

---

(١) كل أرض أسلم أهلها عليها، أو فتحت عنوة، وقسمت بين الغانمين، فهى عشرية، وما فتح عنوة وأقر الإمام أهلها عليها أو صالحهم فهى خراجية سوى مكة شرفها الله تعالى، الاختيار فى مذهب الأحناف جـ ٣ ص ٩٧ ، وراجع الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٢٩ ط الأميرية .

(٢) أصل ذلك فى الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إلى أبى موسى وهو على البصرة أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد يعنى أهل الذمة من كل عشرين درهما درهما، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهما - الخطط للمقريزى جـ ١ ص ١٠٣ وراجع الخراج لأبى يوسف ص ١٣٥ ط السلفية، وفيه أيضا أن أهل منبج - قوم من أهل الحرب - وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه به؛ فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .

وكانت نفقات كل إقليم من أرزاق العمال، وطرق الإصلاح، وشق الترع وإقامة الجسور وما إلى ذلك تؤخذ من خراج الإقليم، وما يتبقى يرسل إلى المدينة فيوزع على المسلمين وهذا هو العطاء .

وكان أبو بكر يسوى بين الناس فى العطاء، وأما عمر ففضل بينهم بحسب سابقتهم، وبلائهم فى نصرة الدين، أو القرابة من رسول الله ﷺ ، ففرض لكل واحدة من زواج النبى ﷺ عشرة آلاف درهم، وفرض للعباس سبعة آلاف درهم، وفرض لكل من شهد بدراً من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم، وفرض لنفسه معهم خمسة آلاف درهم، وفرض لكل من شهداء بدر من الأنصار أربعة آلاف درهم، وفرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن أسلم بعد الفتح ألفى درهم .. ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن، وجهادهم، وتفصيل ذلك مذكور فى مواضعه[١].

* * *

(١) راجع كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٢٤ - ٢٦ الأميرية، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٥٣ ، الأحكام السلطانية ١٧٦ ، ١٧٧ .

الفصل التاسع

الحركة الفكريّة

- المذاهب والفرق .
- الفلسفة والتربية .
- العلوم الطبيعية عند العرب .
- رأى الغزالى فى العلوم الطبيعية .
- الطب .
- الفلك .
- الكيمياء .
- الفيزياء .
- الرياضيات .
- العلوم الاجتماعية .
- التاريخ .
- الجغرافيا .
- الاجتماع .

المذاهب والفرق

نشأة الفرق :

كانت الخلافة كما قدمنا هى المسألة الأولى التى اشتد حولها الخلاف بين المسلمين، وتشبعت فيها آراؤهم [1] ، وكان من أثر هذا الاختلاف أن نشأت أهم الفرق الإسلامية فى العصر الأول ، وهى :

١- الشيعة : وهم الذين يرون أن عليًّا كرم الله وجهه أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ .

٢- الخوارج : وهم يقولون : إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين.

٣- المرجئة : وهم الذين كرهوا هذا الخلاف واجتنبوا الفريقين، وأرجئوا الحكم فيها لله تعالى .

وحين كثرت الفتوح، وانتشر الإسلام، ودخل فيه كثير من أهل الملل والنحل الأخرى، ظهرت أفكار جديدة من أهل هذه الديانات والنحل صيغت فى ثوب دينهم الجديد، ولما كان العراق مجمع كثير من الديانات والحضارات، وملتقى عديد من الأمم والجماعات، ظهر فيه كثير من الملل والنحل؛ فقامت جماعة تقول بحرية الإرادة، وعلى رأسهم معبد الجهنى، وتكونت منهم فرقة القدرية، كما وجدت فرقة الجبرية الذين يسلبون الإنسان إرادته، وعلى رأسهم جهم بن صفوان .

تبلبلت أفكار كثير من الناس واضطربت، وكان لابد من رد فعل لهذا الاضطراب الفكرى، فقام جماعة من الأعلام الذين شرح الله صدورهم للدفاع عن دينه يبينون للناس العقيدة الصحيحة، ومن أشهر هؤلاء الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) إمام

---

(١) يقول الشهرستانى فى الملل والنحل : « ماسل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ماسل على الإمامة فى كل زمان » ص ٣٠ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران .

أهل السنة فى زمانه؛ فقد كافح وأبلى فى ذلك بلاء حسنا، وكان من تلاميذه واصل ابن عطاء (ت ١٨١ هـ) ، فاختلف معه واعتزله، وكان من أثر هذا الاختلاف أن تكونت فرقة المعتزلة التى كان لها فضل إلى حد كبير فى الدفاع عن العقيدة، وكان ذلك فى أوائل القرن الثانى الهجرى .

وفى أواخر القرن الثالث ظهر الإمام أبو منصور الماتريدى (ت ٣٣٣ هـ) وكان من المبرزين فى الرد على أهل العقائد الباطلة ، وعرف أتباعه بالماتريدية .

كذلك ظهر الإمام أبو الحسن الأشعرى (ت ٣٣١ هـ) بعد أن انفصل عن المعتزلة، وأعلن آراءه التى صادفت قبولا من جلة العلماء، ومن هنا وجدت فرقة الأشاعرة . ومن الماتريدية والأشاعرة تكونت جماعة أهل السنة .

* * *

الشيعة (١)

الشيعة هم أصحاب الرأى القائل بأولوية آل بيت النبى ﷺ بالخلافة، وأحق آل البيت هو على كرم الله وجهه (٢) ، وهم أقدم الفرق الإسلامية، فقد بدا القول بأحقية على بالخلافة عقب وفاة النبى ﷺ .

خمد هذا الرأى مدة خلافة الشيخين: أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وفى آخر عهد عثمان رضى الله عنه ظهر أصحاب هذا الرأى بمذهبهم، ثم نما وترعرع فى زمن على كرم الله وجهه، ولما له رضى الله عنه من منزلة ممتازة فى الإسلام أخذ أتباعه وأشياعه ينشرون مذهبهم بين الناس .

ولما جاء عصر بنى أمية، ووقعت المظالم بآل على، وحل بهم من القتل والتمثيل ما أدمى القلوب، وأبكى العيون كان ذلك مما زاد النار تأججا، والقلوب تأثرا فانتشر المذهب الشيعى وكثر أتباعه .

مبادئ الشيعة

١- الشيعة جميعاً يعتقدون «أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم . بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبى إغفالها، ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر .

---

(١) الشيعة: شيعة الرجل أتباعه وأنصاره - القاموس، والشيعة تطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع على وبنيه رضي الله عنهم - مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص٥٢٧ .

(٢) كان أقرب آل بيت النبى ﷺ بعد موته من أعمامه العباس، ومن بنى عمه على وعقيل ابنا أبى طالب، ويمتاز على من بينهم بسبقه إلى الإسلام، وشهوده مشاهد النبى ﷺ ، وبلائه فى ذلك، وتزوجه بابنته فاطمة، ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد للنبى ﷺ إن كان هناك إرث .

٢- وإن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها، ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة أهل السنة، ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع، أو مطعون فى طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة[١] .

ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولقب على رضى الله عنه بالوصى يريدون أن النبى ﷺ أوصى لعلى بالخلافة من بعده؛ فهو إمام بالتعيين والنص من رسول الله ﷺ ، وقد أوصى لمن بعده، وهكذا كل إمام وصى من قبله .

٣- وأنه رضى الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ ؛ فمن عاداه، أو حاربه فهو عدو الله إلا إذا ثبتت توبته، ومات على حبه، وقد ذكرنا عند كلامنا على ظهور الكذب فى الحديث بعض ماروته الشيعة فى أحقيته بالخلافة .

الدوافع لانتشار التشيع :

كان لانتشار التشيع، وكثرة أتباعه دوافع عدة منها :

١- حب آل البيت حبا خالط شغاف القلوب .

٢- القصد إلى هدم الإسلام لما تنطوى عليه قلوب المتظاهرين بالتشيع من ضغينة، وحقد، وعداء، وكيد للإسلام .

٣- القصد إلى إدخال تعاليم الآباء ودياناتهم؛ من يهودية، ونصرانية، ومجوسية وغيرها، وخلطها بالإسلام لإفساده، أو لإظهار أنهم أهل كتاب، أو لغير ذلك .

٤- الحب الكامن فى نفوسهم لبلادهم، وأوطانهم الأولى، ورغبتهم فى استقلالها، وخروجها عن دولة الإسلام .

كل هؤلاء وغيرهم كانوا يتخذون من حب آل البيت شعاراً يخفون وراءه أهواءهم ونزعاتهم؛ ومن هنا نرى أن التشيع كان ملجأ يلجأ إليه كل من يريد بالإسلام

---

(١) الشهرستانى ص ١٣١ تخريج الأستاذ بدران القسم الأول، مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥٢٧ فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٣١٣ .

سوءاً، أو يبغى لدولته أن تدول، كما كان مباءة خصبة لظهور كثير من الآراء الزائفة كالقول بالرجعة، والحلول، والتناسخ، والتجسم والتشبيه .

وقد افترقت الشيعة إلى طوائف عدة: منها من باد وانقرض بمرور الأيام، ومنها من اندمج فى غيره، وأمحى فى الفرق الأخرى، ومنها ما لا يزال باقياً إلى يومنا هذا .

وكان الباعث على الافتراق أمور، منها :

١- اختلاف وجهات النظر فى المبدأ الشيعى؛ فقد كان منهم المسرف فى تشيعه إلى حد تقديس الأئمة، بل قد غلا بعضهم فى ذلك إلى حد التألية، ومنهم المعتدل الذى اقتصر على تفضيل علىٍّ على بقية الصحابة، واعترف بصحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وأن الخطأ فى ذلك لا يصل إلى حد الكفر أو الفسق .

٢- « تباين آرائهم فيمن يكون إماماً من أولاد على وبنيهم، أفرع الحسن أم فرع الحسين، أم فرع محمد ابن الحنيفة إلى غير ذلك مما رأوا » .

آثار التشع :

كان لظهور الشيعة وانتشار مذهبهم آثار سياسة، واجتماعية، ودينية بعيدة المدى، منها :

١- أن حب على قد تمكن من قلوب كثير منهم، وقالوا فيه مالم يرده، وما لم يأذن به الله، وغالوا فى ذلك حتى ألهوه؛ وقد حرق على رضى الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم، وسخط محمد ابن الحنفية على المختار بن أبى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرح بلعنته والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضى الله عنه بمن بلغه مثل هذا عنه [١] .

٢- أنهم اعتبروا الأمويين مغتصبين للخلافة، ولم يقروا لهم بها، وقاوموهم وثاروا عليهم؛ لأنهم يرون أن كل من خلف عليًّا من الخلفاء من غير أسرته مغتصب للخلافة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٢ .

٣- أنه لما قامت الدولة العباسية لم يرق للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم، واعتبروا أن العباسيين خدعوهم؛ إذ لولا اتحادهم معهم ضد الأمويين لما مهد الطريق أمامهم للخلافة .

٤- أنهم كافحوا وناضلوا العباسيين، وكانوا يعملون فى طى الخفاء والكتمان، وأصبح تاريخهم حافلا بضروب الخدع والمكايد، ولكن العباسيين أذاقوهم مرارة الفشل، كما سقاهم الأمويون كأس الذل والهوان من قبل، فلم تنجح محاولاتهم فى الوصل إلى الخلافة، وأصيبوا بهزائم ساحقة فى عصرى المنصور والهادى .

٥- أنهم رحلوا إلى بلاد المغرب حينما اشتدت وطأة العباسيين عليهم، وأسس إدريس بن عبد الله هناك دولة الأدارسة، كما ظهرت دويلات انفصلت عن الدولة العباسية واستقلت عنها مما كان من أسباب ضعفها .

٦- أنهم انتقلوا إلى الشرق، وأقاموا الدولة الفاطمية، وأسسوا القاهرة التى نافست بغداد، وأعلنوا على منابر دولتهم لعن أبى بكر، وعمر، وعثمان، وأسسوا الجامع الأزهر ليكون مقراً لنشر مذهبهم الشعبى .

طوائف الشيعة :

افترقت الشيعة إلى طوائف عدة من أهمها :

١- الرافضة : سموا بذلك لأن زيد بن على بن الحسين امتنع عن لعن أبى بكر، وعمر، وعثمان، ورفض رأى من يقول بذمهم (١) .

٢- الكيسانية : الذين ينتسبون - على الأرجح - إلى كيسان رئيس جند المختار ابن أبى عبيد الثقفى .

٣- الزيدية : نسبة إلى زيد بن على (زين العابدين) بن الحسين بن على بن أبى طالب .

٤- الإمامية : وهم يقولون : بإمامة على رضى الله عنه عن النبى ﷺ نصًّا ظاهراً وتعييناً صادقاً، ثم تنتقل منه بعد وفاته هكذا إلى من بعده من ذريته .

---

(١) راجع اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى .

وسنكتفى بكلمة عن كل من الزيدية والإمامية لبقائهما إلى وقتنا هذا .

الزيدية :

الزيدية ينتسبون - كما قلنا - إلى زيد بن على، ومذهبهم أعدل مذاهب الشيعة إطلاقا، وهم أقرب طوائف الشيعة إلى مذهب جماعة المسلمين، وذلك :

١- لأنهم لم يغلوا فى دينهم .

٢- لم يكفر الأكثرون منهم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ .

٣- لم يرفعوا الأئمة إلى مرتبة الألوهية، ولا إلى مرتبة النبوة .

نشأتهم :

فى خلافة هشام بن عبد الملك فى بدء القرن الثانى للهجرة عرف عن زيد نفور من ظلم الأمويين وتطلع للخلافة، وعرف هشام منه ذلك، وقد روى أنه دخل يوما عليه فسخر منه، وقال له : لقد بلغنى أنك يا زيد تتمنى الخلافة لنفسك، ولست لها أهلا فأنت ابن أمة . فأجابه زيد : يا أمير المؤمنون لقد كان إسحاق ابن حرة، وإسماعيل ابن أمة؛ فاختص الله إسماعيل بجعل العرب من سلالته، وجعل من سلالة العرب محمداً ﷺ ، وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يحب زيداً ويميل إليه، وروى أنه كان يفتى بنصرته والخروج معه .

وفى سنة ١٢١ هـ اعتزم زيد الخروج على هشام؛ فحاول خاصة أهله ونصحاؤه أن يثنوا عزمه عن هذه المخاطرة، وبينوا له غدر أهل الكوفة بجده الحسين من قبله لكنه أبى، وأصم أذنيه، وخرج والتحم بجيش هشام فقتل سنة ١٢٢ هـ .

مذهبهم :

١- أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وأوصاف الإمام أن يكون فاطميًّا، عالما زاهدا، مجتهداً، جواداً، شجاعا، ويخرج داعياً إلى إمامته (١) .

٢- إنهم لا يقولون بالتقية، ولا بعصمة الأئمة، ولا باختفائهم .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢١ ، الشهرستانى ص ١٣٧ تخريج الأستاذ بدران .

٣- إنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الفاضل؛ لأن هذه الصفات للإمام الأمثل فهو بها أولى من غيره؛ فإن اختار أهل الحل والعقد إماماً لم يستوف الشروط وبايعوه صحت بيعته، وبنوا على ذلك صحة بيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وعدم تكفير من بايعهما من الصحابة، وقد كان هذا الأصل الذى نادى به زيد سبباً فى خذلان كثير من الشيعة له .

٤- إنهم يقولون: إن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ما لم يتب توبة نصوحا، وهذا القول أثر من آثار تلمذة إمامهم لواصل بن عطاء، كما أن القول به كان من أسباب خروج كثير من الشيعة عليه (١)، ولا يزال مذهب الزيدية فى اليمن إلى الآن.

الإمامية :

الإمامية: « هم القائلون بإمامة على رضى الله عنه بعد النبى عليه السلام نصًّا ظاهراً، وتعييناً صادقاً من غير تعريف بالوصف بل إشارة إليه بالعين (٢) .

وسموا إمامية نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه، فى الإيمان، وهى « أصل عندهم » (٣) بل الأصل الذى لا يقبل إيمان بدونه، ومذهبهم منتشر فى العراق، وإيران، والهند .

مذهبهم :

١- النص على الإمام وتعينه بالذات؛ ولهذا نص النبى ﷺ على إمامة على رضى الله عنه، لأنه ليس « فى الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة، فإنه إنما بعث لرفع الخلاف، وتقرير الوفاق، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا؛ يرى كل واحد منهم رأيا، ويسلك كل واحد منهم طريقا لا يوافقه فى ذلك غيره، بل يجب عليه أن يعين شخصا هو المرجوع إليه، وينص على واحد هو الموثوق به، والمعول عليه، وقد عين عليا رضى الله عنه فى مواضع تعريضا، وفى مواضع تصريحا (٤) .

---

(١) راجع الشهرستانى تخريج الأستاذ بدران القسم الأول .
(٢) الشهرستانى ص ١٤٤ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران .
(٣) راجع فى ذلك المرجع السابق ص ١٤٥ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٣١ .
(٤) راجع فى ذلك الشهرستانى ص ١٤٤ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٣١ .

٢- تخطوا عن هذه الدرجة إلى الوقيعة فى كبار الصحابة: طعنا وتكفيرا، وأقله ظلما وعدوانا [١] .

٣- جعلوا سلسلة الخلافة بعد على فى أولاد فاطمة؛ فاتفقوا على إمامة الحسن والحسين وعلى زين العابدين [٢] ، واختلفوا بعد ذلك فى تسلسل الأئمة إلى فرق متعددة، أشهرها: الإسماعيلية، والاثنا عشرية .

ولما كانت الاثنا عشرية أكثر طوائف الإمامية، وأظهر أثرا فى تاريخ الإسلام فإنا نخصهم بكلمة فتقول :

سموا بذلك ؛ لأنهم يسلسلون أئمتهم إلى اثنى عشر إماما، وهم :

(١) على، (٢) الحسن، (٣) الحسين، (٤) على زين العابدين، (٥) محمد الباقر، (٦) جعفر الصادق، (٧) موسى الكاظم، (٨) على الرضا، (٩) محمد الجواد، (١٠) على الهادى، (١١) الحسن العسكرى، (١٢) محمد بن الحسن العسكرى، ويلقبونه المهدى المنتظر، ويزعمون أنه دخل فى سرداب بسامرا وتغيب سنة ٢٦٠ هـ ، وسيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا [٣]، ولا يزال كثير من الشيعة يحجون إلى هذا المكان إلى الآن .

مذهبهم :

١- تدور بحوثهم، وتتركز حول مسألة الإمام، ويعنون به الذى يجب أن يتولى أمور المسلمين دينا ودنيا، ومحور الخلاف بينهم وبين أهل السنة لا يعدو هذه المسألة، وما تفرع عنها من اختلاف وجهة النظر فى تفسير القرآن والحديث، ويوضح رأيهم فى الإمام وقداسته ماورد فى كتاب الكافى للكلينى وهو الكتاب المعتبر عندهم كالبخارى عندنا، ومما جاء فيه: «الفرق بين الرسول، والنبى، والإمام، أن الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل؛ فيراه ويسمع كلامه، ونزل عليه الوحى، والنبى ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذى يسمع الكلام، ولا يرى الشخص» .

٢- «القول بالتقية، ومعناها أن يحافظ المرء على نفسه وماله، وكل ما يتصل بعقيدته أو يمت لها بسبب من قريب أو بعيد، فإن لم يكن صاحب صولة ومنعة دارَى الأقوياء وأظهر متابعتهم، ومع هذا يعمل فى الخفاء كل مايراه محققا ما يرمى إليه من أهداف؛ فهو يظهر خلاف ما يبطن» وعقيدتهم هى العقيدة الرسمية لدولة إيران[٤] .

---

(١) الشهرستانى ص ١٤٥ . (٢) المصدر السابق ص ١٤٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٣، الشهرستانى ص١٥٠ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران .

(٤) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

الخـــوارج

لما رأى معاوية أن الدائرة ستدور عليه فى موقعة صفين عمد إلى الحيلة والدهاء فأمر جنده برفع المصاحف، ونادى بأن يحتكم الفريقان إلى كتاب الله تعالى، ولم يطمئن على إلى دعوة معاوية، وتردد فى قبولها . ثم قبلها أملا فى حقن الدماء، وإعادة الوئام بين المسلمين، ولكن فريقاً ممن معه – وأكثرهم من قبيلة تميم – لم يرض بهذا التحكيم، وقالوا كلمتهم المشهورة : « لا حكم إلا لله » ، ولا نحكم أحدا فى كتاب الله تعالى، وانشقوا على على رضى الله عنه، وخرجوا عليه؛ فسموا « الخوارج » وذهبوا إلى حروراء « وهى قرية بظاهر الكوفة » ، وسموا بالحرورية كذلك، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه « عبد الله بن وهب الراسبى » [1] ، وقد حاربهم على رضى الله عنه، وهزمهم فى موقعة النهروان وأفنى منهم نحو ثلاثة آلاف، ولكن لم يقض عليهم، فظلوا فى حروب دامية مع الأمويين، ثم هان أمرهم فى زمن العباسيين.

مبادئهم :

من مبادئهم :

١– أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين .

٢– إذا اختير الإمام فلا يصح أن يتنازل أو يُحَكم .

٣– ليس من الضرورى أن يكون الخليفة من قريش، فالخلافة حق بين جميع المسلمين على السواء حتى الأرقاء، وبذلك خالفوا الشيعة، كما خالفوا جماعة المسلمين .

٤– على الخليفة أن يخضع لما أمر الله، وإلا كان الخروج عليه حقًّا واجباً، ثم تطورت آراؤهم، ومزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث دينية وقالوا :

٥– إن الإيمان ليس اعتقاداً فقط، ولكنه اعتقاد وعمل، ومرتكب الكبيرة كافر؛

---

(١) الراسبى نسبة إلى راسب بطن من الأزد .

وبذلك يمكن القول . بأن الخلافة، وتكفير مرتكب الكبيرة هما المسألتان الرئيسيتان فى مذهب الخوارج (١) .

كان لظهور الخوارج آثار سياسية واجتماعية هامة منها :

١- أنهم كانوا خطرا هدد المسلمين، وأقلق الخلافة، وكانوا سبباً فى كثير من الحروب الدامية .

٢- تداخلوا فى العقائد، وكفروا مخالفيهم .

وقد افترقوا إلى فرق كثيرة بلغت نحو العشرين فرقة، كان من أهمها :

(أ) الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهائهم، وفرقته أكثر فرق الخوارج، وأشدهم شوكة، وكانوا يرون تكفير كل المخالفين لهم، ويجيزون قتلهم، ويستحلون قتل أطفالهم ونسائهم، ولا يجيزون التقية فى قول ولا فى عمل؛ لأن الله يقول : ﴿ **إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً** ﴾ .

(ب) الصفرية - أتباع زياد بن الأصفر، ويوافقون الأزارقة إلا أنه لا يستحلون قتل النساء والأطفال، ويجيزون التقية فى القول دون العمل .

(جـ) الأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض التميمى، ونزعتهم أميل إلى المسالمة والاعتدال؛ لأن تكوينهم كان فى أخريات الدولة الأموية بعد أن صهرتهم الحرب، وأفادوا من تجارب أسلافهم، فلم يتغالوا فى الحكم على مخاليفهم كالأزارقة، وقالوا: لا يحل قتال غير الخوارج، وسبيهم فى السر غيلة ولا يجوز قتالهم إلا بعد الدعوة، وإقامة الحجة، وإعلان القتال إلخ (٢) . وما زالت لهم بقية فى شمالى أفريقية وفى (نزوى - عمان) ولهم فيها إمام يزعم لنفسه أنه إمام المسلمين (٣) .

---

(١) كان ذلك فى أيام عبد الملك بن مروان ، وأكبر من كان له أثر فى ذلك الأزارقة، فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٣٠٤ .

(٢) راجع اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازى، والشهرستانى القسم الأول .

(٣) راجع كتاب الوحى المحمدى للمرحوم السيد محمد رشيد رضا، وإمامهم الآن غالب ابن على الهنائى، وهو يقيم فى إحدى حدود عمان بلاده المسلوية، سلبها سلطان مسقط بمعاونة الإنجليز فى سنة ١٩٥٥ م ، وقد زار أخيرا المرحوم الإمام الشيخ شلتوت شيخ الأزهر واقترح عليه أن تكون الأباضية ضمن ما يدرس فى الجامعة الأزهرية .

ويرى نيكلسون [١] أن الخوارج كانوا المثل الأعلى فى الدفاع عن العقيدة والاستماتة فى سبيل الانتصار للمبدأ رغم ما كان من اعتسافهم فى ذلك المبدأ، واشتطاطهم فى تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم، وقد لانت قناتهم قليلا، وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم، ويسود أفكارهم حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهى بإبادتهم، واستئصال شأفتهم، كما يرى أنه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه، كما لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة، وأمويين، وزبيريين [٢] .

* * *

المرجئـــة

لما رضى على كرم الله وجهه عن التحكيم، وانقسم أتباعه إلى شيعة وخوارج، والخوارج كانوا يكفرون عليا وعثمان، والقائلين بالتحكيم، والشيعة منهم من يكفر أبا بكر، وعمر، وعثمان ومن ناصرهم، وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم كان ذلك سبباً فى أن جماعة من الصحابة كرهوا هذا النزاع، وقالوا بإيمان الجميع وإن كان بعضهم مصيباً وبعضهم مخطئاً، ومادمنا لا نستطيع تعيين المخطئ والمصيب؛ فلنرجئ أمرهم إلى الله تعالى؛ فسميت هذه الجماعة بالمرجئة .

ثم تدرج بحثهم فى أمور دينية؛ فعرفوا الإيمان بأنه معرفة الله ورسوله، ثم تغالوا، وقالوا : إن الإيمان الاعتقاد بالقلب، والعمل لا أثر له مطلقاً، حتى قالوا عبارتهم المشهورة : «لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة [٣] » وقد تلاشت هذه الفرقة فى العصر الأموى .

---

(١) تاريخ العرب لنيكلسون ص ٢١١ ، نقلا عن كتاب تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم .

(٢) راجع الدولة الأموية بالمشرق للمؤلف ص ٢٤٧ – ٢٦٠ .

(٣) راجع الشهرستانى – اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازى .

المعتزلـــة

كان واصل بن عطاء الذى صار رأس المعتزلة فيما بعد من تلامذة الحسن البصرى رحمه الله، فاختلف معه فى حكم مرتكب الكبيرة واعتزل مجلسه [١] .

مبادئهم :

١- نفى صفات الله تعالى القديمة كالعلم، والقدرة؛ حذرا من تعدد القديم .

٢- القول بالمنزلة بين المنزلتين؛ فمرتكب الكبيرة الذى مات، ولم يتب ليس مؤمناً ولا كافراً، وهو مخلد فى النار .

٣- العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه .

٤- القول بخلق القرآن، وعدم رؤية الله تعالى فى الآخرة .

٥- العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها [٢] .

وكان لهم فى العصر العباسى شعبتان : شعبة البصرة التى أسسها واصل بن عطاء . وشعبة الكوفة التى أسسها بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) وتفرعت من هاتين الشعبتين فروع كثيرة تختلف فى بعض التفاصيل والجزئيات .

والمعتزلة كانوا أكثر الفرق اتصالا بالفلسفة اليونانية . وأسرعهم للإفادة منها، وقد اضطرهم إلى ذلك ما انتدبوا أنفسهم له من الحجاج عن الدين وعقائده، والرد على المخالفين من أصحاب الملل والنحل الأخرى، ومن رجالهم الأعلام من يشار إليهم مثل: أبى الهزيل العلاف، والنظام، والجاحظ وغيرهم [٣] .

---

(١) فى تسميتهم معتزلة آراء منها: قول الحسن البصرى: اعتزل عنا واصل، ومنها أنهم اعتزلوا ما كان معروفاً حين ذاك من الآراء فى مرتكب الكبيرة، ومنها غير ذلك .

(٢) راجع المصدرين السابقين .

(٣) من مقال للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى فى دائرة المعارف الإسلامية العدد ١٤ من المجلد الخامس .

أهل السنة

أهل السنة هم أتباع أبى الحسن الأشعرى، وأبى منصور الماتريدى وقد سارا على طريقة السلف الصالح فى فهم العقائد، وجعلوا القرآن الكريم هو المصدر الذى يأخذون منه عقائدهم، وما اشتبه عليهم من آياته حالوا فهمها بما توجبه أساليب اللغة، ولا تنكره العقول، ولا يتجافى مع ما عرف من أصول العقائد؛ فإن تعذر عليهم ذلك توقفوا وفوضوا .

وليس بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا فى بعض المسائل اليسيرة كمفهوم الإيمان والإسلام، ومعنى القضاء والقدر، وغير ذلك مما يكون عادة بين أهل المذهب الواحد ولا يقتضى تخالفاً فى المذهب .

* * *

الفلسفة والتربية

لم ينقل العرب كتب فلاسفة اليونان إلى العربية إلا فى عصر المأمون على وجه العموم؛ ومن ثم نرى أن الفلسفة الإسلامية التى اعتمدت إلى حد كبير على الفلسفة اليونانية قد تأخر نضجها بالقياس إلى العلوم الأخرى، وحينما ترجموا كتب اليونان ودرسوها وتفهموها، برعوا فيها ونبغوا حتى صاروا أساتذتها .

آثار الفلسفة :

كان من آثار الفلسفة عند المسلمين :

١- أن ربط العلماء بين العلم والدين؛ وتناقشوا فى الإلهيات، ووضعوا أساس الفلسفة الإسلامية والروحية، وبنوا عليها علم الكلام؛ وأيدوه بها، لتقوى حجتهم فيما كان يدور بينهم من المجادلات المذهبية، وقد اضطرهم ذلك إلى الاشتغال بعلم المنطق والتأليف فيه .

٢- أن اعتقد بعض الخلفاء، وكثير من علماء المسلمين أن الفلاسفة يريدون تشكيك الناس فى عقائدهم فاضطهدوهم، ومع ذلك فقد كان بعض الخلفاء يشجعونهم على الجدل والمناقشة والبحث العقلى .

٣- ظهور كثير من الفلاسفة المسلمين الذين كان لهم أثر واضح فى الفكر الإسلامى، ثم فى الفكر الأوربى إبان نهضته .

٤- أنهم وضعوا مبادئ علم النفس - ولعل ذلك من أهم آثارهم - وبنوا عليها طرائقهم فى التربية والتعليم، التى مازال الكثير منها يساير أحدث أبحاث علم النفس وأصول التربية، ويكفى أن نعرف أن الغرض الأساسى من التربية الإسلامية هو: كمال النفس وتهذيبها، قال ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وإنا لنلحظ بوضوح اهتمام المسلمين بالتربية وعنايتهم بها، على أسس من علم النفس، مما كتبه علماؤهم وفلاسفتهم، مثل حجة الإسلام الغزالى الذى أورد فى كتابه « إحياء علوم الدين » . « قواعد ومبادئ يسير عليها المعلم والمتعلم، ويجد المتصفح لها

أنها سامية الغايات، فيها تحليل نفسى دقيق يدل على النضج وخصب القريحة، وعلى معرفته التامة بنفسية المعلم والمتعلم، ويروى المؤرخون أنها لا تقل عن النظريات الحديثة فى علم التربية (١) » .

وهذا مثل من توجيه الخلفاء لمن كانوا يقومون على تربية أبنائهم، نتبين منه مدى عنايتهم بالتربية، عناية تحقق الغرض منها، وتتفق إلى حد كبير مع أحدث طرق التربية .

كتب الرشيد لمعلم ولده الأمين فقال :

« يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع القرآن وبدئه، وامنعه من الضحكك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس الفقراء إذا حضروا مجالسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

مشاهير الفلاسفة

من أشهر فلاسفة الإسلام : الكندى، الفارابى، ابن سينا، إخوان الصفا الغزالى، ابن رشد .

الكِنْدى

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندى (ت ٨٧٣م) فاضل دهره، وواحد عصره، وأكبر فلاسفة المسلمين، وأسبقهم . يتصل نسبه بملوك كندة الأقدمين، فهو عربى الأصل؛ ولذلك سمى « فيلسوف العرب » (٢) .

---

(١) العلوم عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان ص ١٧٧ .

(٢) كان جده الأشعث بن قيس من أصحاب النبى ﷺ، وكان قبل ذلك ملكا على جميع كندة عظيم الشأن، وهو الذى مدحه أعشى بنى قيس بقصائده الأربع الطوال - طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص ٨١، إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٤٠ .

ولد بالكوفة ونشأ بها، فقد كان أبوه أميراً عليها للمهدى ثم للرشيد، ولما بدأ نبوغه اتصل بالمأمون، والمعتصم، والواثق، وكان له عندهم منزلة عظيمة مرموقة، ونبغ، وليس «فى الإسلام من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة - حتى سموه فيلسوفاً - غيره، وله فى أكثر العلوم تآليف مشهورة من المصنفات الطوال، والرسائل القصار، ما يزيد عددها على خمسين تأليفاً» [١] منها كتابه فى علوم الموسيقى؛ ومنها كتاب «آداب النفس» . وقد حذا فى تأليفه حذو أرسطوطاليس، وحاول فى فلسفته أن يجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو، وبرع فى الفلسفة، والطب، والمنطق، والهندسة، والفلك، وغيرها، ويتضح من مراجعة تآليفه فى هذه العلوم أنه كان متضلعاً فيها، متمكناً منها [٢] .

الفارابى

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى [٣] الحكيم الفيلسوف، الذى ازدانت به بطانة سيف الدولة الحمدانى بحلب، وكنت فلسفته تميل إلى المزج بين الأفلاطونية، والأرسطوطالية، والتصوف الإسلامى، مما حمل العلماء على أن يسمونه «المعلم الثانى [٤]»، وهو فيلسوف المسلمين بالحقيقة لا يشق غباره فى كثير من العلوم، وخصوصا فى صناعة المنطق التى «بذ جميع أهل الإسلام فيها، وأتى عليهم فى التحقق بها، فشرح غامضها، وكشف سرها، وقرب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة» [٥] .

---

(١) طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص ٨١، ٨٢ - وقد ذكرها صاحب الفهرست ص ٣٥٧ - ٣٦٥ ط الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .

(٢) راجع إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٣) نسبة إلى فاراب وهى ولاية وراء نهر سيحون فى تخوم بلاد الترك خرج منها جماعة من الفضلاء منهم الجوهرى مصنف الصحاح فى اللغة - معجم البلدان لياقوت .

(٤) كشف الظنون جـ ١ ص ١٤٤ .

(٥) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٤ .

هذا إلى مؤلفاته الكثيرة التى أربت على المائة (١) فى مختلف العلوم، وهى مؤلفات فريدة منها كتابه فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها وهو أشبه بقاموس علمى على شكل موسوعات العلوم «لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه (٢)» ، ومنها كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» وهو كتاب فرد فى موضوعه، غايته تبيان المدينة الفاضلة وإسعادها، ومنها كتابه «السياسة المدنية» وهو من قبيل علم الاقتصاد السياسى الذى يزعم العلماء المحدثون أنه من ابتكاراتهم، وقد كتب فيه الفارابي منذ أكثر من ألف سنة .

ومنها كتابه فى أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس، وهو يشهد له بالبراعة فى الفلسفة، والتحقق بفنون الحكمة، قال فيه صاعد الأندلسى . «لا أعلم كتابا أجدى على طالب الفلسفة منه» .

وقد برع فى الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه أحد فيها كما قدمنا، وكانت وفاته بدمشق فى كنف الأمير سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٣٩ هـ (٣) .

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا الحكيم المشهور أمره، المقدور قدره، ولد بقرية خرميثين (٤) ثم انتقل به والده إلى بخارى، وفيها حفظ القرآن الكريم، وهو فى سن العاشرة، وكانت تبدو عليه من صغره بوادر الذكاء والفطنة، ولم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى تعلم الكثير من العلوم كالفقه، والمنطق، والهندسة، والطبيعة، والفلسفة، والطب وغيرها .

---

(١) ذكر معظمها القفطي في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٤ .

(٣) طبقات الأمم ص ٨٦ ، القفطى ص ١٨٣ ، معجم البلدان لياقوت .

(٤) خرميثين: بفتح أوله وتسكين ثانية وفتح ميمه، وتسكين الياء المثناة من تحت وثاء مثلثة مفتوحة، وآخره نون – من قرى بخارى، معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٨٦، جـ٣ ص ٤٢٤

رغب ابن سينا فى الطب، وبرز فيه، وتعهد المرضى وانفتح عليه من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف مما حمل الأطباء أنفسهم على أن يقصدوه ليستفيدوا منه .

واتفق أن نوح بن منصور أحد ملوك الدولة السامانية مرض مرضا حار فيه الأطباء، فاستدعى ابن سينا فبرئ على يديه فقربه إليه، وكان نوح مغرما بالكتب، وله مكتبة عامرة بنفائس الكتب، فاستأذنه ابن سينا فى دخولها، واستوعب ما فيها قراءة ودرسا، « وأخذ فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره، وارتفعت منزلته . وتنقل فى بلاد خراسان وهو موضع الإعجاب، ومصدر الاستفادة بالتطبيب والتأليف[1]، وقد كان من أشهر الأطباء الذين أنجبهم العالم، وهو معروف فى أوربا باسم « أفسينا » .

وفى الحق إنه كان من المتفردين بسعة العلم، ورجاحة العقل، وكثرة التآليف . ومؤلفاته تزيد على المائة فى مختلف العلوم، وكان لها تأثير كبير فى نهضة أوربا؛ لأنهم نقلوا أهمها إلى لغة العلم عندهم يومئذ وهى اللاتينية، وذاعت مؤلفاته عندهم فى الطب، والفلسفة بعد ترجمتها .

ومن أشهر كتبه كتاب القانون الذى حوى أهم ما عرف إلى زمانه من علوم الطب، وكتاب الشفاء فى الطب وفى غيره، وكتاب الإشارات فى الفلسفة .

تقلبت به أحوال وجرت له أمور، ثم ولى الوزارة لشمس الدولة أبى طاهر بن فخر الدولة، ومات فى يوم السبت سادس شعبان سنة ٤٢٨ هـ عن ثمان وخمسين سنة، ودفن بهمذان[2] .

* * *

---

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ، تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان .

(٢) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٨٦ ، إخبار العلماء للقفطى ص ٢٢٨ .

إخوان الصفا

بعد أن نقل العرب علوم اليونان وغيرهم، ودرسوها وتناقلوها فى بيئاتهم ومجتمعاتهم العلمية، أصبح من يشتغل بالفلسفة متهما فى دينه فى نظر الكثير، حتى غدا مريدوها يتجنبون الظهور بها، أو ينكرونها وهم بها كلفون؛ لهذا كانوا يشتغلون بها سرًّا، وألفوا لذلك الجمعيات السرية، وكان منها :

جماعة إخوان الصفا :

وهى جماعة فلسفية سرية لها ميول باطنية سياسية، تكونت نواتها فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى، ثم نمت وصار لها فرع فى بغداد، وذكروا من أعضائها خمسة هم: أبو سليمان محمد بن معشر البستى ويعرف بالمقدسى، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى، وأبو أحمد المهرجانى، والعوفى، وزيد بن رفاعة[١] «وكانوا يجتمعون سرًّا، ويتباحثون فى الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص، هو خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان، والفرس، والهنود، وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام»[٢] وزعموا أنهم بمذهبهم هذا قربوا الطريق إلى الفوز برضوان الله؛ وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات . واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفسلفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية، والشريعة العربية فقد حصل الكمال[٣]» .

وقد وضع أعضاؤها إحدى وخمسين مقالة؛ خمسون منها فى خمسين نوعاً من الحكمة، ومقالة حادية وخمسون، جامعة لأنواع المقالات، على طريق الاختصار

---

(١) راجع إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٥٩ ، ويبدو من كلامه أن زيد بن رفاعة كانت له الصدارة فيهم .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان .

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٥٩ .

والإيجاز »[1] وبإمعان النظر فيها يظهر أن أصحابها وضعوها بعد البحث الدقيق، والنظر الطويل، وهى دائرة معارف ضخمة يفخر بها الفكر العربى، ومازال الكثير من أبحاثها ذا قيمة علمية إلى وقتنا الحاضر .

وكان لأبحاثهم هذه، وكتاباتهم تأثير كبير فى كثير من علماء المسلمين وفلاسفتهم، كالمعرى، وأبى حيان التوحيدى، وحجة الإسلام الغزالى، وغيرهم من مفكرى القرنين: الرابع، والخامس من الهجرة .

وقد انبرى الإمام الغزالى للرد عليهم بحججهم ومنطقهم بعد أن أحاط بعلوم عصره، وهاجمهم، هجوماً لا هوادة فيه، فى كتابيه: « مقاصد الفلاسفة » و« تهافت الفلاسفة » ، فخبت الفلسفة فى المشرق رغم لمعان وميضها فى المغرب والأندلس، بفضل ابن رشد وغيره من فلاسفه الأندلس .

الغزالى

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى، حجة الإسلام، ومن أكبر أعلام الفكر فى زمانه، ولد فى « طوس » إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ ، ومات أبوه وتركه صغيرا فى رعاية أحد الصوفية .

قرأ طرفا من العلم فى بلده، ثم ارتحل إلى جورجان، ثم إلى نيسابور حيث كان إمام الحرمين الجوينى، وظل فى جواره يتلقى عنه العلوم الدينية والعقلية إلى أن توفى سنة ٤٧٨ هـ ، ثم ولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٨٤ هـ ، وبلغ أوج مجده العلمى فى هذه المدرسة حتى كان يحضر دروسه ثلاثمائة من أكابر العلماء[2] ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ هـ . وسلك طريق الزهد .

تكاثر الفلاسفة فى عصره، وناهضوا رجال الدين، فتصدى لهم . واطلع على

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٢) مقدمة كتاب تهافت الفلاسفة للدكتور سليمان دنيا ص ٤٧ .

أقوالهم « وأمعن فيما يخالف الظاهر منها قواعد الدين، فوقع فى حيرة وتردد، وعمد إلى التحقيق بنفسه » ، وكان التعطش إلى درك الحقائق دأبه وديدنه من أول أمره، وريعان عمره، فاتجه إلى بحث الأقوال المتغايرة، وفحص الآراء المختلفة التى كانت تسود العالم الإسلامى فى زمانه، وسما بتفكيره، وجال فى كل مجال، اطمئناناً للنفس مما كان يساورها من حيرة وشكوك، وبحثا عن الحقيقة التى كان يتعطش إليها .

وقضى نحو عشرة أعوام – بعد أن انقطع عن التدريس بالمدرسة النظامية – فى الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية وهو يطالع ويبحث ويناظر؛ فظهر له أن الفلاسفة على ضلال، وحمل عليهم حملة شعواء صادقة بالتأليف والمجادلة والمناظرة، وكان يجادلهم ببراهينهم وحججهم؛ فسمى « حجة الإسلام » .

خرج الغزالى من دراساته وجولاته ومناظراته بثروة علمية عظيم، من أهمها كتابه « تهافت الفلاسفة » ؛ « فهو ثمرة محكمة، وتفكير طويل يبين المسائل الكبرى التى كانت محل خلاف بين الدين والفلسفة » ، وقد بلغ فيه أقصى حدود الشك، فسبق زعيم الفلاسفة الشكيين (دافيدهيوم) بسبعة قرون فى الرد على نظرية « العلة والمعلول » .

توفر على بحث الأخلاق فأجاد، وترك أبقى الآثار وأرفعها شأنا، وضمنها كتابه الشهير « إحياء علوم الدين » .

حقًّا لقد ترك الغزالى تراثاً علميًّا ضخماً يجعله فى الخالدين وهو كما قيل : مزاج من علوم شتى، أنضجها البحث الدقيق، وصقلها التفكير العميق، وهو لهذا يتمتع بمقام مرموق من علماء المشرق والمغرب، ويرى « دى بور » أنه أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام » ، وتوفى رحمة الله عليه فى بلده طوس سنة ٥٠٥ هـ[١] .

---

(١) راجع كتب الغَزالى، وكتاب العلوم عند العرب للأستاذ قدرى طوقان .

ابن رشد (١)

تأخرت الحركة العلمية فى الأندلس عن نظيرتها فى المشرق بنحو مائة سنة؛ لذلك لم يعان علماء الأندلس مجهوداً كبيراً فى ترجمة الكتب القديمة، وكان كل همهم أن ينقلوا عن علماء المشرق، ويأخذوا عنهم، وقد أخذوا عنهم فيما أخذوه أبحاثهم فى الفلسفة، ولم تكد كتب الفارابى، وابن سينا، والغزالى تصل إليهم حتى أحدثت حركة فكرية أساسها الانتصار للفلسفة، وبيان أنها لا تختلف مع أصول الإسلام فى شىء .

وفيلسوف الأندلس الأكبر هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد قاضى قضاة الأندلس وأشهر فلاسفة الإسلام .

ولد بقرطبة، ونشأ بها، وعرف بتحصيل العلوم، وفاق أهل زمانه فى كثير منها، وله قدم راسخة فى الفقه، والطب، والفلسفة، وغيرها .

وهو أعظم من شرح فلسفة أرسطو، وعرض أفكاره على وجهها الصحيح، وعلق على كتبه التى وصلت إلى العالم العربى فى شروح متغايرة، حتى أطلق عليه اسم (الشارع العظيم) ، وفى أحضان فلسفته بلغت فلسفة أرسطو رشدها، وعلى يديه خلصت من شوائب الخلط الذى وقع فيه بعض من سبقه من فلاسفة المسلمين .

وعلى شروحه الفلسفية بنى الأوربيون فلسفتهم فى القرون الوسطى، وكان لفلسفته وآرائه أثر كبير فى التطور الفكرى فى جامعة باريس، وغرب أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى، وكان من أثر تقديرهم لآرائه أن سموه «أفيروس» وأطلقوا على مذهبه «الأفيروسية» فكانت فلسفته حلقة الاتصال بين الفلسفة الإسلامية، والشعوب المسيحية فى أوربا .

---

(١) راجع كتاب الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد للدكتور محمود قاسم، كتاب الوجود والخلود للدكتور محمد بيطار، ودروس فى تاريخ الفلسفة للأستاذين الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، والأستاذ يوسف كرم .

وفلسفته هى آخر حلقة فلسفية ذات بال من حلقات تفكير المسلمين؛ فقد ألم بمؤلفاتهم وأبحاثهم، مما ساعده على التوفيق بين آرائهم وأفكارهم .

نصب نفسه مدافعاً عن الفلاسفة الذين هاجمهم الغزالى من قبل، فأعد كتاب « تهافت التهافت » ليرد به على كتاب « تهافت الفلاسفة » الذى وضعه الغزالى للطعن على الفلاسفة .

كما بذل جهدا عظيما فى إثبات أن الدين لا يناقض الفلسفة الحقة فى شيء، وله فى ذلك كتابان مشهوران طبعا أكثر من مرة، وهما :

١- كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة، والشريعة من الاتصال » .

٢- « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والعقائد المضلة » .

ومعظم مؤلفاته وهى الكثيرة قد اندثرت، ولو لم تترجم إلى لغات أخرى، لما عرفنا عنها شيئا . ومن أهم مؤلفاته :

كتاب « التحصيل »، الذى جمع فيه اختلاف أهل العلم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ونصر مذهبهم .

وكتاب « بداية المجتهد، ونهاية المقتصد » ، وهو كتاب قيم في الفقه المقارن، وقد طبع أكثر من مرة .

وكتاب « منهاج الأدلة » فى علم الأصول .

وكتاب « الكليات » فى الطب، الذى يقول فى آخره : « فهذا هو القول فى معالجة جميع أصناف الأمراض، بأوجز ما أمكننا وأبينه » .

وكتاب جوامع كتب أرسطوطاليس فى الطبيعيات والإلهيات .

وتوفى فى مراكش فى يوم الخميس ٩ من صفر سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) ثم حمل جسده إلى قرطبة حيث دفن فيها مع آبائه وأجداده .

* * *

العلوم الطبيعية عند العرب

العلوم الطبيعية وثيقة الصلة بالحياة البشرية، ولها شأن عظيم فى تقدم المدنية الحديثة التى تقوم على الاختراع والاكتشاف والاختبار .

وقد اعتنى بها الأقدمون، وكانت معروفة عند اليونان، ولهم فيها « مؤلفات عديدة ترجمها العرب، ولكنهم لم يكتفوا بنقلها بل توسعوا فيها، وأضافوا إليها إضافات هامة تعتبر أساساً لبعض المباحث الطبيعية، كما أنهم هم الذين وضعوا أساس البحث العلمى الحديث، وقد قويت عندهم الملاحظة، وحب الاستطلاع، ورغبوا فى التجربة والاختبار؛ فأنشأوا « المعمل » ليحققوا نظرياتهم، وليستوثقوا فى صحتها »[1] .

رأى الغزالى فيها :

ويرى الغزالى أن العلوم الطبيعية وما فيها من عجائب دليل صادق على الصانع الأكبر، والمدبر الأعظم؛ وأن الدين لا ينكرها ولايجافيها .

الطب

يقول أبو القاسم صاعد الأندلسى : « وكانت العرب فى صدر الإسلام لاتعنى بشيء من العلم إلا بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طرًّا إليها، ولما كان عندهم من الأثر عن النبى ﷺ فى الحث عليها حيث يقول : « يا عباد الله تداووا؛ فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحد وهو الهرم » ، وكان من أطباء العرب « الحارث بن كلدة الثقفى » – وكان على عهد النبى ﷺ – وقد تعلم الطب

(١) العلوم عند العرب، للأستاذ قدرى طوقان ص ٣١ ، ٣٢ .

بفارس واليمن، ومنهم «ابن الحبر» الكنانى طبيب ماهر كان فى أيام عمر بن عبد العزيز، وكان عمر يبعث إليه بمائه إذا مرض [١] .

ولما انتشر الإسلام، واطمأن المسلمون إلى مدائن الأرض التى فتحوها اتجهوا إلى العلوم المعارف فعنوا بالطب عناية فائقة، واستوحوا كتب من سبقهم من اليونان وغيرهم، ثم عدلوها وصححوها، وأضافوا إليها أبوابا جديدة لم يسبقهم إليها أحد؛ فتقدم الطب على أيديهم تقدما ظاهرا: عرفوا طب العيون، ونبغوا فيه، وكانوا فى القرن الحادى عشر الميلادى يعرفون علاج الماء الذى ينصب فى العين (الكاتاركتا) بالتحويل، أو استخراج البلورية [٢] وعرفوا الحميات ذات البثور كالجدرى والحصبة[٣] ، كما عرفوا أمراض الأطفال، وتفتيت الحصاة، وعلاج النزيف بصب الماء البارد، كذلك عرفوا الأمراض النفسية ودرسوا التشريح بتقطيع أجسام القردة، وهم أول من استعمل التخدير الذى يظن الناس أنه من الاكتشافات الحديثة، وذلك باستعمال نبات «الزؤان» أو «الشيلم» حتى يفقد المريض الوعى والإحساس .

وتكاد تكون سائر المعارف الطبية فى أوربا خلال عصر النهضة مأخوذة عن العرب، وأهم ما حققوه فى ميدان الطب يتعلق بالجراحة، ووصف الأمراض، وبالأدوية والصيدلة، وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة ظهر بعضها فى العالم الطبى بعد أن مضت عليها قرون من النسيان، مثل استعمال الماء البارد للحمى التيفودية .

والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل: خيار الشنبر، والسنى المكى، والراوند، والتمر هندى، والكافور، والكحول، والقلى وغير ذلك، كما هو مدين لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم مثل: الأشربة، وصنوف اللعوق، واللزق، والمراهم، والأدهان، والماء المقطر ... [٤] .

---

(١) طبقات الأمم ص ٧٤ .

(٢) محمد رسول الله للفونس إتبين دينيه ص ٣٧٧ .

(٣) لا يكاد الطب الحديث يزيد شيئا على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة – قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت جـ١ ص ٢٨٩ .

(٤) محمد رسول الله للفونس إتبين دينيه ص ٣٧٦ .

وقد وجهوا كثيراً من همتهم للبيمارستانات (المستشفيات) فشيدوها في بغداد، ودمشق والقاهرة وغيرها، وكانت أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب، وكان منها ما هو خاص ببعض الأمراض، ومنها ما هو عام لجميعها، ومنها المحمول الذي ينقل من مكان إلى مكان على نحو ما هو معروف في زماننا .

وهم أول من أنشأ مدرسة للصيدلة، وأول من أوجد مخازن الأدوية والصيدليات، وأقاموا الرقابة عليها وعلى الصيادلة .

وكان للأطباء نظام خاص يسيرون عليه، « ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس صناعة الطب إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض، ونال إجازة من الدولة » [١]، وقد نظم علي بن عيسى الوزير – الطبيب – جماعة من الأطباء يطوفون في مختلف البلاد ليعالجوا المرضى، وكان هناك أطباء يذهبون في كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها، وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة، ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية » [٢] .

ولم يقتصر النبوغ في الطب على الرجال فقط، فقد نبغ من النساء عدد غير قليل كأخت الحفيد بن زهر الأندلسي، وابنتيها اللتين نبغتا في الطب، وبخاصة في أمراض النساء .

ومن أشهر أطبائهم علي بن عيسى، وهو أبرز أطباء المسلمين، وقد ظل كتابه: « تذكرة الكحالين » يدرس في أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأبو بكر محمد الرازي الذي ظلت كتبه في الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري من المراجع الأساسية التي اعتمد عليها الأطباء في غرب أوربا زمنا طويلا، وكتابه في أمراض الأطفال هو الأول من نوعه، وقد ترجمت أكثر كتبه إلى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات .. وقد ظلت كليات الطب في أوربا تعتمد على كتبه زمنا طويلا » [٣] .

(١، ٢) قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت ص ١٩٠ .

(٣) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٥١٧ .

وسابور بن سهل صاحب كتاب : الأقربازين (علم الأدوية) الذى كان معمولا به فى البيمارستانات، والصيدليات وهو مكون من اثنين وعشرين بابا .

ويوحنا بن ماسويه الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة .

وابن سينا وهو أشهر أطباء المسلمين، وأبعدهم أثراً، وكتابه « القانون » اعتبره الأوربيون خير ما انتجته القريحة العربية، فهو قاموس فى الطب والصيدلية، وابن سينا كما قال المرحوم الدكتور محمد عبد الخالق – أول من كشف الطفيلية الموجودة فى الإنسان، المسماة بالإنكلستوما، وكذلك المرض الناشئ عنها، المسمى بالرهقان أو الإنكلستوما «وقد نقلت كتبه إلى أكثر لغات العالم، وظلت مرجعاً عامًّا لأطباء العالم، وأساساً للمباحثات الطبية فى جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون، وطبعت عدة مرات وكان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر» [١] .

* * *

---

(١) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٥١٨ وراجعه من ص ٥١٥ – ٥٢٣ ، كتاب قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت جـ٢ م٤ ص١٨٩ – ١٩٢ ، والمجتمع العربى للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وزملائه ص ٤٨٠ – ٤٨٧ ، والعلوم عند العرب للأستاذ قدرى طوقان ١٤ – ٢٤ .

الفلك

برع العرب فى علم الفلك، وتقدموا فيه تقدما فاقوا به أساتذتهم، وظهر فضلهم فيه؛ فقد جمعوا بين آراء الفرس، والهند، والكلدان، واليونان، وغيرهم، وأضافوا إليها إضافات هامة، وحفظوا فى نقلهم لكتب الفلك اليونانية الكثير من المؤلفات التى ضاعت أصولها، «وكان علم الفلك يدرس فى حماس فى مدارس بغداد، ودمشق، وسمرقند، والقاهرة، وفاس، وطليطلة، وقرطبة، وغيرها»[١] .

وأقاموا له المراصد العديدة التى انتشرت فى مختلف البلاد الإسلامية من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى، وكان من أهمها مرصد بغداد الذى دام ازدهاره سبعة قرون من ٧٥٠ - ١٤٥٠ م [٢] وقد توصلوا عن طريق هذه المدارس، وتلك المراصد إلى معلومات واكتشافات هامة، منها :

إدخال خطوط التماس فى الحساب الفلكى منذ القرن العاشر الميلادى، ووضع جداول لحركة الكواكب، وتحديد سمت الشمس تحديدا دقيقا، وتدرجه فى النقص، وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرا صحيحا، ووضع أول تحديد صحيح لمدة السنة، وإثبات ما فى أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام، واستكشاف عدم التساوى القمرى الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير [٣] .

---

(١) محمد رسول الله للفونس إتبين دينيه ص ٣٧٥ .

(٢) حضارة العرب للأستاذ جوستاف لوبون ص ٤٨١ ، يقول صاعد الأندلسى: ولما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون ... وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف علماء وقته عى كتاب «المجسطى» وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه بعثه شرفه، وحداه نبله على أن جمع علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات، وأن يقيسوا بها الكواكب، ويتعرفوا بها أحوالها كما صنعه «بطليموس» ومن كان قبله ففعلوا ذلك، وتولوا الرصد بمدينة «الشماسية» من بلاد دمشق من أرض الشام سنة أربع عشرة ومائتين، فوقفوا على زمن سنة الشمس الرصدية،ومقدار ميلها، وخروج مركزها، ووضع أوجها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال باقى الكواكب من السيارة والثابتة ...) ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) محمد رسول الله للفونس إتبين دينيه ص ٣٧٥، حضارة العرب للأستاذ جوستاف لوبون ص ٤٨١ .

والتوصل إلى نظرية دوران الأرض، وتحسين الاسطرلاب [١] واختراع آلة الرصد [٢] « التلسكوب »، والآلة المعروفة بالمثقال التي يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال، كما حددوا في جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة في المساجد تحديدا دقيقا، إلى كثير من المعلومات الفلكية الهامة.

وبذلك أضافوا إلى الفكر الإنساني معلومات فلكية جديدة لم تكن معروفة من قبل، وإلى جانب هذه الاكتشافات العظيمة العديدة صححوا كثيرا من الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها الإغريق، وبهذا وذاك استفادت أوربا والحضارات الحديثة فوائد ذات بال في علم الفلك، مما نشاهد آثارها اليوم، وما زال علم الفلك إلى الآن مليء بالاصطلاحات العربية.

ومن أشهر علمائهم في الفلك :

أبو جعفر محمد البتاني (١٠٤٨م) الذي صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بطليموس السكندري، ونهض بالفلك، ووصل فيه إلى نتائج جديدة، وكتابه الزيج[٣] الصابي كان له أثر كبير في المشرق الإسلامي، وفي غرب أوربا حتى مستهل القرون الحديثة، وقد ترجم إلى اللاتينية عدة مرات، وهو دائرة معارف ضخمة [٤] ، « ولا يعلم أحد من الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها »[٥]، وقد عده الفلكي الشهير « لالاند » من طبقة الفلكيين العشرين الذين هم أشهر علماء الفلك في العالم [٦] .

وأبو الريحان البيروني (٩٨٤م) الذي يمثل العالم الإسلامي في أحسن صورة له، وهو أعمق المفكرين المسلمين في العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية، وله فيها بحوث

---

(١) الاسطرلاب : آلة يقيس بها الفلكيون ارتقاء الكواكب - المنجد في اللغة، وانظر مادة الاسطرلاب في دائرة المعارف الإسلامية العدد الثاني من المجلد الثاني، وقد وصل من العرب إلى أوربا في القرن العاشر الميلادي - قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت ص ١٨٣ .

(٢) يصفه أبو الحسن الذي اخترعه بأنه أنبوب مثبت في طرفيه عدسات.

(٣) الزيج جداول لحركة الكواكب.

(٤) من مقال للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتاب : « دراسات في المجتمع العربي » ص ٤٧٠ .

(٥) طبقات الأمم لأبي القاسم صاعد الأندلسي ص ٨٨، أخبار الحكماء للقفطي ٨٤ .

(٦) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٤٨٣ .

عظيمة مبتكرة، ومؤلفات قيمة منها كتاب : « القانون المسعودى » فى الهيئة والنجوم، وكتاب : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » فى تقاويم وعادات الشعوب القديمة، وهو دراسة نزيهة إلى درجة غير معقولة، وقد بحث فى بعض مؤلفاته نظرية دوران الأرض حول محورها، ولم يكن يخالجه أدنى شك فى كرية الأرض، ووصل إلى تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض [١] ، وحدد بطريقة بارعة مقدار محيط الكرة الأرضية .

وأبو الوفاء (٩٨٨م) « ومما شاهده هذا العالم الفلكى الاختلاف القمرى الثالث ... كما ظهر من كتابه الخطى الذى عثر عليه « سيديو » منذ بضع سنوات ... والحق أن هذا الاكتشاف الذى عزى بعد أبى الوفا بستمائة سنة إلى « نيخو براهه » – على غير حق – عظيم للغاية » [٢] .

* * *

---

(١) قصة الحضارة ص ١٨٤ – ١٨٦ ، وكتابه « تاريخ الهند »أعظم مؤلفاته ولم يؤلف مثله فى لغة ما غير العربية . وقد وضعه بعد أن درس أحوال بلاد الهند وعاداتهم .

(٢) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

الكيمياء

الكيمياء من أهم العلوم التى عنى بها العرب، ولهم فيها فضل كبير واكتشافات مهمة؛ فهم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم وملاحظاتهم الدقيقة، ومستحضراتهم الهامة .

يقول العلامة ول ديورانت : « يكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علما من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها فى الميدان الذى اقتصر فيه اليونان – على ما نعلم – على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة» .

ولا أدل على فضلهم عليها من آثارهم فيها؛ فهم الذين اكتشفوا كثيرا من المركبات الكيماوية التى بنيت عليها الكيمياء الحديثة كالكحول، وزيت الزاج (الحامض الكبريتى) وماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب (الحامض النتروهيدروكلوريك) والبوتاس، وروح النشادر، وملحه، وملح الطرطير، وملح البارود (نترات البوتاس) والزاج الأخضر (كبرتات الحديد) والزرنيخ، والسليمانى (كلوريد الزئبق) وغير ذلك .

وأقدم علماء العرب، وأكثرهم شهرة فيها هو جابر بن حيان (٧٦٥م) الذى ألف كتبا كثيرة فى الكيمياء، وقد نقل عدد غير قليل منها إلى اللغة اللاتينية، وكتابه المعروف بالاستتمام نقل إلى الفرنسية فى سنة ١٦٧٢م مما يدل على دوام نفوذه العلمى فى أوربا مدة طويلة .

ويتألف من كتبه موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء فى عصره « وقد اشتملت كتبه على بيان كثير من المركبات الكيمياوية التى كانت مجهولة قبله، كماء الفضة، وماء الذهب المهيمن اللذين لا نتصور علم الكيمياء بغيرهما، والبوتاس، وروح النشادر، وملحه، وحجر جهنم (نترات الفضة)

والسليمانى، والراسب الأحمر، وهو أول من وصف فى كتبه التقطير، والترشيح، والتصعيد، والتبلور، والتحويل، وهى من أهم أسس الكيمياء وأسرارها .

ومن أشهرهم أيضاً الرازى (٩٤٠م) وهو أول من وصف زيت الزاج والكحول، وخلف أكثر من مائتى مؤلف فى الطب والكيمياء والهندسة والمنطق وغيرها، ولا يزال باقيا منها إلى الآن بضعة وعشرون مؤلفا، من أهمها كتاب الحاوى وهو أجل كتبه وأعظمها [١] .

* * *

---

(١) راجع حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ٥٠٣ – ٥٠٥ ، قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت جـ ١٣ ص ١٨٧ ، آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان جـ ٢ ص٢١٧ –٢١٩ .

الفيزياء (علم الطبيعة)

نهض العرب بالفيزياء نهضة واضحة، وأضافوا إليها معلومات جديدة هامة ولا سيما فى البصريات . ومن آثارهم فيها أنهم عينوا الكثافة النوعية لكثير من أنواع الحجارة الكريمة، وشرحوا أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية، والآبار الارتوازية بنظرية الأوانى المستطرقة، واشتغلوا بالعدسات، وبرعوا فى البصريات، وأجروا تجارب لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته، وكتبوا فى الضوء، والمرايا المحرقة كتابات قيمة، إلى غير ذلك من الأبحاث الى أفاد منها العلماء من بعدهم .

ومع أن معظم مؤلفات العرب فى الفيزياء قد ضاعت، ولم يبق منها إلا القليل فإنه يمكننا أن نقف من هذا القليل على مدى تقدمهم فى هذا العلم، وما أفادته أوربا من تقدمهم فيه (١) .

واشتهر بالفيزياء من العرب كثيرون، منهم :

أبو الريحان البيرونى الذى «عين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة، ووضع القاعدة التى تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذى يزيغه ... وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية، والآبار الارتوازية بنظرية الأوانى المستطرقة» (٢) .

والحسن بن الهيثم وهو أشهرهم (١٠٢٠م) وله مؤلفات وأبحاث فى الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة، وفى الضوء، وفى المرايا المحرقة واشتغل بالعدسات والبصريات، وابتكر طريقة صحيحة لإيجاد البعد البؤرى، وكذلك قام بأبحاث أخرى خاصة بما يسمى الغرفة المظلمة أو (آلة التصوير) التى كان هو أول من استخدمها، ويعزى إليه أيضاً اكتشاف التمييز بين الظل وشبه الظل . وقد نقل روجر بيكون نتائج

---

(١) حضارة العرب للأستاذ جوستاف لوبون ص ٥٠٠ .
(٢) قصة الحضارة جـ١٣ ص ١٨٦ .

كثير من هذه الدراسات إلى علماء الغرب، كما ترجمت رسالته عن المرئيات إلى اللاتينية والإيطالية، واتخذها كيبلر مرجعاً اعتمد عليه فى أبحاثه [1] .

والخازن المصرى (١٠٧٨م) صاحب الأبحاث القيمة فى المرايا وحرارتها، ومحل الصور الظاهرة فيها، وانحراف الأشياء وجسامتها الظاهرة، والذى وصل إلى حل لبعض مسائل فى الضوء مثل : «إذا علم موضوع نقطة مضيئة ووضع العين، فكيف نجد على المرايا الكرية والأسطوانية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها» [2] .

وكتابه عن البصريات الذى نقل إلى اللغة اللاتينية والإيطالية استعان به كيلبر كثيرا فى كتابه عن البصريات، وفيه فصول ممتعة عن حرارة المرايا، ومحل الصور الظاهرة فيها، وانحراف الأشياء وجسامتها الظاهرة، وقد عد مسيو «شاسل» وهو الحجة فى هذه الموضوعات هذا الكتاب «مصدر معارفنا للبصريات» [3] .

وروبرت جوستست (١٢٥٣م) أسقف لنكولن الذى يعتبر المثل البارز لعلماء الطبيعة فى غرب أوربا فى أوائل القرن الثالث عشر – نظراً لما كتبه عن البصريات والعدسات والمرايا – استقى معلوماته باعتراف الباحثين الأوربيين من ترجمة لاتينية لكتاب الخازن المصرى، فمن الخازن أخذ علماء أوربا مثل جروستسبت ومعاصره بول وتلو، وعن هذين الأخيرين أخذ روجر بيكون؛ فالخازن كان الأستاذ الأكبر لكثير من العلماء الأوربيين فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة [4] .

* * *

(١) راجع كتاب الحضارة العربية تأليف . ى. هل ترجمة الدكتور إبراهيم العدوى ص١٠٩

(٢) حضارة العرب للأستاذ جوستاف لوبون ص ٥٠١ .

(٣) المرجع السابق.

(٤) من مقال للدكتور سعيد عاشور فى المجتمع العربى ص ٤٧٦ .

الرياضيات

وجه العرب جانباً كبيراً من اهتمامهم بالعلوم إلى الرياضيات، فذاعت دراستها لديهم ونبغوا فيها، وتقدموا فى أبحاثها تقدماً سريعاً جوهريا، وأضافوا إلى ما نقلوه عن اليونان والهنود الكثير مما لم يكن معروفاً من قبل .

وقد استخدمت أوربا فى حسابها (أعدادا) يرجع فضل معرفتها بها إلى العرب، والطرق الحسابية المستعملة فى الحياة اليومية يرجع الفضل فيها إليهم كذلك .

« والثابت أن الغرب لم يعرف (الصفر) قبل القرن الثانى عشر الميلادى بينما تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه فى القرن الثامن، وكانوا يرسمونه حلقة : وقد جاء ذلك على لسان شاعرهم مشيراً إلى استخدام الحلقة للدلالة على عدم وجوده :

لتعترضن اسمى لدى العرض حلقة وذلك إن كان الإياب يسير

والصفر يعتبر من أخطر النظريات التى اهتدى إليها العقل البشرى فى الرياضيات، وفضل العرب فيه عظيم، يقول المؤرخ « أير » : « إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التى قدمها المسلمون إلى غرب أوربا » والواقع أن علامة الصفر خطوة عظيمة الأهمية جداًّ فى تصحيح الحساب .

قد استعمل العرب (الصفر) للدلالة على (لا شىء) كما يبدو من بيت الشعر الذى جاء فى قصيدة لحاتم :

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرنى وأن يدى مما بخلت به صفر [1]

« وكما ساعدهم نظام الأعداد العربية على إدراك الكمال فى الطرق الأولية

---

(١) راجع أثر الشرق فى الغرب للمستشرق الألمانى جورج يعقوب ص ٢٢ ، ٢٤ .

للحساب فإن معرفتهم خصائص الأعداد الفردية والزوجية، وما بينهما من العلاقات ساعد على استخراج الجذور التربيعية والتكعيبية »[١] .

وقد تقدم علم الجبر على أيديهم تقدما ظاهراً حتى قيل : إنهم هم الذين اخترعوه، وما زال محتفظاً باسمه العربى فى كافة اللغات الأوربية، وإذا كان بعض الباحثين يميل إلى أنهم ليسوا هم الذين وضعوا أصوله فإنه يكفيهم أن يكونوا هم الذين اكتشفوا هذه الأصول، وأضافوا إليها، وأوجدوا منها علماً حقيقيًّا، ثم طبقوه على الهندسة .

وكذلك كان أمرهم فى الهندسة؛ فإنهم لم يقتصروا على معلومات اليونان؛ وإنما جددوا، وزادوا زيادات لم تعرف من قبلهم؛ فهم الذين أدخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات، وكان لهذه الخطوة أهمية عظمى فى الرياضيات حتى اعتبرها علماء الرياضة ثورة علمية خطيرة، كذلك أقاموا الجيوب مقام الأوتار، وحلوا المعادلات المكعبة، وتعمقوا فى أبحاث المخروطات، واشتغلوا فى أعوص المسائل الهندسية كقسمة الدائرة إلى سبعة أقسام إلى غير ذلك من الأبحاث الرياضية، ولا ريب فى أن هذه المعلومات التى ابتكرها العرب هى التى جعلت العلوم الرياضية تتبوأ أهميتها فى الحياة .

يقول العلامة ى . هل: « ومن تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتماس، ولم يكن فى استطاعة بيورباخ ورجيونانوس وكوبرنيق أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب، وما ساهموا به فى ميدان الرياضيات؛ ذلك أن العرب أحبوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال فى علم الجوداسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط، واستخدام العرب هذا العلم أيضاً فى تصميم مجارى المياه »[٢] .

---

(١) الحضارة العربية للعلامة ى . هل تعريب الدكتور إبراهيم العدوى ص ١٠٨ .
(٢) الحضارة العربية ص١٠٨ .

وقد اشتهر بالرياضيات كثير من علمائهم، منهم :

محمد بن موسى الخوارزمي (٨٥٠م) وكان منقطعاً إلى خزانة كتب الحكمة للمأمون . وألف كتب منها كتاب «الزيج الأول» وكتاب «العمل بالاسطرلاب» وكتاب «التاريخ» وكتاب «الجبر والمقابلة» (١) الذى ألفه بتكليف من الخليفة المأمون، وقد نقله إلى اللاتينية روبرت الشترى سنة ١١٤٥م واقتبس منه الأوربيون معارفهم الأولى فى علم الجبر ، وقد ظل يدرس فى المدارس والجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر (٢) ؛ وبذلك قدم العرب علماً جديداً إلى أوربا (٣) . وابن الهيثم المصرى الذى ألف كتاباً جمع فيه الأصول الهندسية والعددية وأدخل فى الجبر والحساب طرقاً جديدة فى استخراج المسائل الحسابية من جهتى التحليل والتقدير العددى، وقام بتجارب على المرايا الكرية والمثلثة، وابتكر طريقة صحيحة لإيجاد البؤر العددى، ونقل روجربيكون نتائج هذه الدراسات إلى طلبة الغرب، وكذلك قام بأبحاث أخرى خاصة بما يسمى الغرفة المظلمة أو (آلة التصوير) التى كان هو أول من استخدمها، ويعزى إليه أيضاً اكتشاف التمييز بين الظل وشبه الظل .

وقد ترجمت رسالة ابن الهيثم عن المرئيات إلى اللغة اللاتينية والإيطالية واتخذها كيبلر مرجعاً اعتمد عليه فى أبحاثه» (٤) .

«وبنو موسى بن شاكر اشتغلوا فى استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها أحد من الأولين، كقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية» (٥) .

* * *

---

(١) راجع كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) هيأ الله لهذا الكتاب القيم الأستاذين: الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى أحمد فنشراه عن مخطوط باكسفورد فى مكتبة بودلين، وقد علقا عليه وأوضحا ما استغلق من بحوثه وموضوعاته – راجع كتاب العلوم عند العرب للأستاذ قدرى طوقان ص ٩٧ .

(٣) من مقال للدكتور سعيد عاشور فى المجتمع العربى ص ٤٦٧ .

(٤) الحضارة العربية للعلامة ى . هل ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٥) تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان جـ٣ ص ٣٤٩ .

العلوم الاجتماعية
التاريخ

اهتم العرب بالتاريخ، وعنوا به عناية فائقة ظهرت فى مؤلفاتهم التى وصلت إلينا، «وهى كثيرة جداً حتى إن حاجى خليفة وحده عد فى كتاب كشف الظنون ألفا ومائتى مؤرخ عربى» (١) .

وكان أهم حافز لهم على هذه العناية هو حرصهم الشديد على معرفة سيرة النبى ﷺ ، والإلمام بأخبار الفتوح التى كانت فى عهده، وعهد خلفائه من بعده .

وكانت الرواية بالسند هى طريقتهم فيما يتصل بالرسول صلوات الله عليه من أقواله وأفعاله وصفاته، وقد نهج المؤرخون فى بادئ الأمر هذا النهج أيضاً فى ذكرهم لحوادث التاريخ كما فعل ابن جرير الطبرى، والحافظ ابن كثير وغيرهما .

ثم رأوا الاكتفاء بذكر الحوادث بلا إسناد مرتبة فقط على حسب السنين كما فعل ابن الأثير، وأبو الفداء .

ولما اتسعت الدولة الإسلامية، واستبحر العمران افتنوا فى تأليفهم؛ فمنهم من ألف فى السير، ومنهم من أرخ لدولة أو لمدينة، ومنهم من كتب فى التاريخ العام، ومنهم من صنف فى الطبقات، إلى غير ذلك .

وأشهر من كتب فى السيرة محمد بن إسحاق (ت١٥٠ هـ) وسيرته وإن كانت قد فقدت، إلا أنها وصلتنا مهذبة عن طريق عبد الملك بن هشام (ت٢١٨هـ) وعرفت باسم «سيرة ابن هشام» .

وممن ألف لدولة، المقريزى (ت٨٤٥ هـ) الذى يعد كتابه أحسن مصدر عن مصر.

---

(١) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٤٧٧ .

وممن كتب فى تاريخ المدن، أبو بكر الخطيب البغدادى (ت٤٦٣ هـ) وكتابه تاريخ بغداد من أعظم الكتب فى موضوعه، وقد استوعب فيه ما يتصل بمدينة بغداد، وبخاصة تاريخ علمائها، وابن كثير صاحب كتاب «تاريخ مدينة دمشق) وهو موسوعة تاريخية لا مثيل لها فى بابها .

وممن ألف فى التاريخ العام ابن جرير الطبري (ت٣١٠ هـ) وتاريخه أوسع وأعظم ما ألف فى تاريخ الدولة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، والمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) الذى جمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد، وله عدة مؤلفات من أشهرها كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ومسكويه (ت٤٢١ هـ) وكتابه (تجارب الأمم) من أحسن كتب التاريخ، ويمتاز مسكويه بأنه لم يجعل همه فى كتابه جمع الحوادث فقط، بل كان له تدبر ونظر فيما يكتب .

وابن خلدون (٨٠٨ هـ) وكتابه: «المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر» من كتب التاريخ القيمة التى يعتد بها؛ فهو يمتاز بأنه مؤرخ نقادة، وقد صدر تاريخه بمقدمته التى وضع فيها مبادئ النقد التاريخية الرائعة، والتى تعتبر بحق أول كتاب من نوعه فى فلسفة التاريخ والاجتماع .

ومن أشهر من كتب فى التراجم حاجى خليفة (١٦٥٨م) صاحب كتاب «كشف الظنون» وهو معجم فريد لأسماء نحو ١٨٫٥٠٠ كتاب، وألحق فيه اسم كل كتاب منها باسم مؤلفه وسنة وفاته .

* * *

---

(١) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٤٩١ ، ٤٩٩ .

الجغرافيا

أسهم العرب فى تقدم علم الجغرافيا بنصيب موفور، يدل لذلك مؤلفاتهم الكثيرة فيه، وما فيها من معلومات لم تكن معروفة من قبل .

وإذا كان اليونان قد سبقوهم فى ذلك فإنهم هم الذين حفظوا معارف اليونان ودرسوها، ثم لم يلبثوا - كعادتهم - أن فاقوهم فيها، فصححوا ما نقلوه عنهم، وأضافوا إليه الكثير مما لا عهد لليونان ولا لغيرهم به، وقد ترجم بعض تراثهم فى ذلك إلى اللاتينية فى العصور الوسطى، وفى الحق إن أوربا مدينة للعرب فى معرفة المعلومات اليونانية فى الجغرافيا، فهى لم تعرف هذه المعلومات إلا من الكتب العربية .

وقد ساعد العرب على هذا التفوق حبهم للسياحة والرحلات، فجابوا البلاد من الصين إلى مجاهل أفريقيا، وأقاموا علاقات تجارية واسعة مع بلاد لم يسمع بها الأوربيون، أو شكوا فى وجودها .

ومن طلائع هؤلاء الرائدين التاجر سليمان، الذى أبحر من سيراف على الخليج الفارسى، وجاوز المحيط الهندى . وبلغ شواطئ الصين، ثم كتب رحلته فى سنة ٨٥١م، وكتابه هو أول مؤلف نشر فى بلاد الغرب عن بلاد الصين وقد نقل إلى اللغة الفرنسية (١) .

ثم جاء من بعده المسعودى (٣٤٦هـ) الذى قضى خمسا وعشرين سنة من حياته فى الطواف فى المملكة الإسلامية، وفى الممالك المجاورة لها كبلاد الهند وقيد ما شاهده فى تآليفه المهمة التى يعد أشهرها كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذى قال فيه ابن خلدون: «إنه شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده شرقاً وغرباً، وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول؛ فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من أخبارهم عليه» .

وآخر رحالة عربى يعتد به، ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) الذى بدأ رحلاته من مدينة طنجة، وطاف فى جميع أنحاء العالم القديم تقريباً، وكتب رحلته وهى رحلة

---

(١) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص ٤٩١ ، ٤٩٩ .

عظيمة تكفى لتمجيد من يقوم بها فى الوقت الحاضر، وقد ترجمت إلى أكثر من لغة، وطبعت فى باريس ولندن، وبرلين، وطبعت فى مصر سنة ١٢٨٧ هـ .

ويكفى فى معرفة التقدم الذى تم على يد العرب، فى هذا العلم أن نقابل بين الأمكنة التى عينها الإغريق والأمكنة التى عينها العرب، فإن هذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذى حققه العرب يقرب من الصحة بما لا يزيد عن بضع دقائق، وأن خطأ الإغريق فيه بلغ درجات كثيرة، حتى إن بطليموس السكندرى بلغ خطؤه فى تقدير البحر الأبيض المتوسط أربعمائة فرسخ .

على أن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافيا قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس - الذى كانوا يعولون عليه كثيراً فى تقويم البلدان - لأسباب غير التى دعت اليونان إلى وضعها، ومنها :

١- الحج، وهو فريضة على كل مسلم مستطيع؛ فالمسلمون على اختلاف بلادهم يحجون مكة للنسك، وهو يفتقر إلى معرفة الطرق والمنازل .

٢- طلب العلم، وهو فريضة أيضاً على كل مسلم ومسلمة؛ فكان المسلمون يرحلون إلى سائر الأمصار الإسلامية، والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق .

٣- وضع الخراج على الأقاليم التى فتحت فى صدر الإسلام، وهو مدعاة لمسحها ومعرفة عامرها من غامرها، وأنواع غلاتها؛ لما فى ذلك من مصلحة ظاهرة لبيت مال المسلمين (١) .

كانت هذه الأسباب وغيرها باعثاً على الكتابة فى علم الجغرافيا وكانت أكثر الكتب الجغرافية التى كتبت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة فى الوصف الجغرافى للأقاليم الإسلامية .

والواقع أن كتب العرب فى الجغرافيا مهمة للغاية، لهذا لا نعجب أن كان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم فى أوربا قروناً كثيرة .

واشتهر بعلم الجغرافيا كثير من علماء العرب، وأبرزهم الشريف الإدريسى، وقد ألف فى سنة ١١٥٤م كتابه : « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وهو كتاب عظيم اشتمل على معلومات من سبقه، وعلى ما شاهده

---

(١) راجع كتاب آداب اللغة العربية للأستاذ جورجى زيدان جـ٢ ص ٢٠١ .

بنفسه، وماسمعه من السائحين قبله، وهو مزود بأكثر من أربعين مصوراً جغرافيًّا، ومصوره عن منابع النيل يثبت أن معارف العرب فى جغرافية أفريقيا أعظم مما كان يظن، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية، وتعلمت منه أوربا علم الجغرافيا فى القرون الوسطى، وظلت تعول عليه أكثر من ثلاثة قرون .

ومنهم ياقوت الحموى (٦٢٦ هـ) صاحب كتاب : « معجم البلدان » وهو معجم وموسوعة جغرافية ضخمة إلى جانب ما فيه من معارف تاريخية وأدبية عظيمة .

وقد ذكر أبو الفدا صاحب حماة (٧٣٢ هـ) أسماء ستين عالماً جغرافيًّا مشهوراً ممن ظهروا قبله .

وهكذا يتجلى فضل العرب فى هذا العلم يقول العلامة جوستاف لوبون :

« ويكفى أن نشير مع ذلك إلى ما حققه العرب فى الجغرافية لإثبات قيمتهم العالية؛ فالعرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعييناً مضبوطاً فى الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التى كان يشك الأوربيون فى وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التى جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قروناً كثيرة [(١)] .

* * *

(١) حضارة العرب ص٤٩٩ ، وراجع الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للأستاذ آدم متز جـ٢ ص ١ - ١٢ .

الاجتماع

علم الاجتماع يبحث عن أحوال الجماعات والشعوب، وما تتصف به فى محافلها ومعايشها، وأعيادها ومواسمها، وما إلى ذلك .

أو هو يبحث عن عوامل تكوين الشعوب والأمم وتطورها ونضجها وقوتها، ثم ما يعتريها من عوامل الضعف والانحلال وما يتصل بذلك .

وسواء أردنا من علم الاجتماع المعنى الأول أو الثانى، فإن العرب لهم فيه القدح المعلى؛ فكتب الرحلات والخطط مليئة بذكر أحوال الأمم، ووصف معايشها وعاداتها وطرائفها فى ذلك .

وأشهر من كتب فى هذا الميدان المسعودى، فى كتاب : « مروج الذهب » إذ شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده، وذكر نحلهم وعوائدهم، وتعرض لكثير من طرائفهم .

ثم جاء من بعده ابن حوقل الذى يقول : إنه وصف أقاليم البلدان، وبين الغامر منها والعامر، وما لها من قوانين، ووجوه الأموال والجبايات والمجالب والتجارات .

والبيرونى الذى رافق السلطان محمود الغزنوى فى حملته على بلاد الهند سنة ١٠٠٠م ونشر ما شاهده فى بلاد السند وشمالى الهند .

ووصف ابن بطوطة فى رحلته الشهيرة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ماشاهده من أحوال الشعوب التى زارها وعاداتهم .

والمقريزى (٨٤٥هـ) فى خططه، وصف الأعياد والمواسم والمحافل فى مصر، وبخاصة فى زمن الفاطميين .

وابن خلدون فى مقدمته الشهيرة، أربى على الغاية فى عوامل تكوين الجماعات وتطورها، وما يعتريها من عوامل القوة والضعف، والبقاء والانحلال، وقد سبق أوربا فى كثير مما عرفته الآن من نظريات، ومن ثم كان هو المؤسس لعلم الاجتماع .

❊ ❊ ❊

الفصل العاشر

أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوربية

وسائل نشر الحضارة الإسلامية فى أوربا

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

وسائل الحضارة الإسلامية فى أوربا

اتفق الباحثون على أن الحضارة الإسلامية كان لها أثر بالغ فى الحضارة الأوربية؛ ففى الوقت الذى كانت فيه أوربا لاتزال تضطرب فى ظلام العصورالوسطى كان المسلمون قد بسطوا نفوذهم على معظم بقاع العالم المتحضر القديم، من حدود الصين إلى جبال البرانس، وورثوا مع فتحهم فلسفة اليونان، وأفادوا من ثقافة الفرس والهند والصين والثقافة العربية الأصيلة، وأفسحوا صدورهم لهذه الثقافات والحضارات المختلفة، وأقبلوا عليها، وتولوها بالرعاية والعناية والبحث والدرس،والتصحيح والتهذيب، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها، وتميزت عما عداها من الحضارات السابقة .

والحضارة العربية لا ينتقصها ولا يقلل من شأنها أنها أفادت من الحضارات التى سبقتها، فذلك شيء طبعى؛ إذ إن سنة التطور الحضارى أن تقتبس كل أمة من معارف الأمم التى سبقتها، ولولا ذلك لكان لزاماً أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى السابقة عليها، ولسد باب التقدم والتطور الحضاري [١]، « ولوجدنا أنفسنا اليوم فى مستوى أقرب إلى ما كان عليه الإنسان الأول فى العصر الحجرى، ولكن يكفى العرب فخرا أنهم لم يقنعوا بما تعلموه من غيرهم وإنما بحثوا واجتهدوا وابتكروا، وأضافوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضارى بعيداً إلى الأمام » [٢] وأضاءت الطريق لأوربا؛ فقامت حضارتها وتقدمت فى خطى ثابتة واسعة حتى وصلت إلى منتهى ما أمكن للعقل البشرى أن يصل إليه .

وقد أشعت هذه الحضارة ونشرت أضواءها على أوربا بوسائل وطرق كثيرة، من أهمها وأعظمها أثرا :

---

(١) حضارة العرب ص ٥٢٩ .

(٢) من مقال للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى المجتمع العربى ص ٤٦٩ .

١- طريق الأندلس، فقد أقام العرب هناك جامعات زاهرة قصدها طلاب العلم من أوربا، ونشر هؤلاء الطلاب فى بلادهم ما تعلموه من العرب، كما انتفع الأوربيون بدور الكتب الكثيرة التى كانت منتشرة فى أسبانيا، مما ساعد على إحياء العلوم فى أوربا فيما بعد .

٢- طريق صقلية، فإن المسلمين ظلوا فى هذه البلاد زهاء ١٣٠ سنة، فأصبحت المركز الثانى لنشر الثقافة العربية فى أوربا، وكان الملوك المسيحيون هناك يشجعون علماء العرب على الإنتاج العلمى، كما كانوا يدفعون رعاياهم إلى ترجمة الكتب العربية .

٣- طريق الشرق، فقد كانت الحروب الصليبية، والحج إلى بيت المقدس مدعاة لاختلاط الأوربيين بالعرب، فنقلوا عنهم الكثير من علومهم ومعارفهم وفنونهم وصناعتهم، كما حصلوا على كثير من الكتب العربية؛ فساعد ذلك على ظهور روح البحث، ودراسة علوم الأقدمين وآدابهم وفنونهم .

* * *

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

ألممنا فيما تقدم بما حققه العرب فى ميادين العلوم على اختلافها، وتبين فضلهم وأثرهم فى هذه الميادين، ومدى ما قدموه للعلم والحضارة من معارف وابتكارات لم يسبقهم أحد إليها .

وعرفنا كيف وصلت هذه الحضارة العظيمة إلى أوربا فأيقظتها من سباتها، وبقى أن نعرف ما كان لها من أثر واضح فى الحضارة الأوربية وتقدمها فنقول فى إيجاز :

إنه فى خلال الفترة الذهبية فى تاريخ الإسلام، أنشئت المدارس فى مختلف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، وكثرت المكتبات، وامتلأت بالمؤلفات فى مختلف العلوم حتى لقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس على ستمائة ألف مجلد، وكان بالأندلس سبعون مكتبة عامة، إلى جانب الكثير من المكتبات الخاصة .

اجتذبت هذه المدارس وتلك المكتبات الباحثين عن المعرفة من العالم المسيحى والإسلامى على السواء، وكان ممن درسوا فى مدرسة طليطلة، وأفاد منهم العلم: ميشيل سكوت، ودنيال مورلى . وأديلارديات، وروبرتوس انجليكوس وهو أول من قام بترجمة القرآن .

وفى مجال الطب، نجد مثلا أن كتاب « الحاوى » للرازى المؤلف من عشرين مجلدا، يجمع كل المعلومات الطبية التى كانت معروفة فى زمانة، وظل المرجع الوحيد المعترف به فى جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر .

وفى علم البصريات حقق المسلمون أعظم تقدم علمى، ورسالة الكندى فى العلم هى التى اعتمد عليها روجر بيكون فى دراسته لهذا الموضوع .

وقد عارض الكندى كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الشىء المرئى، فقرر هو أن شكل الجسم المرئى هو الذى ينفذ إلى العين مارا خلال الفتحة الشفافة (العدسة)، وقد اعترف بأثره بيكون ودافينشى وكيبلر .

وفى الكيمياء يعتبر جابر بن حيان مؤسس هذا العلم، فهو الذى نظم كثيرا من طرق البحث والتحليل، وركب عددا من المواد الكيماوية، وكانت أبحاثه وما توصل إليه من معلومات هى المراجع الأولى فى أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

وفى الرياضة يرجع إليهم الفضل فى الطرق الحسابية المستعملة فى الحياة اليومية فى عصرنا الحاضر، وهم الذين جعلوا من الجبر علما حقيقيا، وتقدموا به تقدما كبيرا، حتى اعتبروا أنهم هم الذين وضعوه، كما أسسوا علم الهندسة التحليلية وحساب المثلثات، الذى لم يكن معروفاً عند اليونانيين .

وفى الفلك توصلوا إلى كثير من النتائج القيمة، وحفظوا للأوربيين فى ترجمتهم للكتب اليونانية كثيراً من المؤلفات التى فقدت أصولها، وهم الذين قالوا بنظرية كرية الأرض التى أخذها عنهم من جاء بعدهم فى العصور الوسطى .

وفى علم طبقات الأرض يعتبر ما كتبه الرئيس ابن سينا فى كيفية تكوين الجبال والأحجار والمواد المعدنية وما إلى ذلك، من أهم المراجع التى اعتمدت عليها أوربا، فى إبان نهضتها العلمية .

وفى علم الاجتماع، يعتبر ابن خلدون أول مفكر اجتماعى؛ فهو أول من صاغ قوانين تقدم الأمم وانهيارها، وأول من عرف للعوامل الطبيعية والجغرافية والمناخية تأثيرها وأهميتها فى ذلك .

وفى اللغة والآداب والفنون، أثر الشعر العربى فى الأغانى والأناشيد الأسبانية، يقول جيب : «إن أعظم أثر للأدب العربى كان فى بعث روح الكتابة، فقد حرر الفكر الأوربى من النطاق الضيق التقليدى المميت» .

والغرب مدين للعرب أيضاً بإدخال الكثير من الاصطلاحات والآلات الموسيقية، وقد تفوق المسلمون كثيراً فى الفن والنقش وأشغال الذهب والفضة والآنية،وعنهم أخذت أوربا، كما تأثرت الفنون المعمارية فى الغرب بعناصر الفن الإسلامي .

وفى التجارة كان المسلمون رواد العالم الحديث، فقد أنشأوا النقابات، وعرفوا نظام الحوالات، وخطابات الاعتماد ووثائق الشحن .

وفى الفلسفة، يعد ما قام به الفلاسفة المسلمون من أعظم ما أمدت به الثقافة الإسلامية الفكر الأوربى، فقد نقلوا فلسفة اليونان، وبعثوها من جديد، وبخاصة مؤلفات أرسطو، وحتى القرن الرابع عشر كانت جامعة باريس لا تعترف بآراء أرسطو إلا على الوجه الذى تحدده تفسيرات ابن رشد .

وكانت كتابات الغزالى وابن رشد على وجه الخصوص، لها تأثير كبير على فلاسفة اللاهوت المسيحى؛ ومن بين المفكرين المسيحيين الذين تأثروا بفلسفة الغزالى وابن رشد، القديس توماس اكيناس، الذى وصلت إليه أراؤهما عن طريق مؤلفات ريموند مارتين، الذى تعلم فى مدرسة طليطلة .

وقد اتفق القديس توماس مع الغزالى فى كثير من المسائل أهمها: قيمة الفكر الإنسانى فى إثبات الحقائق الإلهية، والتوصل من مبدأ الافتقار والضرورة إلى إثبات وجود الله، ووحدة الله المبنية على اتصافه بكل كمال، وإمكان رؤية ذاته، وكونه عالما، وذاته بسيطة غير مركبة، وعقيدة البعص بعد الموت [١] .

وهكذا حفظت الحضارة الإسلامية لحضارات العالم الحديث ماوصلت إليه حضارة الأقدمين، كما أضافت إليها ما ابتكرته، وتوصلت إليه فى مختلف العلوم والفنون . ولولا هذه الفترة الزاهرة فى تاريخ الحضارة والفكر الإنسانى، وعناية العرب بالحضارات القديمة السابقة لضاعت معالم تلك الحضارات، ولما وصلت حضارات العالم الحديث إلى ماوصلت إليه؛ فإن أوربا حينما استيقظت وأفاقت من سباتها على ضوء لحضارة الإسلامية، وسنا برقها، واتجهت إلى هذه الحضارة الشامخة التى بهرتها، تنهل منها وتروى ظمأها، وظلت هكذا حتى ارتوت، وسارت فى طريق العلم والعرفان، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن .

ومن ثم، يتبين أن الحضارة الإسلامية قد أسهمت فى وضع أساس الحضارات الحديثة بنصيب موفور ، وأن فضلها عليها واضح غير منكور؛ وفى الحق، إن الحضارة

---

(١) أثر الإسلام فى المسيحية للمستر كراندال ص ٨ .

الإسلامية قد أحدثت ثورة علمية، عم يمنها وخيرها العالم الإنسانى كله، وقد اعترف بذلك كثير من المنصفين الأوربيين، يقول سارطون: « ... إن بعض المؤرخين يجربون أن يستخفوا بتقدمة الشرق للعمران، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً ما ... إن هذا الرأى خطأ، وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية، ويحافظوا عليها؛ لولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون» ..

ويعتقد الدكتور سارطون أن العرب كانو أعظم معلمين فى العالم، وأنهم زادوا على العلوم التى أخذوها، وأنهم لم يكتفوا بذلك، بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء .

ويقول نيكلسون: « ... وما المكتشفات اليوم لا تحسب شيئاً مذكوراً إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلاً وضاء فى القرون الوسطى المظلمة ولا سيما فى أوربا ...» .

ويقول ذى فو « ... إن الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به، أما العرب فقد أتقنوه، وعملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه إلى العصور الحديثة ..» .

ويقول سيديو « كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون، قد نشروهما أينما حلت أقدامهم، وتسربت منهم إلى أوربا؛ فكانوا هم سبباً فى نهضتها وارتقائها» .

كما يذهب إلى أن العرب هم فى واقع الأمر أساتذة أوربا فى جميع فروع المعرفة [١] .

وأخيراً نقول كما قال السيد أمير على : «وإنا نجد المسيو سيديو، لا يعدو الواقع فى قوله: إن الكنوز الأدبية العظيمة التى أوجدها العرب فى ذلك العصر، ونتاج

---

(١) راجع مقدمة كتاب : العلوم عند العرب للأستاذ حافظ طوقان .

نبوغهم العلمى، واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى، وتؤيد الرأى القائل : بأن العرب هم أساتذتنا فى كل شىء، إذ إنهم زودونا بمواد جليلة القيمة فى تاريخ العصور الوسطى، وبأسفار مجيدة فى التراجم، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها، وفنًا معماريًّا آية فى الروعة والجمال، واكتشافات هامة فى الفنون والصناعات » [1] .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٣٩٥ .

أهم المراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - السنة النبوية.

٣ - الخراج للقاضى أبى يوسف (ت ١٨٢ هـ)، ط الأميرية سنة ١٣٠٢ هـ، ط السلفية سنة ١٣٥٢ هـ.

٤ - سيرة ابن هشام (ت ٢١٨ هـ) بحاشية الروض الأنف، مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢ هـ.

٥ - المعارف لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٣ هـ.

٦ - الإمامة والسياسة لابن قتيبة، الطبعة الثانية سنة ١٣٢٥ هـ.

٧ - فتوح البلدان للبلاذرى (ت٢٧٩ هـ)، مطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩ هـ.

٨ - الكامل للمبرد (ت ٢٨٥ هـ)، مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ هـ.

٩ - تاريخ الأمم والملوك للطبرى (ت ٣١٠ هـ)، مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٧هـ.

١٠ - العقد الفريد لابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٩ هـ.

١١ - مروج الذهب للمسعودى (ت٣٤٧ هـ)، المطبعة البهائية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ.

١٢ - التنبيه والإشراف للمسعودى، دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف سنة ١٩٥٧ هـ.

١٣ - الأحكام السلطانية للماوردى (ت ٤٥٠ هـ)، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٧ هـ.

١٤ – طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢ هـ)، مطبعة السعادة .

١٥ – الملل والنحل للشهرستانى (ت٥٤٨ هـ)، تخريج الأستاذ بدران مطبعة مخيمر سنة ١٣٧٥ هـ.

١٦ – سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ)، المطبعة المصرية سنة ١٩٣١ م.

١٧ – معجم البلدان لياقوت الحموى (ت٦٢٦ هـ)، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ.

١٨ – إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (ت٦٤٦ هـ)، مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .

١٩ – الفخرى فى الآداب السلطانية لابن الطقطقى (ت ٧٠٩ هـ)، المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٥ هـ.

٢٠ – السياسة الشرعية لابن تيمية (ت٧٢٨ هـ)، مطبعة دار الكتاب العربى سنة ١٩٥١م.

٢١ – المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء (ت٧٣٢ هـ)، المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٥ هـ.

٢٢ – مقدمة ابن خلدون (ت٨٠٨ هـ)، بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى طبعة لجنة البيان العربى سنة ١٣٧٨ هـ.

٢٣ – صبح الأعشى للقلقشندى (ت٨٣١ هـ)، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩١٣ هـ.

٢٤ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى (ت٨٤٥ هـ)، مطبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ.

٢٥ – إمتاع الأسماع للمقريزى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤١م.

٢٦ – تاريخ الخلفاء للسيوطى (ت ٩١١ هـ)، المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ.

٢٧ – الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى المطبعة الأزهرية سنة ١٣٤٣ هـ.

٢٨ – تفسير روح المعانى للآلوسى (ت ١٢٧٠ هـ) المطبعة المنيرية.

٢٩ – أثر الشرق فى الغرب للمستشرق الألمانى جورج يعقوب، مطبعة مصر سنة ١٣٦٥ هـ.

٣٠ – حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون، مطبعة الحلبى سنة ١٣٦٤ هـ.

٣١ – مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى للسيد أمير على، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨م.

٣٢ – التمدن الإسلامى للأستاذ جورجى زيدان، مطبعة دار الهلال.

٣٣ – تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جورحى زيدان، مطبعة دار الهلال.

٣٤ – محاضرات المرحوم الشيخ محمد الخضرى، مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٤هـ.

٣٥ – تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار جـ ١، مطبعة الفتوح سنة ١٣٤٧ هـ.

٣٦ – تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار جـ ٢، المطبعة السلفية سنة ١٣٤٨ هـ.

٣٧ – تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم، مطبعة حجازى سنة ١٣٥٣ هـ.

٣٨ – النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم، وزميله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٨ هـ.

٣٩ – الإدارة العربية للأستاذ س. أ. ق حسينى، المطبعة النموذجية سنة ١٣٧٨هـ.

٤٠ – محمد رسول الله للفونس إتبين دينيه، مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٦م.

٤١ – الحضارة العربية للأستاذ ى. هل، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٣٧٥ هـ.

٤٢ – محمد المثل الكامل للأستاذ محمد جاد المولى، مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥١ هـ.

٤٣ – مناهل العرفان للمرحوم الشيخ الزرقانى، مطبعة الحلبى سنة ١٩٤٨م.

٤٤ – العلوم عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان، مكتبة مصر سنة ١٩٥٦م.

٤٥ – فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٣م.

٤٦ – الإسلام والحضارة العربية للأستاذ محمد كرد على، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤م.

٤٨ – الإدارة الإسلامية فى عز العرب للأستاذ محمد كرد علي، مطبعة مصر سنة ١٩٣٤م.

* * *

الفهـرس

الحضارة

تعريفها، نشأتها وأطوارها، عناصرها وعوامل تكوينها

(٥ - ١٦)

نشأة الحضارة وتطورها ٥

عناصر الحضارة وعوامل تكوينها ١٢

أحوال العالم والعرب قبل الإسلام

(١٧ - ٣٢)

الفرس ١٩

الروم ٢٠

أحوال بلاد العرب قبل الإسلام .. ٢٢

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب ٢٢

حالة العرب الدينية ٢٤

حالة العرب الاجتماعية ٢٥

علوم العرب ومعارفهم ٢٧

تجارة العرب ٢٨

صناعة العرب ٢٩

حالة العرب السياسية ٣٠

النتيجة لحال العرب ٣١

أصول الحضارة الإسلامية

(٣٣ - ٦٥)

القرآن الكريم والسنة النبوية ٣٥

الناحية الدينية ٣٦

الناحية الاجتماعية والأخلاقية .. ٣٧

المعاملات ٣٨

الحدود والقصاص ٣٩

الآداب الاجتماعية والأخلاقية .. ٤١

الناحية الاقتصادية ٤٣

الناحية الأدبية والعلمية ٥٢

الناحية السياسية ٥٥

الحضارة العربية ٦٠

الحضارة الفارسية ٦٣

الحضارة اليونانية والرومانية ٦٥

نظم الحكم

(٦٧ - ١٦١)

ديمقراطية الإسلام (الشورى) .. ٦٩
الخلافة ٧١
شكل الانتخاب ٧٦
الشورى فى تصرف الخلفاء الراشدين ٧٩
الخلافة ونظم الحكم الأخرى ٨١
الإدارة ٨٣
الوزارة ٨٥
الحجابة ٩٣
الكتابة ٩٦
تدوين الدواوين ٩٩
القضاء ١٠٦
قاضى المظالم ١١١
الحسبة ١١٧
الشرطة ١٢٣
البريد ١٢٥
الجيش ١٣٢
البحرية (نشأة الأساطيل الإسلامية) ١٤٦
حكومة الأقاليم ١٥٥

نشأة العلوم الإسلامية، وبدء الحياة العلمية

(١٦٣ - ٢٠٠)

الحديث ١٦٥
التفسير ١٧٦
الفقه ١٨٨
النحو ١٩٤

مظاهر العمران

(٢٠١ - ٢٣١)

بناء الأمصار ٢٠٣
البصرة ٢٠٣
الكوفة ٢٠٦
الفسطاط ٢٠٩
بغداد ٢١٢
طرز العمارة الإسلامية ٢١٤
الطرق التجارية ٢١٨
الفنون ٢١٩
الشعر ٢١٩
الخطابة ٢٢٢
الموسيقى والغناء ٢٢٤
الزخرفة والخط ٢٢٨

الحياة الاجتماعية

(٢٣٣ - ٢٥٨)

تكوين المجتمع العربى	٢٣٥	الرق	٢٤٢
الأسرة والمرأة فى الإسلام	٢٣٨	اشتراكية الإسلام	٢٤٨

الحياة الاقتصادية

(٢٥٩ - ٢٧٧)

الزراعة	٢٦١	التجارة	٢٧٠
الصناعة	٢٦٥	النظام المالى	٢٧٣

الحركة الفكرية

(٢٧٩ - ٣٢٤)

المذاهب والفرق	٢٨١	العلوم الطبيعية عند العرب	٣٠٥
الشيعة	٢٨٣	رأى الغزالى فيها	٣٠٥
الخوارج	٢٩٠	الطب	٣٠٥
المرجئة	٢٩٢	الفلك	٣٠٩
المعتزلة	٢٩٣	الكيمياء	٣١٢
أهل السنة	٢٩٤	الفيزياء	٣١٤
الفلسفة والتربية	٢٩٥	الرياضيات	٣١٦
مشاهير الفلاسفة	٢٩٦	الحساب	٣١٦
الكندى	٢٩٦	الجبر	٣١٧
الفارابى	٢٩٧	الهندسة	٣١٧
ابن سينا	٢٩٨	العلوم الاجتماعية	٣١٩
إخوان الصفا	٣٠٠	التاريخ	٣١٩
الغزالى	٣٠١	الجغرافيا	٣٢١
ابن رشد	٣٠٣	الاجتماع	٣٢٤

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

(٣٢٥ - ٣٣٣)

وسائل نشر الحضارة الإسلامية فى أوربا	٣٢٧	المراجع	٣٣٤
أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية	٣٢٩	الفهرس	٣٣٨